



ديوان الوقف الشيعي
الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة
دار القرآن الكريم

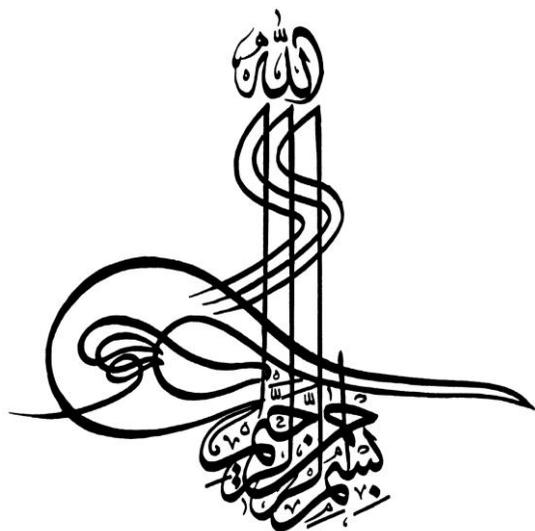
مَهَالَنْتَ دَبْرَ الْقُرْآنِ

بيان مبسط في معنى التدبر وكيفية
مع نماذج تطبيقية من سورتي الكهف ويوسف

بقلم

الشيخ أركان الخزعلي







الإمانة العامة للعقيدة الحسينية
شأن الأمة الإسلامية



اسم الكتاب: معاً لتدبر القرآن
المؤلف: الشيخ أركان الخزعلي
مراجعة وتحقيق وتقرض: الشيخ ضياء بلاسم المنصوري
مراجعة: الشيخ مرتضى عبود مهدي
تصميم الغلاف: مركز الهاشمي للابداع
نشر: دار القرآن الكريم فرع قم المقدسة
المطبعة: زلال كوثر
الطبعة: الأولى ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م
عدد النسخ: ٥٠٠
جميع الحقوق محفوظة

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]

وقال تعالى: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

[ص: ٢٩].

أكد القرآن الكريم في غير آية على تدبر آياته واستجلاء تعاليمه واستيحاء دلالاته من خلال التمعن والتدبر في كلماته وجمله بقصد التأثير والتأثير ببصائره، فإن نور القرآن لا يدخل إلا إلى قلب وعي القرآن، وإن نفحاته لا يشعر بها إلا من تأمل كلماته، وإن القلب الذي لا يتفكر في آيات القرآن قلب استولى عليه الظلام حتى عاد كالخربة المهجورة، وإن الخروج عن دائرة الغفلة مرهون بالتدبر والتفكير والتذكر بالقرآن، فإنه مائدة القلوب ومرشد العقول وهادي النفوس ومخرجها من الظلمات إلى النور بإذن ربها.

وفي سياق تعزيز هذا المفهوم القرآني قامت دار القرآن الكريم فرع قم المقدسة في ظل نشاطها واهتمامها بالمجهود العلمي والتعليمي للقرآن الكريم بتحقيق وتدقيق أحد الكتب المهمة بمفرده التدبر في القرآن الكريم والتي حملت عنوان: (معاً لتدبر القرآن الكريم) لمؤلفه سماحة

الشيخ أركان الخزعلي (دامت توفيقاته) حيث بنى الكتاب على قسمين أساسيين: أحدهما: في بيان مفهوم التدبر ومستوياته وأقسامه ونظائره. وثانيهما: في تطبيق هذه الدراسة على سورتي الكهف ويوسف. وهو كتاب جدير بالاهتمام والطباعة لافتقار المكتبات لمثل هذه الدراسات القرآنية.

وقد شاطرت دار القرآن الكريم بكادرها العلمي والفني مع مؤلف الكتاب العمل على هذه الدراسة وتقويمها لتكون مؤهلة كخطوة طيبة في هذا المضمار لتفتح آفاقاً رحبة للباحثين والمهتمين لتعميق مثل هذه الاهتمامات وتطويرها، سائلن المولى القدير أن يوفقنا لخدمة الكتاب والعترة وأن ينير دربنا بهديهما وبصائرهما إنه ولي التوفيق.

دار القرآن الكريم فرع قم المقدسة

الإهداء

أهدي هذا الجهد المتواضع

إلى سيدي ومولاي صاحب العصر والزمان عليه السلام

سائلاً الباري عزّ وجلّ أن يجعلنا من أنصاره وأعوانه

والمستشهادين بين يديه، إنّه سميعٌ مُجيب.

الشكر والتقدير

أُتقدّم بشكري الجزيل إلى السادة والمشايخ الأفاضل من أساتذتي وزملائي، وكل من أعانني وشجّعني على هذا المشروع، خدمةً للإسلام الحنيف وكتابه المُبارك، ولجمهور القراء الأعزّاء، كما أُقدّم شكري الخاصّ إلى سماحة الشيخ طلال الحسن^(١) والشيخ ضياء المنصوري^(٢) على متابعتهم وتقريضهم للكتاب، وإلى الدكتور علي جميل^(٣) على التصحيح اللغوي، فجزاهم الله جميعاً خيراً جزاء المحسنين.

راجين للجميع دوام الموفقيّة والسداد

(١) دكتوراه في علوم القرآن الكريم، وأستاذ وعضو في الهيئة العلمية لجامعة المصطفى العالمية - قم المقدّسة.

(٢) باحث إسلامي، ومسؤول القسم العلمي في دار القرآن الكريم في قم المشرفة - العتبة الحسينية المقدّسة.

(٣) دكتوراه في اللغة العربية، وأستاذ في كلية الآداب - الجامعة المستنصرية - بغداد.

كلمة الشيخ الدكتور طلال الحسن (دام توفيقه)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وآله الطاهرين على الرغم من أنّ كتب التفسير قليلة بالقياس إلى كتب الفقه وأصوله إلّا أنّها كثيرة بالقياس لما كُتِبَ في مجال التدبّر في القرآن الكريم، وإذا ما لاحظنا ما كُتِبَ في مجال التدبّر سنجد أنّ معظمها لم تع معنى التدبّر في القرآن حتى أنّ الكثير منها تعتبر أنّ التفسير والتدبّر معنيان مترادفان، أو أنّ التدبّر: هو مرتبة من مراتب التفسير مع أنّ قريشاً لمّا كان يوجهها القرآن بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: ٢٤] لم تكن محتاجة إلى تفسير الآية، ولا إلى تفسير القرآن، وإنّما كانت بحاجة إلى التدبّر في معانيه، (بمعنى النظر في مقاصده، والعمل في ضوئه). ولذلك صار من اللازم علينا دعم كل كتاب، أو بحث، أو مقالة يُحقق فهم معنى التدبّر في القرآن، ويعمل في ضوئه. وقد جاء هذا الكتاب المختصر المفيد (معاً لتدبر القرآن) للشيخ المهذّب أركان الخزعلي

منسجماً مع المعنى المطلوب من التدبر سواء في فصله النظري، أو التطبيقي، وسيجد القارئ الكريم متعة علمية وجذباً معنوياً في الكثير من سطور هذا الكتاب التعليمي. والتوجيهي لواحدة من أهم مفردة من مفردات القرآن وهي مفردة التدبر.

وفي الوقت الذي أثنى فيه على صاحب هذا الكتاب أتمنى عليه أن يواصل الطريق في رحلة التدبر في القرآن لينتفع به الناس فذلك خير وأبقى ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

الدكتور طلال الحسن

قم المقدسة

٢٣ / محرم / ١٤٣٨ هـ

تقريظ الشيخ ضياء بلاسه المنصوري (دام توفيقه)

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

من الحقائق النورانية التي ترتقي بالإنسان مدارج الكمال وأوج المعرفة، حقيقة التدبّر في آيات القرآن الكريم.

فالحقائق النورانية، واللطائف والإشارات الباطنية في القرآن كنوزٌ خفيةٌ لا يطلع عليها إلا المتدبّر في آياته، ولا تنكشف إلا للمتأمل في نصوصه. وإنّ مفتاح المعارف الدينية والوقوف على المعاني والدلالات الربانية يكمن في تدبّر المفردة القرآنية بما يكتنفها من ظروف وشرائط وفق أسس علمية.

ولا يخفى أنّ لدعوة القرآن إلى التدبّر وقعاً في نفوس حملته تشحذ الهمم فيهم؛ لبذل الوسع والجد في استنطاق معانيه، واستظهار دلالاته، واستجلاء

مفرداته، لتكون مقدمة للعمل بها ولتأطير السلوك بمحتواها، قال تعالى:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال تعالى:

﴿ كُنْتُ أَنْزَلْتُهُ إِلَيْكَ مَبْرُكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

والتدبّر ليس المقصود لذاته، بل هو وسيلة للتوصل إلى الحقائق والمرادات القرآنية، من أجل أن تدخل الفكرة في وعي الإنسان؛ لتقوده بالتفاعل إلى العمل بها.

ولذا يحتاج التدبّر إلى أجواء من صفاء النفس، وسموّ الذات، والحرية الفكرية، والدينية، للإفصاح بالمعاني والحقائق المتوصل إليها بواسطة التدبّر على المستوى النظري على أدنى تقدير. وأنّ القيود والتحديدات الفكرية والدينية والأفهام المكبّلة بضرورات اجتهادية تضرب طوقاً وأطراً محدودة في

تثوير آيات القرآن ولا تفسح مجالاً رحباً أمام المتدبر، بل تحجم مساحة الفهم والإدراك للمعارف القرآنية. وهذا ما يجعل التعامل مع آيات القرآن تعاملًا سطحيًا، وألفاظه مُهملة، ومعانيه متروكة لا حراك فيها، تعيش عزلةً في المنظومة الدينية بعيدة عن ملامسة الواقع، أو مناغمة له.

في حين أنّ تعاليم القرآن جاءت لتخطّ منهجاً ربانياً يقيم للناس أودّ حياتهم ويخرجهم من ظلمات الجهل والانحراف إلى نور العلم والبصيرة.

وقد جاء الكتاب المائل: (معاً لتدبر القرآن)، لسماحة الأخ الموفق صاحب الخلق القرآني الرفيع الشيخ أركان الخزعلي، رافداً من روافد تعميق الوعي والتدبر القرآني، وقد أطلعنا على مضامينه ووجدناه كتاباً مفيداً، ونافعاً، ومستوفياً للمضامين في مفردة التدبر على مستوى من خوطب به، وكتبه بأسلوب مبسط شيق، خال من التعقيد والإطناب والترف الفكري، مع اشتماله على نماذج تطبيقية يحاكي فيها الفئات العمرية المتوسطة من المثقفين، بل وطلاب المعاهد والجامعات، وقد أبدينا ملاحظات علمية وفنية على الكتاب أثناء سبر سطورهِ، وضعناها بين يدي المؤلف؛ لإنضاج مشروعه التدبري في القرآن، وقد أبدى المؤلف استعداداً وسعة صدر كبيرين في إصلاح الكتاب، حتى كان بهذه الحلة القشبية.

ونحن إذ نبارك لسماحته هذه الخطوة السديدة ندعو له بالتوفيق لإكمال هذا المشروع في تأليفات أخرى، خدمة للقرآن وتعزيزاً للعمل به، إنّه ولي التوفيق.

الشيخ ضياء المنصوري

٢٧ / ربيع الثاني / ١٤٣٨ هـ

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، والصلاة على من جعله شاهداً، ومبشراً، ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، وعلى آله الذين أذهب عنهم الرجس أهل البيت وطهرهم تطهيراً.

أمّا بعد:

فنبداً حديثنا من كلام الإمام الحسين عليه السلام حيث قال: «كتاب الله عز وجل على أربعة أشياء..على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»^(١).

فالقرآن بمنزلة مائدة نازلة من الحق إلى الخلق، مشتملة على أنواع الرزق، والكل يتزوّد منها، ولكن كل بحسبه، فقد أنزل الله تعالى القرآن لتأديب الخلق، ومعرفة الحق، والاهتداء بالسبل لتنوير القلب والعقل، وحيث أمرنا الله تعالى بتدبر القرآن للوصول إلى عمق معارفه، ذكر التدبر في أربعة مواضع، قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، و﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، و﴿ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ٢٧٨.

وَلْيَتَذَكَّرْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿ [ص: ٢٩]، و﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ
ءَابَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

وكذلك وَرَدَ الحثُّ على التدبُّر في روايات أهل العصمة عليهم السلام فقد جاءَ
عن أبي عبد الله عليه السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام: «...لا خير في قراءة ليس
فيها تدبُّر، لا خير في عبادة ليس فيها تفكُّر»^(١)، وعن أمير المؤمنين عليه السلام
أنه قال: «تدبُّروا آيات الله، واعتبروا فإن فيها أبلغ العبر»^(٢).

فالتدبُّر ما هو إلَّا فيضٌ من فيوضاته سبحانه، ونهرٌ عذبٌ من أنهاره
يروى بها عقول وقلوب عباده لفهم مراد كلامه، للولوج في بحر معرفته
التي من أجلها خلق الخلق.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤالٌ لأوَّل وهلة حاصلة: ما المقصود من التدبُّر؟
وما هو السبيلُ إليه؟ لكي يتحقق الامتثال لأمر الله عزَّ وجلَّ بتدبُّر آياته؛
لذا شرعتُ بالكتابة في هذا المجال وإعطاء رؤية واضحة عن مفهوم
التدبُّر وكيفيته، وهي الخطوة الأولى ضمن مشروع (معاً للتدبُّر القرآن)،
كتبته لعموم المسلمين، ولكل قارئٍ للقرآن.

وأستطيع أن أقول: أنَّ هذا الكتاب مرَّ بثلاث مراحل طويلة، فالأولى:
تولَّدت فكرته، بعد عام (٢٠٠٧م) بقليل، حيثُ خَدَمْنَا الأجواء وظروف

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٦.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم: ص ٣١٨.

العزلة والتوجّه والعيش في رحاب القرآن وتلاوته وضبط أحكامها، ثمّ مطالعة الكثير من كُتب التفسير المأثورة، وغير المأثورة، وبعدها الانتقال إلى التدبّر وممارسته، والتأمّل في معظم آيات القرآن الكريم، ثمّ تركتُ المشروع لفترة ليست بقصيرة، بسبب انشغالي في التحصيل العلمي لمرحلة المقدمات في حوزة النجف الأشرف، فلم أوفق في حينها لإخراجه إلى عالم الوجود، ولأسباب كثيرة، من أهمها: عدم توقّر المختصّين الذي يسهّل علينا مراجعتهم، أو التلمذ على أيديهم، وعدم امتلاكي الخبرة الكافية لترجمة الأفكار والتأمّلات لتظهر بشكل عبارات منظمّة ومنسّقة في كتاب.

أمّا المرحلة الثانية: كانت عند بدء العمل بكتابة سطورهِ وتنظيم عباراته تحت دعم الإخوة الزملاء والأساتذة الأعزّاء من المهتمّين بالشأن القرآني في حوزة قم المقدّسة، حيث استغرق ذلك فترة ليست بوجيزة. وأمّا المرحلة الثالثة: تمثلت في عرضه على اللجنة العلمية في دار القرآن الكريم التابعة للعتبة الحسينية- فرع قم- وقد رسموا لي منهجية وأسساً تنسجم مع الضوابط العلمية والفنيّة في فنّ الكتابة والتأليف، سواء في هذا الجزء من المشروع، أو في الأجزاء اللاحقة إن شاء الله، واستمر العمل والتعاون معهم مدّة ليست بقصيرة أيضاً، مُستفيداً من كل ملاحظاتهم. أملاً أن يحقّق جهدي هذا خدمة متواضعة للقرآن الكريم. وعلى ذلك تناول الكتاب مستويين من التدبّر. مستوى قد توخّيت فيه

الوضوح ما استطعت، ليستفيد منه عوامّ الناس من الذين أعرضوا عن قراءته فضلاً عن تدبره، ومستوى لمن كان له نصيبٌ من قراءة القرآن، لكنّه لم يستشعر عظّمته^(١)؛ ليعالج بذلك الهجران والإعراض عن كتاب الله تعالى، وهذا الهجران يصدق على أيّ مرتبة من مراتب القرآن، والتي منها التدبر في آياته: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

على الرغم من أنّ الذين هجروا تلاوته، أو الذين يتلونونه من غير تدبر يؤمنون إيماناً نظرياً بأنّ هذا القرآن هو كتاب هداية ونور، ولكنهم لم يصلوا إلى كيفية شمول أحكام القرآن لكل القضايا: الاجتماعية، والاقتصادية، والأمنية، والسياسية، وغير ذلك.

فعدم تدبر القرآن، يؤدي إلى عدم اليقين بوجود تفصيل لكل شيء فيه، أو عدم وجود منهج له، أو حلّ لكل مشكلة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]، مما جعل الكثير من مجتمعاتنا المسلمة تضطرب حياتهم بكل مفاصلها.

ومن هنا رأينا من الواجب تقديم رؤية واضحة، ومبسطة عن مفهوم التدبر وكيفيته، والبحث في هذا الحقل القرآني، وبعد أن وجدنا المكتبة الإسلامية خالية من إشباع هذا الموضوع المهم، وكذلك لكي نكون في

(١) ستوضح تلك المستويات في الفصل التطبيقي من الكتاب.

عداد المتدبرين في القرآن، الخارجين عن الذين وصفهم الله تعالى بأصحاب القلوب المقفلة، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وحيث أن الكتب التي أُعدت، وطُبعت سواء كانت في الفقه، أو العقائد، أو الأخلاق، وغيرها، هي لهداية الناس وارشادهم، كذلك هدفنا من هذا الكتاب، والله يهدي لدينه من يشاء، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۗ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

التمهيد

- ❖ تقسيمات البحث
- ❖ بيان مفهوم التدبير
- ❖ موضوع التدبير
- ❖ الثمرة من التدبير

تقسيمات البحث

التمهيد:

يتضمّن بيان مفهوم التدبّر، وخصالته: هو المسّ القلبي للقرآن، فيحصل التفاعل مع الآيات، ثمّ الامتثال لها، وذلك غير منحصر بفئة معيّنة، بل هو لعامة الناس. وموضوعه: آيات القرآن الكريم. والثمرة المترتبة منه: الحياة السعيدة بامتثال أمر الله عزّ وجلّ واتّباع الرسول ﷺ، فهو برّ الأمان، والنجاة من ظلمات الدنيا وعذاب الآخرة.

الفصل الأوّل: الجانب النظري في التدبّر، وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأوّل - فيه ستة مسائل في مقومات التدبّر: من ذكر ضوابطه، والفرق بينه وبين المعاني التي قد يُتوهّم مرادفتها له، ومراتبه، وآداب المتدبّر في آيات الله تعالى، وكذلك العلامات الحاصلة للمتدبّر، والإشكالات التي يتوقّع أن تواجه مفهوم التدبّر وكيفيته، والردّ عليها.

المبحث الثاني: قدّمنا فيه نماذج تطبيقية لبعض الآيات المختلفة بكلا مرتبتي التدبّر الظاهري والباطني لتكون أنموذجاً لتعلّم التدبّر.

المبحث الثالث: بيّنا فيه المنهج والأسلوب الذي اتبعناه في التطبيق، وتقديم الأطاريح، سواء في سورتي الكهف ويوسف، أو ببقية القصص القرآنية إن قدر لنا الله تعالى تقديمها، وخصالته هذا المنهج هو: أنّنا نقدّم

أيّ فكرة، أو خاطرة تَرِدنا حول القصص القرآنية ولم تكن مخالفة للقرآن، أو أنها مخالفة لِسنة النبي ﷺ والأئمة الأطهار (عليهم السلام)، مع ذكر الشواهد والقرائن عليها، مُركّزين فيها على جوانب مختلفة من قبيل المواعظ الأخلاقية، وحلّ المشكلات الاجتماعية، وذكر النكات أو المضامين الجديدة، وربطها بواقعنا الحالي، وكل همنا وجَل اهتمامنا خدمة القرآن الكريم مستمدين العون من الله سبحانه.

الفصل الثاني: الجانب التطبيقي في التدبر، وفيه مبحثان:

المبحث الأوّل - سورة الكهف، وفيه ثلاثة محاور:

المحور الأوّل: في معاني مفردات السّورة.

والمحور الثاني: في أطاريح ثلاث حول قصص السّورة.

الأولى - ربط القصص الأربعة في السّورة بفتن الدجال حيث أنّ كل قصة منها تُمثّلُ فتنةً من فتن الدجال.

والثانية - ربط قصص السّورة بالمراحل الأخلاقية: (التخلّي، والتحلّي، والتجلّي) حيث أنّ كل قصة تُمثّلُ مرحلة من المراحل المذكورة.

والثالثة - ربط قصص السّورة بالأسفار القلبية وبيان المنهج والطريق لمريدي السير والسلوك إلى الله تعالى. ونكون بذلك قدّمنا ثلاث مستويات من التوضيح والبيان، فالقرآن كالبحر له عدّة مستويات، فمن دخل البحر لا بدّ له من السباحة في المستوى الأوّل، وهو سطح البحر، أو الغوص في المستوى الثاني؛ لمعرفة أسراره، وهو عمق البحر، أو الغور

في المستوى الثالث؛ لاقتناء كنوزه، وهو قاع البحر. وكلها موصلة إلى برّ الأمان، لتكون شاملة لعامة الناس باختلاف قدراتهم، على الرغم من أنّ القرآن أعظم من البحر، بل أعظم من المحيط الذي لا ساحل ولا نفاذ له: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

المحور الثالث: في فوائد عامة مستنبطة من عموم السّورة.

المبحث الثاني: في سورة يوسف عليه السلام، وفيه ثلاثة محاور:

المحور الأول: في معاني مفردات السّورة.

المحور الثاني: في أطروحتين حول السّورة.

الأولى: في بيان مقامات التائبين، حيث اعتمدنا على قصة السيدة زليخا، وربطها بواقع كل شخص منا، فقد يُخطئ، ثم يتوب وتُحسن عاقبته كالسيدة زليخا، ويصل إلى ساحة قبول إمام زمانه، كما وصلت إليه السيدة زليخا.

والثانية: في ربط قصة النبي يوسف عليه السلام بقضية مولانا الإمام الحجة صاحب العصر والزمان عليه السلام، وذكرنا فيها أوجه التشابه حسب ما وردت في الروايات الشريفة، وبيننا النكات، والمواعظ، والفوائد من معرفة إمام الزمان عليه السلام، وكما ورد: «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة»

جاهلية^(١).

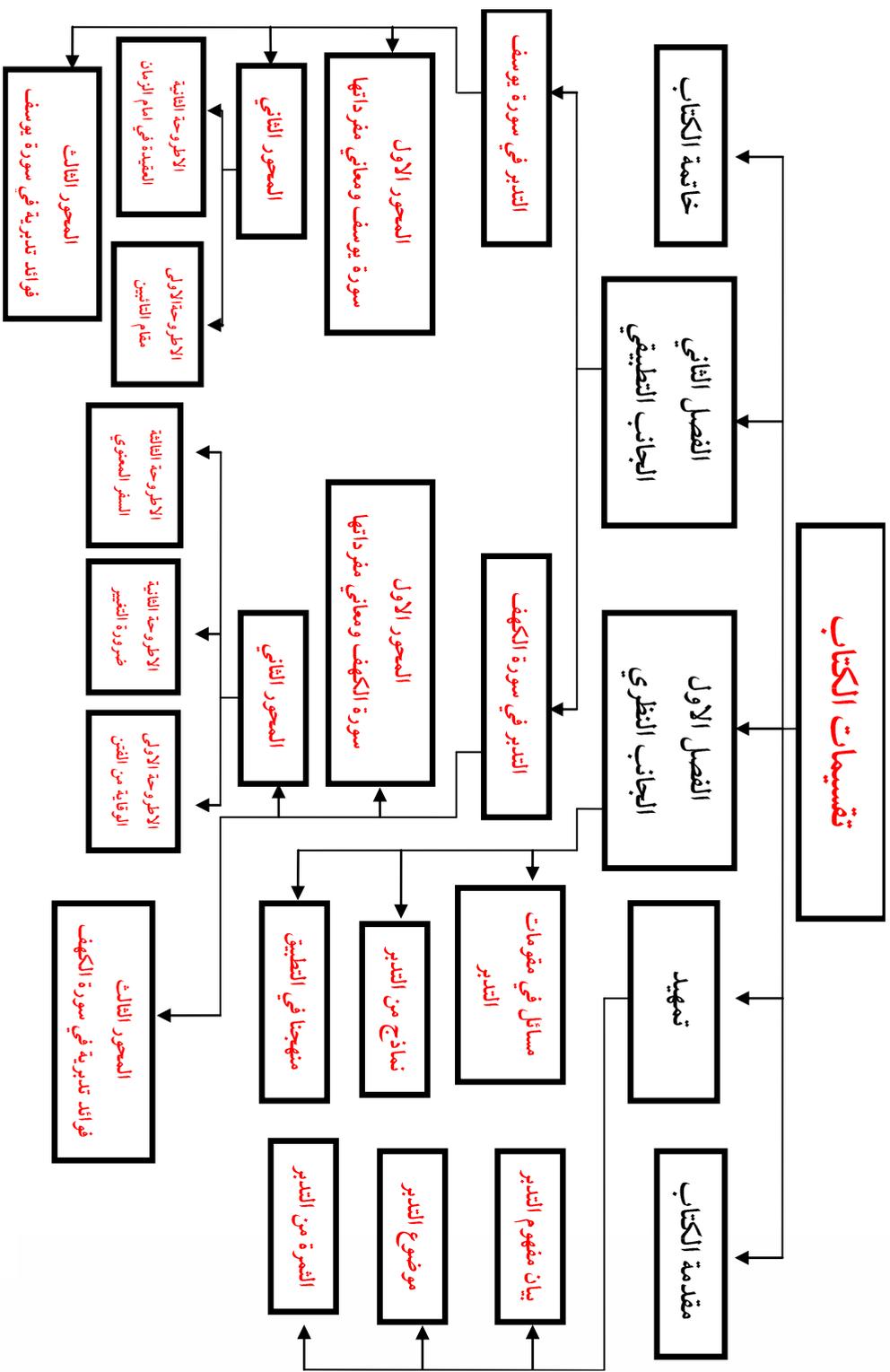
المحور الثالث - في فوائد عامّة حول عموم السّورة.

كذلك استعملنا أسلوب التخطيط في بعض الأطروحات؛ لتسهيل فهمها، أو لتكون بمثابة خلاصة لها.

وقد تبين لنا بعد إتمام البحث أنه مهما كتبنا، أو كتبتَ غيرنا في هذا المجال، فلن يُحقق المطلوب، والصواب هو: أن كل إنسان لابدّ له أن يغترف بنفسه من العين الصافية، وأن ينهل من النبع بحسب سعة وعائه، كما قال تعالى: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧]، فإنّ من شأنه تعالى هو العطاء والإمداد، يُمدّ كل من يحتاج إلى إمداده ويُعطيه ما يستحقه: ﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠]، فعطاءه غير ممنوع من قبله تعالى، فمن بحثَ وبذلَ جهده فسيجد، سواء كان ظاهرياً، أو باطنياً، وبمختلف المستويات. نعم؛ القرآن بحرٌ مَوَّجٌ لا نهاية لحقائقه ومعارفه ومعانيه، والذي يمكن أن يدرك حقائق القرآن كما هي، هم أهل البيت وأهل العصمة والطهارة عليهم السلام، الذين هم نفس القرآن.

وهذه هي الخلاصة والفكرة العامّة للكتاب، فنسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً، وأن يرزقنا العلم، والعمل به، إنّه حميدٌ مجيد.

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ج ٢، ص ٤٠٩.



بيان مفهوم التدبّر

التدبّر لغة :

١ - «دُبِرَ كُلُّ شَيْءٍ خِلافَ قَبْلِهِ، وَيُقَالُ لِلْقَوْمِ فِي الْحَرْبِ: وَلَوْهَمُ الدُّبْرِ، وَأَدْبَارَ السُّجُودِ، أَي: أَوْ آخِرَ الصَّلَوَاتِ، وَإِدْبَارَ النُّجُومِ عِنْدَ الصَّبْحِ فِي آخِرِ اللَّيْلِ، وَدَبَّرَ يَدْبُرُ دَبْرًا، أَي: تَبَعَ الْأَثَرَ، وَقَطَعَ اللَّهُ دَابِرَهُمْ، أَي: آخَرَ مِنْ بَقِيهِمْ»^(١).

٢ - «الدُّبْرُ وَالدُّبْرُ: الظَّهْرُ، خِلافَ القُبْلِ، وَدَبَّرُ الأَمْرَ وَدَبَّرُهُ: آخَرَهُ، وَدَبَّرَ الرَّجُلُ: وَلَّى وَشَيَّخَ، وَدَبَّرَ بِالشَّيْءِ: ذَهَبَ بِهِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَلَيْلٌ إِذْ أَدْبَرَ﴾، أَي: تَبَعَ النَّهَارَ قَبْلَهُ»^(٢).

٣ - «دَبَّرَ الأَمْرَ وَتَدَبَّرَهُ: أَي: نَظَرَ فِي عَاقِبَتِهِ، وَعَرَفَ الأَمْرَ تَدَبُّرًا، أَي: بِآخِرِهِ، فَتَدَبَّرَ الكَلَامَ، أَي: النَظَرَ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ، ثُمَّ إِعَادَةَ النَظَرِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ»^(٣).

٤ - «تَدَبَّرَ القَوْلَ: النَظَرَ فِي عَاقِبَتِهِ، ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القَوْلَ﴾^(٤) أَي: لَمْ يَتَفَهَّمُوا

(١) الفراهيدي، خليل بن أحمد، كتاب العين: ج ٨، ص ٣١.

(٢) الجوهري، اسماعيل بن حماد، الصحاح: ج ٢، ص ٦٥٢.

(٣) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج ٤، ص ٢٧٣.

(٤) سورة المؤمنون: ٦٨.

ما خوطبوا به»^(١).

التدبر اصطلاحاً:

ذَكَرَ العلماءُ والمفسِّرونَ والباحثونَ معنى التدبُّرِ. ولو تأملنا فيما ذكروه من تعريفات على اختلافها نجد أنها متضمِّنة لمعنى واحد، وهو: النظر في أو آخر الأمور والتأمل فيها والتأثر بها. وإليكم بعض الآراء لعلمائنا المعاصرين:

١ - جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

أنَّ التدبُّرَ هو: «أخذُ الشيء بعد الشيء، بمعنى التأمل في الآية عقيب الآية»^(٢).

٢ - جاء في تفسير الآية السابقة أنَّ التدبُّرَ: «بمعنى التأثر، والمقصود منه التأثر في الإعجاز والآيات»^(٣).

٣ - جاء كذلك في تفسير نفس الآية أنَّ التدبُّرَ: «من مادة دَبَّرَ، وهو مؤخِّرة الشيء، وعاقبته، بمعنى: البحث عن نتائج آثار الشيء (أي: التحقق في نتائج الشيء)»^(٤).

(١) الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط: ج ٢، ص ٢٦.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٥، ص ١٩.

(٣) مغنية، محمد جواد، تفسير الكاشف: ج ٧، ص ٧٤.

(٤) الشيرازي، ناصر مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ٦، ص ٢٩٣.

٤ - التدبّر هو: «التفكّر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلام، ومراميه البعيدة»^(١).

وحيث أننا لم نجد تعريفاً واضحاً ودقيقاً في ما يخصّ التدبّر في آيات القرآن الكريم من حيث اللغة والاصطلاح، أو ما هو المقصود من عواقب الأمور، أو أدبار الآيات، أو مقاصدها؟! سواء في أقوال أهل اللغة: حيث ذكروا أنّ التدبّر مأخوذ من النظر في أدبار الشيء وعواقبه ونهاياته، أو ما تلخّصت في أقوال أهل الإصطلاح بأنّ التدبّر بمعنى: النظر في عواقب الأمور والتأثر بها. فإنّ ما ذكره كان عاماً ومجماً، ولعلّ مرادهم بلفظة (الكلام، الشيء) فيما يخصّ آيات القرآن الكريم وغيرها كالأحاديث والروايات وحتى الكلام المتداول بين الناس؛ لأنّ لفظة الشيء أعمّ من أن تكون كلاماً. وهو بعيد عما نريد فهمه بخصوص التدبّر في آيات القرآن الكريم وهي كلام الله تعالى لا غير، فتبقى تلك التعريفات بنظرنا تحتاج إلى توضيح، وإن ذكر بعضهم خصوص آيات القرآن، لكنهم لم يوضّحوا ما هو المقصود بأدبار الآيات، أو مراميه ومقاصدها، أو ما هو التأمل والتأثر بها، وما إلى ذلك.

لذا يُمكن لنا أن نحرّر مفهوم تدبّر القرآن بمعنى مختصر بإذن الله تعالى، وذلك بعد أن نتأمّل بقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ أُمَرَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، بمعنى: وجود قياس استثنائي يقع بين الإثبات

(١) الميداني، عبد الرحمن حنيفة، قواعد التدبّر الأمثل: ص ٤.

والنفي وهو: أن الإنسان إما متدبرٌ للقرآن، وإما قلبه مُقفَل لا يتدبرُ كلام الله تعالى، فنجد أن التدبرَ القرآني في الآية الكريمة جيء به مقابل القلوب المقفلة، ومن منطلق معرفة الأشياء بأضدادها، فإننا لو عرفنا معنى القلوب المقفلة لا تُضح لنا التعريف القرآني لمعنى التدبر على وجه الدقة، فقد جاء في الرواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) في قوله تعالى: ﴿أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] قال: «إِنَّ لَكَ قَلْبًا وَمَسَامِعًا، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَهْدِيَ عَبْدًا فَتَحَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ خَتَمَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ، فَلَا يَصْلِحُ أَبَدًا وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْقُرْآنَ أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]»^(١).

فاتضح لنا معنى القلوب المقفلة: (ختم مسامع قلبه) ويقابله (فتح مسامع قلبه)، وبتفتح مسامع القلب يحصل المسّ القلبي لآيات القرآن، فيقف عليها ويتفاعل معها، ليمثل لأمر الله عزّ وجلّ وهو معنى التدبر. وبعبارة أخرى: أن التدبر هو: المسّ القلبي لآيات القرآن الكريم، بالوقوف عليها، والتفاعل معها بإستنطاقها^(٢)، واستخلاص الحقائق القرآنية من حكم، ومواعظ، وحلول لمشاكل إجتماعية واقتصادية ونحوها، ثمّ الامتثال لما يُريده الله جلّ جلاله. ومعنى المسّ القلبي

(١) البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن: ج ١، ص ٢٠٠.

(٢) الإستنطاق بمعنى: طلب النطق، أو: عدّه ناطقاً ومبيّناً لكل شئ. أنظر: القزويني، الملا خليل،

الشافعي في شرح الكافي: ج ١، ص ٥٢٠.

للآيات: هو حضور القلب بخشوعه عند تلاوة الآيات القرآنية. ومعنى الوقوف على الآيات: هو الرجوع لمعاني القرآن في كتب التفسير وما قُبِلَ فيها. ومعنى التفاعل مع الآيات: هو التفكير المعمق في أبعاد الآية المختلفة وبجميع الجهات، لاستنطاقها في مختلف المواقف الحياتية، ومعرفة الأمر القرآني حول أيِّ موقف منها، سواء ما تمّ التفاعل بظواهرها، أو بباطنها على حد سواء. والمقصود بالظاهر: هو التأثير في نفس ظاهر الآية وانعكاسها على القلب^(١)، وأمّا المقصود من الباطن: فهو استخراج مفاهيم عامّة تتطابق مع حال المتدبّر على الصعيد الشخصي، أو المجتمعي، ولا تتعارض مع ظواهر الآية كما سيّجيء بيان ذلك أكثر في المباحث اللاحقة إن شاء الله تعالى^(٢). وأمّا معنى الامتثال للآيات: هو ما يشمل العمل والسلوك، وتطبيق ما أمرت به ونهت عنه الآيات القرآنية. وحاصلُ التعريف موصول إلى عواقب، وأدبار، ومقاصد الآيات، وهو ثمرة الإيمان وعاقبة التدبّر.

خلاصة معنى التدبّر:

أنّ العامل الرئيسي للتدبّر هو القلب، على أساس تقلّب ذلك القلب في الميدان القرآني خلال عملية التدبّر، فحضور القلب عند التلاوة يجعلك تتفاعل معها، ومن ثمّ أخذ العبرة منها، ثمّ الامتثال لأمر الله عزّ

(١) سيأتي بيانه في مبحث ضوابط التدبّر: ص ٤٧، وفي مبحث نهاج من التدبير الظاهري: ص ٧٩

(٢) سيأتي بيانه في مبحث ضوابط التدبّر: ص ٤٩، وفي مبحث نهاج من التدبير الباطني: ص ٨٢

وجلّ وهو مقصد القرآن. وعلى هذا الأساس يتّضح لنا: أنّ التدبر هو المسّ القلبي للقرآن وهو منسجم مع قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٩]. ولا يحصل المسّ القلبي إلّا بتطهيره من الشوارد والزوائد التي تجعله يسرح خارجاً عما يتلوه، أو يسمعه من القرآن، حتى يبقى قلب القارئ يدور في ساحة المعاني القرآنية، وإذا أصبح القلب قلباً قرآنياً، مستعداً لاستشعار عظمته، ومسّ حقائقه، عندها سيُسقى شراباً طهوراً ﴿وَسَقَّيْنَاهُمْ مِنْ شَرَابٍ طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، والساقى هو (رَبُّهُمْ) و(شَرَاباً طَهُوراً) فهم معانيه، وإدراك حقائقه، وهي رحمته جلّ ثنائه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وهداياته سبحانه، كما في قول الإمام «إنّ الله إذا أراد أن يهدي عبداً فتح مسامع قلبه»^(١). وعندها سيدخل في عداد المتدبرين إن شاء الله تعالى.

وبمعنى آخر: أنّ تطهير القلب هو الوسيلة لتدبر القرآن، وليس معنى التدبر هو المعنى المتداول الذي يفهمه الكثير من المسلمين، باعتقادهم أنّه تفسير، أو هو تأويل للقرآن، وذلك مختصّ بفئة معينة، ولا يعذر عامّة الناس من التدبر بحجّة عدم استطاعتهم فهم القرآن بمستوى التفسير، أو التأويل، فهذا هو الخطأ في فهم التدبر، فهجر تدبر القرآن ما هو إلّا خطوة من خطوات الشيطان ومصيدة ليوقع العبد بها، ليمنعه من

(١) البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن: ج ١، ص ٢٠٠.

تدبر القرآن الموصّل إلى امتثال أوامر الله تعالى.
 فيا إخوتي ها هو النبي ﷺ يحثنا على تدبر القرآن، ويشكو من هجرانه:
 ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].
 وها هو أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول لنا: «لا خير في قراءة ليس فيها تدبر»^(١)،
 بمعنى: لا تكون التلاوة تلاوة وهي خالية من التدبر، فلا بد أن يكون مع
 التلاوة تدبر، كما قال تعالى: ﴿ كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ
 وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٦.

موضوع التدبر

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

من حقوق القرآن الكريم تلاوته وتدبره والعمل به، كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ كَرِيمٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكًا فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

والعجب كلُّ العجب ممَّن يُعْرِضُ عن تدبُّر القرآن، ويجعله وراء ظهره، ويكتفي بالتبرك بقراءته، وينسى أنه كتاب هداية ودستور عملي، نعم؛ وَرَدَّتْ روايات كثيرة في أجر وثواب قراءة القرآن الكريم لكل سورة، بل لكل آية وكل حرف، وآيات تُرشدنا وتأمُرنا بقراءته، والإنصات إليه عند سماعه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، ولكن هذا ليس هو الحدُّ الذي ينبغي أن يقف عليه المسلم، وإلَّا كيف يكون القرآن حبلًا متيناً يقود المسلم إلى النجاة والحياة الحقيقية! كما قال النبي الأكرم ﷺ: «كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض»^(١) أي: إن تمسك المسلم بأحد طرفي

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ج ١، ص ٢٣٥.

الجبل وهو القرآن ستفاض عليه الألفاظ والأنوار الإلهية التي تقوده إلى الصلاح والفلاح.

إذن؛ أهم ما ينبغي فعله هو: التمسك في القرآن بقراءته، أو سماعه، ثم تدبره، وذلك هو معنى تعظيم القرآن، كما عظم سبحانه كتابه، ووصفه بعدة صفات منها: قوله تعالى: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ [ص: ١].

وقوله تعالى: ﴿يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ١، ٢].

وقوله تعالى: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ [ق: ١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٨٠].

وأول الخلق تعظيماً لكتاب الخالق هو نبيه ﷺ، الذي أمرنا باتباعه والافتداء به، حيث كان يتلوه ليلاً ونهاراً ويتدبر آياته، كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «لا خير في قراءة ليس فيها تدبر»^(١)، فأول المقتدين والمتأسين به هم أهل بيت النبوة (عليهم السلام).

فَتَحَصَّل: أن موضوع التدبر الواجب هو الآيات القرآنية لا غيرها.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٦.

هل يشمل التدبر الآيات الكونية؟

بمجرد النظر وبأدنى تأمل في الآيات التي ذكرت فيها لفظة التدبر نرى أنّها استعملت في خصوص القرآن فقط، من قبيل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وفي قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤]، وفي قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَذَبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وفي قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبْرَكٌ لِيَذَبَرُوا عَائِيَتِهِ وَليَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

أمّا التي ذكرت فيها الآيات الكونية، فاستعمل فيها التفكير، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقوله تعالى: ﴿ يُنَبِّئُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١١].
وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا لَكُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجمانية: ١٣].

اتضح لنا أهمية التفكير في الآيات الكونية، والتحذير من إهمالها، كما ورد عن النبي ﷺ في ذكر الآية: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا

سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿ [آل عمران: ١٩]: «ويلٌ لمن لآكها بين فكيه ولم يتأمل فيها»^(١).

وكذلك اتّضح لنا موضوع التفكير والتدبّر من خلال النظر البسيط في الآيات القرآنية والروايات الشريفة، كما ورد «لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر، لا خير في عبادة ليس فيها تفكّر»^(٢).

بمعنى: أنّ موضوع التدبّر هو الآيات القرآنية، وموضوع التفكير هو الآيات الكونيّة، وهو أيضاً عبادة حسب تعبير الإمام (عليه السلام)، كالوصول إلى وحدانيّة الله تعالى من خلال النظر في الآيات الكونيّة، وقصّة الأعرابي خير دليل لما وصل إليه نتيجة التفكير عندما عبّر بعفويّة حينما سُئل عن دليل وجود الله تعالى؟ فقال: «البعرة تدلُّ على البعير، وأثر الأقدام يدلُّ على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، لا تدلان على العليّ القدير»^(٣).

فَتَحَصَّلَ: أنّ موضوع التفكير: هو الآيات الكونيّة، وقد صنّفت في ذلك أبحاث عديدة ومستقلّة، وليس هنا محلّ تفصيله. وأمّا التدبّر، فموضوعه: الآيات القرآنية وجاء الأمر فيها لا غير.

(١) الفيض الكاشاني، محمد محسن، تفسير الصافي: ج ١، ص ٤٠٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المجلسي، محمد باقر، مرآة العقول في شرح أخبار الرسول: ج ٧، ص ١٣٥.

هل يشمل التدبر الأحاديث والروايات؟

الأحاديث والروايات هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، وتشمل أقوال النبي الأكرم ﷺ وأهل بيته الأطهار (عليهم السلام)، فهي شارحة لكثير من آيات القرآن الكريم وأحكامه، وكذلك إن أردنا التأكد من صحة فهمنا لآيات القرآن والتدبر فيها، علينا الرجوع إلى الروايات الصحيحة؛ لإثبات صحة التدبر والفهم القرآني، وبهذا تكون المرجعية الأولى للقرآن الكريم ويليه في الحجية تشريع السنة النبوية الواصلة إلينا. وأنّ تشريعها في طول تشريع القرآن وليست مستقلة وإنما هي في عرضه.

نعم؛ لو كنا في عصر النصّ وكان المعصوم (عليه السلام) بين ظهرانينا لكان كلامه مقدماً على فهمنا للقرآن الكريم؛ لأنّ كلامه هو الحكم الواقعي، ولا حجية للاجتهادات مقابل كلام المعصوم (عليه السلام)، وإنّما الكلام فيما وصل إلينا ونسب إليهم (عليهم السلام)، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

فالاختلاف بين السنة والقرآن: أنّ القرآن متواتر الصدور وقطعي النص، بينما أغلب الروايات والأحاديث تُنقل بالمعنى، وفيها بعض الآفات، كالوضع، والتقطيع، والدس. أمّا القرآن، فهو كلام الله عزّ وجلّ الذي أمرنا بقراءته وتلاوته في الصلاة وخارجها ولم يُنقل منه شيء بالمعنى، أو بالاختصار، بل جاء نصاً كاملاً مُصاناً من أيّ زيادة، أو نقصان ولا حتى مجرد احتمال الزيادة والنقصان؛ لذا ورد الحث والتأكيد على التدبر في القرآن الكريم.

الخلاصة:

أنّ موضوع التدبّر: هو كتاب الله تعالى، فَمَنْ هَجَرَ التَّدْبَرَ هَجَرَ الْقُرْآنَ، وَمَنْ هَجَرَ الْقُرْآنَ دَخَلَ فِي التَّوْبِيخِ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]، ومن وَجَدَ نَفْسَهُ بَعِيدًا عَنِ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ، فليعلم أَنَّهُ مُبْتَلَى بِتَفْرِيطِهِ وَإِهْمَالِهِ، لِأَنَّهُ قَدْ اسْتَبَدَلَهُ بِالَّذِي هُوَ أَدْنَى مِنْهُ، كَالْقَصَصِ وَالْمَجَلَّاتِ وَنَحْوِهَا، وَعَقُوبَةُ ذَلِكَ شَدِيدَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

أمّا التَّدْبِيرُ بِالْأَحَادِيثِ وَالرُّوَايَاتِ، أَوْ سَائِرِ الْكَلَامِ، فمهما وصلت درجة الاحتياج لذلك، فإنّها لم تصل إلى درجة التَّدْبِيرِ الْقُرْآنِيِّ الَّذِي أَمَرْنَا بِهِ، وَوُيِّخَ تَارِكُهُ، وَوَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِصَحَابِ الْقَلْبِ الْمَقْفَلِ، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، كذلك هو خارج نطاق بحثنا، فلا نريد أن نفصل فيه أكثر من ذلك. فيبقى موضوع التدبّر المأمور به هو: الآيات القرآنية دون غيرها.

الثمرة من التدبر

أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ الْقُرْآنَ مِنْ أَعْلَى سَمَوَاتِهِ لِتَدْبِيرِ فِيهِ لَا لِمَجْرَدِ التَّلَاوَةِ، أَوْ التَّبَرُّكِ فِيهِ، أَوْ تَعْلِيْقِهِ وَوَضْعِهِ فِي الْبُيُوتِ وَالذِّكَاكِينِ ﴿كَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩].

فالغرض من نزول القرآن هو لإفهام مراد المتكلم وهو الله جلّ جلاله، ومن ثمّ ترتيب الأثر عليه من قبل المخاطب وهو العبد. ولو فتشنا في حياة الأولياء والعرفاء والعلماء وما وصلوا إليه من مقامات رفيعة لعلمنا أنّهم قد وفّقوا نتيجة إخضاع نفوسهم لكلام الله وما فيه من أوامر وإرشادات، حيث تجلّت لهم عظمة وجلالة وقدرة ورفعته كلام الخالق، وبتدبر آياته اطمأنت قلوبهم ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وشفيت بها نفوسهم ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، شفاءً من الوسوسة، والقلق والحيرة، وتنوّرت بها عقولهم ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فتأدّبوا بأداب الله ورسوله ولم يأبهوا بما يلاقونه من مصاعب الحياة ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة: ٥١].

وكلّ ذلك بتدبر القرآن ونور اليقين ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ وليس كالذي لم ير إلا سواد الحروف وأرقام الآيات ونقوش الكتاب، وما ذلك إلا لسواد ظلمته وجهله عن تدبر القرآن ﴿مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾.

الفصل الأول

الجانب النظري في التدبير



المبحث الأول

مَسَائِلُ فِي مَقَوِّمَاتِ التَّكْوِينِ



المسألة الأولى : ضوابط التدبّر

بعد أن قدّمنا مفهوم التدبّر الصحيح، وحتى يكون التدبّر التطبيقي مقبولاً، استخلصنا من مفهومه هذه الضوابط، والتي لا بدّ أن يلتزم بها المتدبّر أمام آيات القرآن الكريم، ليكون تدبّره موافقاً للشريعة المقدّسة، ومن دونها ليس للتدبّر ثمرة وأثر، أو أنّه لا يسمى تدبّراً أصلاً، وهي:

- ١- أن لا يكون للمتدبّر هدف غير الامتثال لإمر الله عزّ وجلّ.
- ٢- أن يكون غرض المتدبّر هو استنطاق القرآن «ذلك القرآن فاستنطقوه»^(١)، سواء كان الاستنطاق في:

أ- ظاهر الآيات، ومثال ذلك: في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، فمجرد تأثر القلب بنفس ظاهر الكلام، وتفكّره البسيط بأنّه أينما يكون فلا مهرب من الموت، سواء كان على ظهر سفينة في البحر، أو على متن طائرة في الجو، أو كان في بيته، أو عمله، أو في قلعة مُحصّنة وغيرها، فعندئذٍ يسمى ذلك استنطاقاً للقرآن، أي: أنّ القرآن تكلم معه، وهو ما نسّميه بالتفاعل مع الآيات وحاصل ذلك التأثير بها، وهو ما نسّميه بالتدبّر الظاهري.

ب- باطن الآيات، ومثال ذلك: في قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾

(١) القمي، علي بن ابراهيم، تفسير القمي: ج ١، ص ٣.

[المائدة: ١١٦]، أو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]، فظاهر الكلام من لفظ (يَدُ الله) لا يتناسب مع عقائدنا، لأنَّ الله مُنَزَّهٌ عن الجسمية، فليس له يَدٌ كأيدي البشر، فبذلك لا يمكن التأثر بظاهر الآية ما لم نفهم المراد من (اليَد) لنصل إلى أنَّ المقصود من اليَد: هو القوَّة، والسلطان، والبسط، والنفوذ، والحُكْم، وهي ما تسمَّى بالباطن، فعندئذٍ يتفاعل المتدبِّر مع تلك المعاني المستخرجة ويتأثر بها ومن ثمَّ يخضع إليها، وكذلك الشيء نفس في (عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)، وغيرها من الألفاظ القرآنية، التي لا يمكن أن نلتزم في فهمها بظاهر اللفظ.

٣- الرجوع إلى معاني المفردات القرآنية من خلال كتب اللغة والتفسير، التي أُعدت في بيانها، ومثال ذلك: في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرٍ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣]، فلا بدَّ أولاً من الرجوع إلى معرفة معنى (مَخْمَصَةٍ) و(مُتَجَانِفٍ)، ثمَّ يتدبَّر فيها المتدبِّر ويتفاعل معها؛ لكي يمتثل لما أَرَادَهُ اللهُ تعالى بخصوصها، أو من قبيل قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، فلا بدَّ للمتدبِّر أيضاً من معرفة معنى (حَيْرَةٍ)، و (سَائِبَةٍ)، و(وَصِيلَةٍ)، و(حَامٍ)، ثمَّ يمكن بعدها أن يتفاعل مع الآية، وإلا لا تفاعل مع ما يجهره من معنى.

٤- مراعاة القواعد النحوية والبلاغية، والمقصود أن يحصل المتدبِّر على الحدِّ الذي يُمكنه من فهم كتاب الله، لا أن يرفع المنسوب وينصب

المرفوع، ويجزم المجرور ونحوها، لما لهذه القواعد من تأثير في فهم المعنى، ولا يراد التطلع بالنحو، بل يكفي الاطلاع الإجمالي، وعليه يُمكن أن يُفهم القرآن الكريم من قبل عامة الناس، فهو لم ينزل لفئة معينة، كسيبويه ومن على شاكلته.

٥- تعمق التفكير في ظواهر الآيات، أو بواطنها، بمعنى: التفكير المعمق بجميع جهات وأبعاد الآيات المختلفة بالدخول لها من أكثر من مدخل لاستخراج المعاني التي تتطابق مع حال المتدبر والمجتمع الذي هو فيه.

٦- مراعاة العلاقة بين ظاهر الآية وبواطنها. فلا تكون الدلالة الباطنية غريبة، أو معارضة لظاهرها، كما مرّ في لفظة (اليد).

٧- أن لا يتعارض التدبر باستخراج الحكم والمواعظ ونحوها مع الدلالات القطعية من القرآن، والسنة، والعقل.

٨- الاستفادة من الشواهد والقرائن العقلية والنقلية، وذلك سيُشعر المتدبر بالطمأنينة لما وصل إليه، وأنها توافق الشريعة ولا تعارضها بأدنى شيء.

٩- إذا تمكّن المتدبر من استخلاص واستخراج قاعدة كلية، أو مفهوم عام من الآية، فلا بدّ من أن تكون الآية أحد مصاديق ذلك المفهوم، ونقدّم مثلاً لذلك: في قصة النبي يوسف عليه السلام عندما أرادوا إخوته إبعاده عن أبيهم، ومن المعلوم أنّ الآية تتكلم عن حياة النبي يوسف عليه السلام في حين أنّ هناك عبرة وحكمة يمكن استخراجها من قصة النبي عليه السلام تصلح لتكون قاعدة عامة في كل زمان، ومصاديقها متعددة، كوجود من يُريد

إبعاد أبناءنا (الشباب) عن آباءهم والعلماء والأولياء؛ ليضيّعوهم في غياهب الجبّ المظلم.

١٠- أن لا يدّعي المتدبر أن تفاعله مع الآيات هو المراد الواقعي ويقطع به، وإلاّ لكان جزءاً بالرأي، أو ما يسمّى بالتفسير بالرأي وهو ممنوعٌ ومحرمٌ.

١١- أن يواكب التدبر شواهد خارجية من الواقع الحالي، بمعنى: أن يعكس تفاعله مع الآية بواقعه الخارجي، حتى يتحقق الانتفاع، وإلاّ فما هو فائدة التدبر حينئذٍ!، وعندها سيُسمّى ذلك عبثاً، وهو ممنوع أكيداً.

١٢- أن يصل المتدبر بتفاعله مع ظاهر الآية إلى الانتفاع منها، ومن ثمّ الامتثال، فهو تدبرٌ صحيح ولا إشكال في ذلك إن شاء الله، أمّا إذا تفاعل مع باطنها فلا بأس به، ولكن بشرط عدم فصل الباطن عن الظاهر، وإلاّ سيكون التدبر بالتفاعل مع الباطن وإنكار الظاهر مما لا يختلف عن منهج بعض الصوفية الذين أنكروا ظواهر الآيات وتمسكوا ببواطنها، وهو غير مقبول حتماً^(١).

(١) سيأتي بيان منهج بعض الصوفية الذين أنكروا ظواهر القرآن وتمسكوا بباطنه ص ٧٣

المسألة الثانية: الفرق بين التدبر والتفسير والتأويل والاستنباط

حتى لا يلتبس على القارئ العزيز، ولمعرفة الفرق بين التدبر والمصطلحات القرآنية التي قد يُتوهم مرادفتها له، لذا سنُبين الفرق بينها باختصار، وكذلك أوجه الاتفاق إن وجدت، مع ذكر بعض الآيات التي وردت فيها تلك المصطلحات القرآنية، وهي:

أولاً: الفرق بين التدبر والتفسير

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣].

التفسير لغة: إظهار المعنى المعقول، والتفسيرُ قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها^(١).

أمَّا التفسير اصطلاحاً: هو بيان معنى الآيات والكشف عن مداليلها^(٢)، بينما التدبر: هو مسّ الآيات القرآنية قلبياً، والتفاعل معها؛ لأجل الامتثال لأمر الله عزّ وجلّ. ومن خلال التأمل في التعريفين اللغوي والاصطلاحي نستطيع أن نبيّن أهمّ الفوارق بين التدبر والتفسير، ونجملها بأربعة نقاط:

١ - التفسير هو بيان معنى الآيات، وبعض الألفاظ الغريبة، بينما التدبر: هو المسّ القلبي للآيات والتفاعل معها والامتثال لها.

(١) الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن: ص ٦٣٦.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١، ص ٤١.

٢ - التدبر لعامة الناس، فهو غير منحصر بفئة معينة، بل لكافة فئات المجتمع تقريباً، بينما التفسير غير ذلك، فهو منحصر بفئة خاصة تتوفر فيهم مؤهلات، وضوابط وشروط لا بد أن يلتزم بها المفسر، وهي مدونة في كتب العلماء المتخصصين حتى أصبح التفسير علماً مستقلاً له أصوله وقواعده.

٣ - أن التفسير بالاضافة إلى بيان معاني ألفاظ الآيات يتكفل أيضاً ببيان الواقعة التي من أجلها نزلت الآية، وحكمها، وناسخها، ومنسوخها، بينما التدبر ليس كذلك، فحاصله العمل والتطبيق، بمعنى: أن الأول عملية تفسيرية، والثاني عملية تطبيقية.

٤ - التفسير هو كشف القناع والإبهام عن الآيات وتقريرها وإعلانها للغير لمعرفة مراد الله سبحانه من الآيات، بينما التدبر قد لا يعلن ولا يُقرّر للغير، لأن ما يستخرجه المتدبر قد يكون غير ثابت لكل شخص، أو في كل زمن، فقد يستخرج موعظة مثلاً، تنعكس عليه كفر، بأي جانب من جوانب حياته في عمله أم في أسرته ونحوها - وقد لا تنطبق على شخص آخر، فهو لا يستطيع أن يقول هذا المراد من الآية؛ ليبقى نظير ما دُوّن في كتب التفسير لعشرات السنين.

ثانياً: الفرق بين التدبر والتأويل

قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].
التأويل لغة: التأول والتأويل: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه، ولا

يصحّ إلا ببيان غير لفظه^(١). أمّا اصطلاحاً: فقد «وردت أقوالٌ كثيرة في معنى التأويل، فمنهم من قال: أنّ التأويل بمعنى التفسير، ومنهم من قال: هو المعنى المخالف لظاهر اللفظ، ومنهم من قال: هو معنى من معاني الآية لا يعلمه إلّا الله تعالى، ومنهم من قال: إنّه ليس من قبيل المعاني المرادة باللفظ، بل هو الأمر العيني الذي يعتمد عليه الكلام»^(٢). ولسنا بصدد إيراد أكثر من هذه الأقوال، أو مناقشتها، فمن أراد ذلك عليه الرجوع إلى المصادر ولا سيما ما أورده العلامة الطباطبائي رحمته الله في تفسيره^(٣).

فقد وردَ لفظ التأويل في سورة الكهف مرتين، قال تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئِكَ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]، والمعنى: سأنبئك بحقيقة ما رأيت من الأمور الغيبية التي لم تصبر عليها. ويفهم من ذلك أنّ التأويل بمعنى: معرفة حقائق الأمور بالرجوع لعواقبها، والله هو من يعلم عواقب الأمور: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، أو من أفاض عليهم من علمه أن يعلموا تأويلاتها: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾. ولا ريب أنّ أهل العصمة عليهم السلام هم الراسخون في العلم، كما صرّحت بذلك الأخبار،

(١) الفراهيدي، خليل بن أحمد، كتاب العين: ج ٨، ص ٣٦٨.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٣، ص ٥١.

(٣) المصدر نفسه.

فعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله»^(١)، وبذلك لا ينحصر تأويل القرآن بالله تعالى. وفيما يتعلق بمعرفة تأويله لغير أهل العصمة عليهم السلام، قال أهل السنة: إنّ الراسخين في العلم يعلمون تأويله، فيكون ممكناً عندهم، قال الزركشي: «فاذا جاز أن يعرفه الرسول جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته، والمفسرون من أمته، ألا ترى أنّ ابن عباس كان يقول: أنا من الراسخين في العلم، ويقول عند قراءة قوله في أصحاب الكهف: ﴿مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾: أنا من أولئك القليل...»^(٢). أمّا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فوردت ثلاثة أقوال^(٣):

الأول: يرى انحصار ذلك بأهل العصمة عليهم السلام.

الثاني: يرى تعدّيه إلى خواصهم المباشرين لا غير.

الثالث: يرى تعدّيه إلى الخواصّ من أتباعهم، ومن ورثتهم من العلماء الواقفين على علومهم، وإن لم يلتقوا بهم عياناً^(٤).

الخلاصة:

أنّ التأويل: معرفة حقائق الأمور بالرجوع لعواقبها. وأمّا التدبر بمعنى:

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٢١٣.

(٢) الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن: ج ٢، ص ٧٣.

(٣) الحيدري، كمال، منطق فهم القرآن: ج ٣، ص ٣٨٢.

(٤) ومن القائلين بالقول الثالث هو الشيخ المعرفة عليه السلام مؤيداً هذا الرأي: الراسخون في العلم هم من عرفوا من قواعد الدين وأسسها المكيّة، ودرسوا من واقع الشريعة مبانيها القويمة، انظر: كتاب التأويل في مختلف المذاهب والآراء، للشيخ محمد هادي المعرفة: ص ٢٩.

هو المسّ القلبي للآيات القرآنية، والتفاعل معها لأجل امتثال أمر الله عزّ وجلّ.

فَتَحَصَّلَ: أنّ بين التدبّر والتأويل اتفاق واختلاف، أمّا من جهة الاتفاق، فالتدبّر والتأويل يتفقان بالنظر إلى باطن الآيات، لمعرفة حقائقها، وأمّا الاختلاف، فإنّ التدبّر مأمور به عامّة الناس، والتأويل يقتصر على فئة معينة من الراسخين في العلم، (على جميع الأقوال).

ثالثاً: الفرق بين التدبّر والاستنباط

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُمْ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

الاستنباط لغة: معنى يستنبطونه؛ يستخرجونه، وأصله من النبّط، و هو الماء الذي يخرج من البئر أوّل ما تحفر^(١).

أمّا اصطلاحاً: أنّ أصل الاستنباط هو: الاستخراج، يقال لكل ما استخراج حتى يقع عليه رؤية العين، أو معرفة القلب^(٢). وبمعنى آخر: «أنّ الاستنباط من آيات الأحكام ونحوها يتوقّف على (خبرويّة) معينة لا تحصل إلّا ببلوغ الإنسان مرحلة (الاجتهاد). فالتدبّر في هذه الآيات يكون وفقاً على (المجتهدين) بالطبع.. أمّا التدبّر في الآيات الأخرى فهو

(١) الأزهرى، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة: ج ١٣، ص ٢٤٩.

(٢) الطبرسي، فضل بن حسن، مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ٣، ص ١٢٤.

أمر مفتوح لغيرهم أيضاً^(١)، وخلصته: أن الاستنباط على قسمين: الأول: الاستنباط مما تحتويه الآية من معانٍ؛ ليستخرج الحُكم الشرعي، وهو خاص بفئة معينة وهم الفقهاء، وقد وضعوا لذلك ضوابط وشروط في كتبهم (مثل: أصول الفقه).

الثاني: ما يستخرجه المُستنبط من حِكم، ومواعظ، وعبر، ومفاهيم أخلاقية، ومعرفية وغيرها، وهو غير منحصر بفئة معينة، كالمجتهدين، وإنما هو لعامة الناس ليتدبروا في الآيات بما يوافق الشريعة ولا يخالفها بشيء.

فَتَحَصَّلَ: أن الاستنباط والتدبر يشتركان بأمر ويختلفان بآخر، أي: أنهما يشتركان في ما يُستخرج من حِكم ومواعظ وعبر ونحوها، من آيات القرآن الكريم والتي لا تقتصر على فئة معينة، بل هو لعامة الناس. ويختلفان فيما يخص آيات الأحكام التي يقتصر النوع الأول من الاستنباط فيها على فئة محددة وهم الفقهاء.

المسألة الثالثة: آداب المتدبر

لكل أمر عبادي وردت آداب، كآداب الصلاة، والصوم، والحج، والجهاد، ونحوها من العبادات التي منها ما وردَ صريحاً في الشارع المقدس، ومنها ما استنبط بما يوافق الشريعة، كذلك هو التدبر في القرآن؛ فإنه لا

(١) الشيرازي، محمد رضا، التدبر في القرآن: ج ١، ص ٣٤.

يختلف عن بقية العبادات، وحيث لا توجد آداب منصوصة بهذا الخصوص، لكننا وبالتأمل نرى أنّ نفس الآداب التي وردت في قراءة القرآن الكريم هي ما ينبغي على المتدبر الإتيان به، وخير ما ننصح به هو قراءة ما كتبه الإمام الخميني رحمته الله في آداب قراءة القرآن الشريف^(١)، «ابتداءً من مسوّ كتابه القرآن، والاستعاذة بالله قبل الشروع بتلاوة القرآن، وتحسين الصوت عند التلاوة لما يعطيه من تأثير في فهم وتدبر معانية، إلى حضور القلب عند القراءة، وتعظيم كلام الله تعالى، فقد وردَ عن الإمام الباقر عليه السلام في باب عظمة القرآن « إذا جمع الله تعالى الأولين والآخرين إذا هم بشخص قد أقبل لم يروا قط أحسن صورة منه فإذا نظر إليه المؤمنون وهو القرآن قالوا: هذا منّا، هذا أحسن شيء رأينا، قال: فإذا انتهى إليهم جازهم ثم ينظر إليه الشهداء حتى إذا انتهى إلى آخرهم جازهم، فيقولون: هذا القرآن فيجوزهم كلهم حتى إذا انتهى إلى المرسلين، فيقولون: هذا القرآن فيجوزهم حتى ينتهي إلى الملائكة، فيقولون: هذا القرآن فيجوزهم، ثم ينتهي حتى يقف عن يمين العرش، فيقول الجبار: وعزّتي وجلالي وارتفاع مكاني لأكرمّن اليوم من أكرمك ولأهيننّ اليوم من أهانك»^(٢).

بالإضافة إلى ترتيل القرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ

(١) الخميني، روح الله، الآداب المعنوية للصلاة: ج ٢، ص ٣١٧.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٥٩٦.

تَرْتِيلاً ﴿ [المزمل: ٤]، قال أمير المؤمنين عليه السلام عن هذه الآية: «بينه تبياناً، ولا تهذه هذي الشعر، ولا تنثره نثر الرمل ولكن أفزعوا به قلوبكم القاسية ولا يكن هم أحدكم آخر السورة»^(١). والاستماع والإنصات عند قراءته، أو سماعه، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. والتكرار للآية، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله: «أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة»^(٢)، وجاء أيضاً عن أبي ذر: «قام رسول الله صلى الله عليه وآله بنا ليلة، فقام بآية يرددها، وهي: ﴿إِنْ تَعَدَّيْتُمْ فَأْتِيَهُمْ عِبَادُكُمْ﴾»^(٣) ^(٤).

المسألة الرابعة: علامات المتدبر

ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ مِمَيَّزَاتٍ وَعَلَامَاتٍ لِلْمُتَدَبِّرِ فِي الْقُرْآنِ، كَمَا نَفْهَمُ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الْمُبَارَكَةِ، مِنْهَا:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا

(١) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٦١٤.

(٢) الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين: ج ١، ص ٢٨٢.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) انظر: الخميني، روح الله، الآداب المعنوية للصلاة - آداب قراءة القرآن: ج ٢، ص ٣١٧، بتصرف.

الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿التوبة: ١٢٤﴾ .

وقوله تعالى: ﴿إِذَا نُنَادَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ [مريم].

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿الزمر: ٢٣﴾ .

فَنَحْصِلُ عَلَى خَمْسِ عِلَامَاتٍ مِنَ الْآيَاتِ الْمَذْكُورَةِ، وَهِيَ: «البكاء من خشية الله، والزيادة في الإيمان، والفرح والاستبشار، والسجود تعظيماً لله عزَّ وجلَّ، والقشعريرة خشية من الله تعالى. وَيَتَّضِحُ: أَنَّهُ مِنْ وَجَدٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْعِلَامَاتِ، أَوْ أَكْثَرَ فَقَدْ وَصَلَ إِلَى حَالَةِ التَّدْبِيرِ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَحْصُلْ عَلَى أَيِّ مِنْ هَذِهِ الْعِلَامَاتِ فَقَدْ يَكُونُ مَحْرُومًا مِنْ تَدْبِيرِ الْقُرْآنِ، وَذَٰلِكَ مَا لَا نَتَمَنَّا لِأَحَدٍ»^(١).

(١) انظر: د. خالد عبد الكريم، مفاتيح تدبير القرآن والنجاح في الحياة: ص ٢٤، بتصرف.

المسألة الخامسة: مراتب التدبر

ممّا لا خلاف فيه أنّ القرآن الكريم، له باطن وله ظاهر، وقد وردت الأحاديث الكثيرة من أنّ للقرآن ظهراً وباطناً، كما ورد عن النبيّ الأكرم عليه وآله: «إنّ في القرآن ظهراً وباطناً ولبطنه بطناً إلى سبعة أبطن، أو إلى سبعين بطناً»^(١) ورؤي عن الفضيل بن يسار أنّه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الرواية: ما في القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن، قال: «ظهره تنزيله وبطنه تأويله. منه ما مضى، ومنه ما لم يجئ بعد يجري كما تجري الشمس والقمر»^(٢).

فالإمام عليه السلام يعني بالظهر: المصداق الظاهري للآية، وهو مورد نزولها قبل ألف وأربعمائة سنة. أمّا البطن: فهو المصداق الباطني للآية، أي: المصداق المتكررة في كل زمان ومكان، وكما هو واضح من قول الإمام الباقر عليه السلام لحمران: «ظهر القرآن: الذي نزل فيهم وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم يجري فيهم ما نزل في أولئك»^(٣). كذلك الحال في التدبر، فله مراتب أيضاً، وذلك كما قلنا أنّ التدبر: هو المسّ القلبى بالوقوف على الآيات، إذن: لا يمنع أن نقول: إنّ للتدبر ظاهر وباطن، وذلك تبعاً

(١) ابن أبي جمهور، محمد بن زين الدين، عوالي اللئالي العزيرية في الأحاديث الدينية: ج ٤، ص ١٠٧.

(٢) الفيض الكاشاني، محمد محسن، تفسير الصافي: ج ١، ص ٢٩.

(٣) المصدر نفسه: ج ١، ص ١٧.

للمتدبّر به وهو القرآن الكريم، وظاهر التدبّر معلوم، وهو مورد النزول. أمّا الباطن فلا ينبغي استخراج معنى معين بدون الإحراز بأنّه لا يخالف الشريعة المقدّسة، كما ما بيّنا ذلك في الضوابط التي ينبغي مراعاتها، حتى لا يكون تدبّراً مردوداً، أو ما قد يُسمى التفسير بالرأي، وهو منهيٌّ عنه كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام): قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «قال الله جلّ جلاله ما آمن بي من فسّر كلامي برأيه»^(١).

المسألة السادسة: الإشكالات المتوقعة على مفهوم التدبّر

قد يتبادر إلى الذهن بعض التساؤلات، أو قد تتولّد بعض الإشكالات حول التدبّر، سواء على مفهومه، أو على كلفيته، وسنذكر هنا أهمّ ما قد يُتوقّع طرحه، ثمّ مناقشتها والردّ عليها، لكي لا يُفتح ذلك الباب ويُغلق تماماً بعونه وقوته تعالى:

الإشكال الأول: أن التدبّر لا أصل له ولا جذر في القرآن، أو في السنّة الشريفة.

الجواب: أنّ أصل تدبّر القرآن في القرآن نفسه، ومن السنّة أيضاً، وسنذكر أهمّ الأدلّة الصريحة بهذا الشأن.

(أ) الآيات القرآنية:

(١) الصدوق، محمد بن علي، التوحيد: ص ٦٨.

١- قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٢- قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢].

٣- قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

٤- قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

أنّ التكرار في الآيات ما هو إلّا تأكيد على التدبر في كتاب الله تعالى، وذمّ الذين لا يتدبرون دليلٌ على أهمية هذا الموضوع من حيث محبوبيته لله تعالى ومن حيث المصلحة الواقعة للعباد وانتفاعهم من هذا التأكيد الإلهي.

(ب) السُّنَّة :

١- عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنّه قال: «لا خير في قراءة ليس فيها تدبر»^(١).

٢- عن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنّه قال: «تدبروا آيات الله، واعتبروا؛ فإنّ فيها أبلغ العبر»^(٢).

٣- عن الإمام الحسين (عليه السلام) حيث قال: «كتاب الله عزّ وجلّ على أربعة

(١) المصدر السابق.

(٢) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم: ص ٣١٨.

أشياء..على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»^(١).

٤- عن علي بن الحسين عليهما السلام أنه قال: «آيات القرآن خزائن، فكلما فتحت خزينة ينبغي لك أن تنظر ما فيها»^(٢).

حَثَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته عليهم السلام على تدبر القرآن يستلزم استخدامهم له؛ فلا يُعقل أن يأمرُوا الناس به، وهم غير عاملين به!، لذلك نفهم من تلك الروايات أن أوَّل من تدبر القرآن الكريم هم أهل بيت النبوة عليهم السلام، ومن ثمَّ الصحابة والتابعين أسوة في رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فتقرَّر أن جذور وأصل التدبر ترجع إلى الوحي الإلهي، وإلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته عليهم السلام.

الإشكال الثاني: أن تدبر القرآن هو التفسير بالرأي، ولا فارق بينهما.

الجواب: قبل الردِّ على هذا الإشكال علينا أولاً التعرّف على معنى التفسير بالرأي ولو إجمالاً.

التفسير بالرأي وحسب ما جاء في البرهان للبحراني: «أن الذي يشجبه الإسلام من التفسير بالرأي هو الرأي المذموم، وهو القول في القرآن بغير علم ولا هدى، وأمّا الكلام في القرآن بعلم ودليل وبرهان، فليس من

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ٢٧٨.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٦٠٩.

الرأي المذموم، وإنما هو من الرأي الممدوح الذي لا ضير فيه»^(١). وقد وردت روايات عديدة في كتب الفريقين مانعة لهذا النوع من التفسير، نذكر بعض منها:

١- ورد عن النبي الأكرم ﷺ «من فسّر القرآن برأيه، فليتبوأ مقعده من النار»^(٢).

٢- وعنه ﷺ قال: «من فسّر القرآن برأيه، فقد افتري على الله الكذب»^(٣).

٣- وجاء عن أمير المؤمنين (عليه السلام) «ما آمن بي من فسّر برأيه كلامي»^(٤).

٤- ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) «من فسّر برأيه آية من كتاب الله، فقد كفر»^(٥).

٥- وعنه أيضاً «من فسّر القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر، فإن أخطأ كان إثمه عليه»^(٦).

نعم؛ إنّ ما جاء في الأحاديث والروايات عن النبي الأكرم ﷺ والأئمة

(١) البحراني، سيد هاشم بن سليمان، البرهان في تفسير القرآن: ج ١، ص ٣٨.

(٢) ابن أبي الجمهور، محمد بن زين الدين، عوالي الثالي: ج ١، ص ١٢٨.

(٣) ابن بابويه، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ج ١، ص ٢٥٦.

(٤) ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا: ج ١، ص: ١١٤.

(٥) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي: ج ١، ص ١٧.

(٦) المصدر نفسه.

الأطهار عليهم السلام، موضحة لحرمة هذا النوع من التفسير وخطورته. ولم يقل أحد أنّ هذا المنهج صحيح، ولكنّ النقاش كله دار حول مصداق ذلك المنهج، ومن ذلك نطرح سؤالاً وهو: أنّ القرآن الكريم قد حثنا وأمرنا بتدبر القرآن والتفكر فيه من ناحية، ومن ناحية أخرى نهانا عن التفسير بالرأي، فهل المقصود من التفسير بالرأي هو التدبر أم شيء آخر؟

الجواب: سيتضح لنا الفرق بين التفسير بالرأي وبين التدبر من خلال ما سنعرضه من كلام، لبعض علمائنا المعاصرين في مصداق التفسير بالرأي وتطبيقه:

١- ما قاله الإمام الخميني عليه السلام: «أنّ المحتمل، بل المظنون أنّ التفسير بالرأي يتعلق بآيات الأحكام التي لا تصلها الآراء والعقول، والتي يجب أخذها بحالة التعبد الصرف والانقياد التام من خزّان الوحي، ومهابط ملائكة الله كما هو الحال مع أكثر الروايات الشريفة الواردة في هذا الباب والتي وردت لمواجهة فقهاء العامة الذين أرادوا أن يفهموا دين الله بعقولهم وبالقياس»^(١).

٢- ما قاله الإمام الخوئي عليه السلام: «يحتمل أنّ معنى التفسير بالرأي الاستقلال في الفتوى من غير مراجعة الأئمة عليهم السلام، مع أنّهم قرءوا الكتاب في وجوب التمسك ولزوم الانتهاء إليهم، فإذا عمل الإنسان بالعموم، أو الإطلاق

(١) الخميني، روح الله، الآداب المعنوية للصلاة: ج ٢، ص: ٣٤٤.

الوارد في الكتاب ولم يأخذ التخصيص، أو التقييد الوارد عن الأئمة عليهم السلام كان هذا من التفسير بالرأي»^(١).

٣- ما قاله العلامة الطباطبائي رحمته الله: «الحاصل أنّ المنهي عنه، أنّما هو الاستقلال في تفسير القرآن واعتماد المفسّر على نفسه من غير الرجوع إلى غيره»^(٢).

٤- ما قاله آية الله معرفة رحمته الله: «الاستبداد بالرأي في تفسير القرآن مجاناً طريقة العقلاء في فهم معاني الكلام ولا سيما كلامه تعالى، فإنّ للوصول إلى مراده تعالى من كلامه وسائل وطرقاً منها مراجعة كلام السلف، والوقوف على الآثار الواردة حول الآيات، وملاحظة أسباب النزول وما شابه ذلك من الشروط التي يجب توفرها في المفسّر»^(٣).

٥- ما قاله الشيخ الرضائي الإصفهاني: «إذا وصلَ المفسّر إلى نتائج شخصية مُعيّنة عن طريق التفكير في آيات القرآن، ولم يعرض هذه النتائج على الآخرين ولم ينسب ذلك إلى الله والقرآن، فإنّه لا يكون مصداقاً للتفسير بالرأي»^(٤).

وخلاصة هذه الأقوال: أنّ أغلب ما ذكره: كان يدور حول أنّ معنى

(١) الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن: ص ٢٦٩.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٣، ص ٨٩.

(٣) المعرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب: ج ١، ص ٦٤.

(٤) الرضائي الأصفهاني، محمد علي، دروس في المناهج والإتجاهات التفسيرية للقرآن: ص ٢٣٠.

التفسير بالرأي هو: قيام المفسر بالتفسير من غير توفر الشروط اللازمة في المفسر، أو دون الرجوع إلى القرائن النقلية والعقلية، أو تحميل المفسر رأيه الشخصي على آيات القرآن الكريم والقطع به. وهناك أقوال كثيرة ومختلفة للمتقدمين والمتأخرين من العلماء، والباحثين، والمهتمين بالشأن القرآني، حتى تمخض النقاش والاختلاف في معنى التفسير بالرأي بحسب وجهات نظرهم تقسيمه إلى قسمين: ممدوح ومذموم، والممدوح: «ما يُقصد به التفسير العقلي وهو قائم على أساس القرائن العقلية القطعية»^(١)، وقد لاحظنا أن الآراء غير متفقة على مصداق وتطبيق التفسير بالرأي، فيبقى ذلك محل نظر، فتأمل. ومهما كثرت الأقوال، أو اختلفت، فيبقى التفسير بالرأي هو عملية تفسيرية يجريها المفسر، والتفسير هو: كشف القناع، أو هو: «بيان معنى الآيات والكشف عن مداليلها»^(٢)، سواء أعلن المفسر نسبتها إلى الله وقال هذا مراد الله تعالى، أو لم يعلن ذلك. أمّا التدبر وكما ذكرناه سابقاً هو: المسّ القلبي لآيات القرآن الكريم، فيتأثر بها ويتفاعل معها؛ لكي يمثل إليها، والمتدبر ليس في صدد إيضاح مراد الآيات وكشف معانيها، وإنما هي عملية خاصة بالفرد نفسه، ولم يقل: أن هذا هو المراد من كلام الله، أو ينسبه إليه سبحانه، أو يقطع

(١) المصدر نفسه: ص ٢٤٢.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١، ص ٤١.

به، أو يقرّره لغيره، كما هو الحال في كتب التفسير بمختلف اتجاهاتها، بل لا يستطيع المتدبر أن يُعيّن ويحدّد مصداقاً واحداً؛ ليكون هو المراد من الآية دون غيره، لأنّ المصاديق الباطنية متعددة وكثيرة كما بيّنا من رواية الإمام الباقر (عليه السلام): «ظهر القرآن: الذي نزل فيهم وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم يجري فيهم ما نزل في أولئك»^(١).

فالمتدبر يربط الآيات بواقعه الحالي، ويأتي غيره ويربطها بواقعه الذي هو غير ذلك الحال، وكذا في تغيّر الزمان والمكان، وهو واضح من قول الإمام الصادق (عليه السلام): «ومنه ما لم يجرى بعد يجري، كما تجري الشمس والقمر»^(٢).

فلا جزمَ في اليّن، ولا رأي في فهم آيات الله تعالى، بل هو التدبر المأمور به عامّة الناس.

وحاصل الكلام أنه: «قد اشتبه على الناس التفكير والتدبر في الآيات الشريفة بالتفسير بالرأي الممنوع، وبواسطة هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عارياً من جميع فنون الاستفادة واتّخذوه مهجوراً بالكليّة في حال أنّ الاستفادة الأخلاقية والإيمانية والعرفانية لا ربط لها بالتفسير، فكيف بالتفسير بالرأي، فمثلاً: إذا استفاد أحد من كيفية مذاكرات موسى (عليه السلام) مع الخضر، وكيفية معاشرتهما وشدّ موسى رحاله

(١) الفيض الكاشاني، محمد محسن، تفسير الصافي: ج ١، ص ١٧.

(٢) المصدر نفسه: ج ١، ص ٢٩.

إليه، مع ما له من عظمة مقام النبوة، لأخذ العلم الذي ليس موجوداً عنده وكيفية عرض حاجته إلى الخضر، وكما ذكرت في الآية الكريمة: (قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا) ﴿الكهف: ٦٦﴾، وكيفية جواب الخضر والاعتذارات التي وقعت من موسى عظمت مقام العلم وآداب سلوك المتعلم، مع المعلم، ولعلها تبلغ من الآيات المذكورة إلى عشرين أدباً، فأياً ربط لهذه الاستفادة بالتفسير، فضلاً من أن تكون تفسيراً بالرأي والاستفادة من هذا القبيل في القرآن كثيرة^(١) فَتَبَيَّنَ: أن لفظ ومعنى التدبر غير لفظ ومعنى التفسير، كما تقدم، فالتطابق منتفٍ أساساً.

الإشكال الثالث: إذا كان التدبر يحمل مرتبة باطنية، والباطن هو ما خفي وأبهم، فيكون التدبر عسيراً، وفيه مشقة لعوام الناس، وهو بخلاف اليسر الذي قال عنه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]

الجواب: من قال أن القرآن يأمرنا بالجمود على ظواهر الآيات! بل على العكس تماماً؛ قد أمرنا القرآن الكريم بالتفكر والتدبر في آياته، وعلمنا النبي الأكرم ﷺ حينما قال في ذكر الآية المباركة:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ

(١) الحميني، روح الله، الآداب المعنوية للصلاة: ج ٢، ص ٣٤٣.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩﴾ [آل عمران: ١٩]: «ويلٌ لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمل فيها»^(١).

وخاطبتنا العديد من الآيات بألفاظ (أفلا تعقلون - لعلكم تتفكرون - أفلا يتدبرون)، فلو كان في ذلك عُسر ومشقة، ما سكت عنه أئمتنا عليهم السلام، أو لم يكن هناك من هدف في ذكرهم أنّ للقرآن ظاهر وباطن. ووجود عسر في التدبر يقتضيه معنى التدبر، حيث يحتاج إلى إعمال العقل والفتنة وأمور أخرى، وهذا لا يجعل التدبر متعذراً على عوام الناس.

مضافاً إلى أنّ التدبر يحمل مرتبتين (التدبر الظاهري والتدبر الباطني)، فهو غير منحصر على الغوص في البواطن، حتى يكون التدبر بإطلاقه عُسراً ومشقة لعوام الناس، وأنما يبقى استخراج المفاهيم والقواعد الكلية راجع للمتدبر، وقوة تفاعله وحضور قلبه وتوجهه نحو الآيات القرآنية، وإن لم يستطع ذلك فتبقى المرتبة الظاهرية الصحيحة متاحة للجميع، وسيكون في عداد المتدبرين أيضاً.

الإشكال الرابع: التدبر هو نوع من أنواع التفسير المسمى بالتفسير الإشاري، فهما لفظان لمعنى واحد، وليس بشيء آخر.

الجواب: التفسير الإشاري هو: «تأويل آيات القرآن الكريم على غير ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأهل العلم والسلوك، تقوم على

(١) الفيض الكاشاني، محمد محسن، تفسير الصافي: ج ١، ص ٤٠٩.

التطابق بينها وبين الظواهر المرادة من الآيات القرآنية، بوجه من الوجوه الشرعية»^(١).

وهو أيضاً: «ما يطلق على الإشارات الخفية الموجودة في آيات القرآن والتي تعتمد على أساس العبور من ظواهر القرآن والأخذ بالباطن، أي: استخراج وفهم وتوضيح نكتة من الآية لا توجد في ظواهر الآية عن طريق دلالة الإشارة»^(٢).

وبما أنّ المسلمين متفقون على أنّ القرآن الكريم له ظاهر وباطن قد فتح الباب لهذا النمط من التفسير، وقد اعتبره جملة من العلماء أنه «يرجع إلى القرنين الأولين من الهجرة بعد أن نُقلت فلسفة اليونان إلى العربية في السلطنة الأموية، ثمّ في عهد العباسيين، وانتشار البحث العقلي والفلسفي وظهور التصوّف المقارن لهما»^(٣).

وقد وردت آراء كثيرة لعلماء الإسلام منها ما يوافق هذا المنهج التفسيري للقرآن ومنها ما يُخالف، ومنها ما يُفصّل في ذلك، «ومن أبرز الموافقين له هو الإمام الخميني والتفتازاني، وأمّا أبرز المخالفين له هو عميد الزنجاني، وأبرز القائلين بالتفصيل هو العلامة الطباطبائي، وآية الله

(١) العك، خالد عبد الرحمن، أصول التفسير وقواعده: ص ٢٠٦.

(٢) الرضائي الأصفهاني، محمد علي، دروس في المناهج والإتجاهات التفسيرية للقرآن: ص ١٩٢.

(٣) انظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١، ص ٨.

معرفة»^(١).

وبعد أن تعرّفنا على هذا المنهج التفسيري للقرآن، وعرفنا جذوره وأبرز القائلين به والمخالفين، والمفصلين له، سنتعرّض الآن إلى أقسامه وبيان مدى قربته ونقطة إنقائه مع التدبر في الآيات القرآنية، «فالقائلين بالتفصيل قسموا هذا المنهج إلى قسمين:

١-منهج التفسير الإشاري الباطني غير الصحيح.

٢-منهج التفسير الإشاري الباطني الصحيح.

وخلصتهما:

أنّ القسم الأوّل (غير الصحيح)، قائم على أساس تأويل آيات القرآن بالاستفادة من الشهود الباطني، أو من خلال النظريات العرفانية المنافية لظواهر القرآن ودون الاستفادة من القرائن النقلية، أو العقلية. وعُدّ هذا القسم من التفسير بالرأي.

وأما القسم الثاني (التفسير الباطني الصحيح)، وهو ما أيده الإمام الخميني، والعلامة الطباطبائي، وآية الله معرفة، لأنّه لا يتمّ فيه التأكيد، أو الجزم بالإشراقات والشهودات والتأويلات، لذلك وضعت له ضوابط وشروط.

وأنّ أبرز الضوابط في هذا التفسير والتي قد تتفق مع ضوابط التدبر هي:

(١) الرضائي الأصفهاني، محمد علي، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن: ص ١٩٤-٢٠٠

الالتفات إلى ظاهر الآية وباطنها في آن واحد، أي : عدم إغفال ظاهر الآية في التفسير. وأن يُراعى المفسّر المناسبة القريبة بين ظاهر الكلام وباطنه، أي: لا تكون الدلالة الباطنية أجنبية عن الظواهر. وأن يستفاد من الشواهد والقرائن العقلية، أو العقلية^(١).

ومن هنا نُجمل الفرق بين التدبّر والتفسير الإشاري بنقطتين أساسيتين، هما:

١- أنّ التفسير الإشاري نوع من أنواع التفاسير، وهو قائم على أساس إيضاح مراد الآيات وكشف القناع عنها، كما مرّ ذلك في تعريف التفسير^(٢) سواء كان ذلك الإيضاح والكشف عن الآيات عن طريق الشهود، أو عن طريق النظريات العرفانية، بينما التدبّر لا يعني شيئاً من التفسير، لأنّه عملية تفاعل من خلال حضور القلب عند المتدبّر لآيات القرآن الكريم، سواء ما مسّ قلبه من ظواهر الآيات، أو بواطنها، كاستخراجه الحكم والمواعظ ونحوها. فهي عملية خاصّة بالمتدبّر نفسه، وتدور حول مدى توجّهه وقوة تفاعله مع آيات القرآن الكريم.

٢- أنّ التدبّر يحمل مرتبتين (التدبّر الظاهري والتدبّر الباطني) وذلك غير حاصل في التفسير الإشاري، لأنّه يعتمد على البواطن فقط، وإن عبّر من خلال الظاهر لها، وراعى المناسبة بينهما؛ لذلك هو لا يعتني بتفسير

(١) انظر: المصدر السابق: ص ٢٠٣-٢١١، بتصرف.

(٢) مرّ سابقاً في بيان الفرق بين التفسير والتدبّر: ص ٥١.

ظواهر الآيات، بل هو مجرد العبور منها فسُمِّي تفسيراً إشارياً. وبمعنى آخر: أنهما يتفقان في عملية العبور من ظاهر الكلام إلى باطنه مع مراعاة الشروط والضوابط من: عدم ادّعائه لما وصل إليه هو المراد لا غير، وأن يُؤيّد وصوله هذا بالشواهد والقرائن المعتبرة (عقلية ونقلية) وعدم منافاته معها، ومراعاة المناسبة بين الظاهر والباطن.

ويختلفان في أنّ التدبر عملية تفاعلية مع الآيات القرآنية، وهي خاصّة بقلب المتدبر نفسه، وهو لعامة الناس، وليس مختص بفئة معيّنة، وأمّا التفسير الإشاري عملية تفسيرية، القصد منها إيضاح ورفع الإبهام عن الآيات القرآنية، وتدوين ذلك لإعلانها للغير، وهي خاصة بفئة معيّنة من أهل العلم والسير والسلوك.

الإشكال الخامس: التدبر لا يختلف عن منهج الصوفية، لأنه ناظر إلى باطن القرآن.

الجواب: الصوفية هم من اعتمدوا التفسير الإشاري، لأنهم «يقولون بعلم (الإشارة) وهو علم معاني القرآن الكريم من أسرار عن طريق العمل به، ويسمّون هذا مذهب أهل الصفوة في المستنبطات الصحيحة في فهم القرآن...والصوفية يقرّرون، ويكرّرون تقريرهم، أنّ طريق الفهم الدقيق العميق للقرآن الكريم مفتاحه العمل بالقرآن، ولذلك يقول أبو سعيد الخزّار: وأوّل الفهم لكتاب الله عزّ وجلّ العمل به، لأنّ فيه العلم والفهم والاستنباط، وأوّل الفهم إلقاء السمع والمشاهدة...كما يرون الصوفية أنّ الذين تنكشف لهم الخزائن المذخورة تحت كل آية، بل تحت كل

حرف في القرآن الكريم، إنما هم الراسخون في العلم»^(١).

وأما بخصوص تفاسير الصوفية، قال عنها الغزالي: «لا يمنع من تفسير القرآن تفسيراً صوفياً، وإن كان يعارض التوسّع فيه إلى حدّ الاعتماد على الرموز والإشارات، يُفسّر ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢] بقوله: من يريد إدراك الوجدانية الحقيقية يجب عليه أن يطرح عن نفسه التفكير في الحياتين الدنيا والأخرى. أي: يُقبل على الله دون غرض وكل ما يُفكّر فيه هو رضا الله ومحبته... ويعقب الغزالي على هذا التفسير بقوله: لا تظنّ من هذا الأنموذج وطريق ضرب الأمثال رخصة مني في رفع الظواهر، واعتقاداً في إبطالها، حتى أقول مثلاً: لم يكن مع موسى نعلان، ولم يسمع الخطاب بقوله تعالى: ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ حاشا لله، فإنّ إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين، وجعلوا جهلاً بالموازنة بينهما، فلم يفهموا وجهه، كما أنّ إبطال الأسرار مذهب الحشويّة، فالذي يجرّد الظاهر حشويّ، والذي يحرّر الباطن باطنيّ، والذي يجمع بينهما كامل... بل أقول: موسى فهم من الأمر بخلع النعلين، طرح الكونين، فامتثل الأمر ظاهراً بخلع النعلين، وباطناً بخلع العالمين»^(٢).

و«من المفسرين من يجمع في تفسيره للقرآن الكريم بين الظاهر وطريقة

(١) العك، خالد عبد الرحمن، أصول التفسير وقواعده: ص ٢١٠-٢١٣.

(٢) انظر: المصدر السابق: ص ٢١٤.

الباطن، فإذا أورد آية ذكر تفسيرها الظاهري، ثم أتبعه بتفسيرها الباطن، وممن أتبع هذه الطريقة هو الحسن بن محمد النيسابوري في كتابه (غرائب القرآن و رغائب الفرقان) وقد طُبِعَ على هامش تفسير الطبري، وقد أَلَّفَ النيسابوري هذا التفسير في أوّل القرن الثامن الهجري. وكذلك الألوّسي في تفسيره (روح المعاني)، فنجده يفسّر الآية تفسيراً ظاهرياً، ويذكر ما يتعلق بها، ثمّ يقول: من باب الإشارات، ويُورد بعض التفسيرات للصوفية، أو الإشارة للآية»^(١).

وخلاصة ما تقدّم: أنّ الصوفية يقولون بعلم الإشارة وقد اعتمدوا منهج التفسير الإشاري، وهم يؤكّدون على أنّ فهم كتاب الله تعالى مفتاحه العمل بالقرآن، كما يرون أنّ من تنكشف له الخزائن في القرآن الكريم خاصّ بفئة معيّنة وهم الراسخون في العلم. والصوفية على فرقتين، كما هو واضح من كلام الغزالي، فالأولى هم الباطنية الذين أنكروا الظواهر، بمعنى: أنّهم يرون أنّ المعنى الحقيقي من التنزيل ما وراء ظاهر الآية، والثانية هم الذين جمعوا بين الظاهر والباطن وأسماءه بالكامل، كما هو الحال في تفسير النيسابوري.

إذا تبيّن لكم منهج الصوفية، فلننظر سويّاً في الفرق بينه وبين التدبر. فنقول: إنّ من أنكروا ظواهر القرآن لا كلام لنا معه، لأنّ التدبر يهتمّ

(١) انظر: المصدر السابق: ص ٢١٧.

بالظاهر كما هو الحال في الباطن، وإنّما الكلام في الفرقة الثانية وهم الذين اهتمّوا بالظاهر والباطن ويقولون: إنّ هناك معنى ظاهرياً ومعنى باطنياً، وآراءهم هي أن يكونا معاً، وهو أصل الإشكال الصحيح، فمما يُميّز ذلك المنهج عن التدبّر هو:

١- يعتمد الصوفية منهج العمل بالقرآن، ثمّ بعد ذلك يفهموا معاني القرآن، ويستخرجون الأسرار والمعاني الحقيقية، بينما التدبّر على العكس تماماً فانطلاق المتدبّر للوصول إلى العمل والامتثال إلى أوامر الله هو القرآن، وذلك لأنّ القرآن هو الدستور وهو مُبيّن الأحكام فهو المنطلق الأوّل.

٢- منهج الصوفية عُدّ منهجاً تفسيرياً للقرآن الكريم، وغاية المفسّر كما أوضحنا سابقاً هو كشف المعاني ومداليل الآيات، وتقريرها للغير، وذلك واضحٌ من خلال الكتب التفسيرية الباطنية لهم، وهو أيضاً مختصّ بفئة معيّنة وهم الراسخون في العلم. بينما التدبّر ليس منهجاً تفسيرياً وهو خاصٌّ بتوجه وتفاعل المتدبّر أمام الآيات القرآنية، ولا يقرّرها لغيره، وكذلك هو لعامّة الناس، وليس خاصّ بفئة معيّنة من الراسخين في العلم، أو أهل السير والسلوك.



المبحث الثاني

منازح من التكبّر



نماذج من التدبّر الظاهري

لا حدّ ولا حصر لوجوه وصور التدبّر الظاهري، بمعنى أنّ للتدبّر غايات ومقاصد، وهو يتّبع إدراك الشخص وأهدافه، فمن نظر إلى وجوه فصاحة القرآن وبلاغته، فإنّه قد تدبّر، ومن نظر إلى لطائفه اللغوية، أو معانيه البيانية وما اشتملت عليها من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، فإنّه قد تدبّر أيضاً، وهكذا في أحوال يوم القيامة وأوصاف الجنّة والنار، وأوصاف المؤمنين والكافرين، فإنّه قد تدبّر أيضاً، أو إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرّ بآية فيها تعويد عود، كما ورد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ينبغي للعبد إذا صلّى أن يرتّل في قراءته، فإذا مرّ بآية فيها ذكر الجنّة و ذكر النار سأل الله الجنّة و تعوّد بالله من النار، وإذا مرّ ب (يا أيها الناس) و(يا أيها الذين آمنوا) يقول: لبيك ربّنا»^(١)، وعنه عليه السلام قال: «ينبغي لمن قرأ القرآن إذا مرّ بآية فيها مسألة، أو تخويف أن يسأل عند ذلك خير ما يرجو و يسأل العافية من النار ومن العذاب»^(٢)، والعُمدة في التدبّر بظواهر الآيات هو تأثر القلب بما يقرأ، أو يسمع، ولا يتمّ ذلك إلّا بحضوره وخشوعه عند التلاوة، فإذا كان الجبل الذي يُمثّل

(١) الهاشمي، ميرزا حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ج ١٢، ص ١١٤.

(٢) المصدر نفسه.

أكبر قوةً للجماد والقسوة يخشع ويتأثر إذا نزل عليه القرآن، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر ٢١]، فكيف بقلب العبد المؤمن؟!، وإذا كان الجن يخشع ويتأثر عند سماعه القرآن ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۗ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢]، فكيف بالإنس الذي من أجلهم نزل القرآن؟!، وقد كان نبينا محمد ﷺ من بين الخلق أشد تأثيراً بالقرآن، كما وردَ في حاله وتأثره عند سماع القرآن «أنه قال رسول الله ﷺ لابن مسعود: اقرأ عليّ، قال: فتحتُ سورة النساء فلما بلغتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾^(١) رأيتُ عينيه تذرّفان من الدّمع، فقال لي: حسبك الآن»^(٢)، وهو من قال: «إن القرآن نزل بالحزن، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»^(٣).

وكذا في أهل بيت النبوة ﷺ ورد: «عن ابن حُبَيْش قال: قرأتُ القرآن من أوله إلى آخره في المسجد الجامع بالكوفة على أمير المؤمنين ﷺ إلى أن قال: فلما بلغتُ رأس العشرين من ﴿حَمَّ * عَسَقَ ... وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ

(١) النساء: ٤١.

(٢) النوري، حسين، مستدرک الوسائل ومستنبط المسائل: ج ٤، ص ٢٧٧.

(٣) علم الهدى، علي بن حسين، أمالي المرتضى: ج ٢، ص: ٤٥٣.

رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿١﴾ بكى أمير المؤمنين عليه السلام حتى علا نَحْيَهُ ﴿٢﴾.

وخير أنموذج أقدمه في التدبر الظاهري من تأثر القلب بآيات القرآن والامتثال لها، هي قصة (الفضيل) عند سماعه لقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، حيث ورد فيه: «كانت سبب توبته أنه عشق جارية فواعدهه ليلاً، فبينما هو يرتقي الجدران إليها؛ إذ سمع قارئاً يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، فرجع القهقري وهو يقول: بلى والله قد آن، فأواه الليل إلى خربة وفيها جماعه من السابلة، وبعضهم يقول لبعض: إن فضيلاً يقطع الطريق. فقال الفضيل: أواه! أراني بالليل أسعى في معاصي الله، قوم من المسلمين يخافونني! اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي إليك جوار بيتك الحرام»^(٣).

وأصبح واضحاً للقارئ العزيز من أن القرآن بذاته يحمل شحنات مؤثرة، ولا يحتاج منّا سوى انسجام وتناغم وجداني معه، لتمسّ معانيه قلوبنا، وذلك بحسن التوجه والإنصات.

(١) الشورى: ١-٢٢.

(٢) علم الهدى، علي بن حسين، أمالي المرتضى: ج ٢، ص: ٤٥٣.

(٣) الطبري، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن: ج ١٧، ص ٢٥١.

نماذج من التدبر الباطني

١- حقيقة الميزان في التدبر^(١): قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨-٩].

قال تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢].

قال تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾.

قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

والسؤال هو: هل أنّ الميزان المنزل من عند الله مع إنزال الكتب وإرسال الرسل هو ميزان الأرز والشعير والتمر وغيرها؟!.

فلو جردنا حقيقة معنى الميزان من المعاني المادية، لعلمنا أنّ حقيقة الميزان ليس من الواجب أن يكون مما له شكل مخصوص، أو صورة جسمانية، فإنّ حقيقة الميزان هو ما يُقاس ويُوزن به الشيء، والشيء أعمّ من أن يكون جسمانياً، أو غير جسماني، فالقَبَانُ ميزان للأثقال، والشاقول

(١) انظر: الشيرازي، محمد، الحكمة المتعالية: ج ٩، ص ٢٩٩، بتصرف.

ميزان لمعرفة الأعمدة، والمسطرة ميزان لاستقامة الخطوط، وعلم المنطق ميزان للفكر يعرف به صحيح الفكر من خطأه، وعلم النحو ميزان للإعراب والبناء، وهكذا.

وبالجملة: ميزان كل شيء من جنسه، فالموازين مختلفة، والميزان المذكور في القرآن ينبغي أن يُحمل على أشرف الموازين، وهو ميزان يوم الحساب في الآخرة. وأما في الدنيا، فهم الأنبياء، والأولياء، كما وردَ في الروايات، فإنه قد سئل الإمام الصادق (عليه السلام) عن قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾^(١)، فقال: «الموازين هم الأنبياء والأولياء»^(٢). فهي واضحة للمتدبر بأدنى تأمل من الآية الأولى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

ومجمل الاستفادة هنا: أن لأهل السلوك محاسبة ومراقبة وموازنة بأن يزنوا كل ليلة حسناتهم وسيئاتهم الصادرة عنهم، فإن زادت السيئات تداركوها بالتوبة، والذكر، والطاعة، وإن زادت حسناتهم اليومية وازنوها بنعم الله تعالى، فيرجعوا إليه مستغفرين، مستحيين من فضله وكرمه، وعلموا: أن طاعتهم بتوفيقه وتسديده، وهي من أعظم نعمائه لهم.

٢- الأسباب الهداة وسفينة النجاة^(٣): قال تعالى: ﴿وَجَوْزَنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) البحراني، هاشم بن سليمان، البرهان في تفسير القرآن: ج ٥، ص ٨٥٤.

(٣) انظر: الخصيبي، حسين بن حمدان، الهداية الكبرى: ص ٤١٩، بتصرف.

الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغِيًّا وَعَدُوًّا ﴿ [يونس: ٩٠].

فالظاهر معلوم، وذلك: حين ما أمر الله تعالى موسى (عليه السلام) أن يسري ببني إسرائيل، وعقبهم فرعون وجنوده، وأراد الله إهلاكه، ففرق البحر لبني إسرائيل، وأنجاهم من فرعون وجنوده، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَتْبَعْنَاكُمْ وَآغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نُنظُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥].

وأما في الباطن: فالمستفاد من الآية: أن الأئمة (عليهم السلام)، هم الأسباط الهداة وسفينة النجاة والطود العظيم، فالبحر: هو الدنيا، كما قال علي (عليه السلام): «الدنيا بحر عميق قد غرق فيه عالم كثير»^(١).

وبنو إسرائيل: هم بنو علي، كما نقرأ في الزيارة: «السلام على إسرائيل الأمة»^(٢)، فيكون قول النبي (صلى الله عليه وآله) واضحاً: «أنا وعلي أبوا هذه الأمة»^(٣)، فإسرائيل هو الإمام علي (عليه السلام)، وبنوه هم شيعته، ومفرق البحر: هو رسول الله يقسم الدنيا لهم^(٤).

ولا عجب في ذلك، فقد وردَ عن الإمام الصادق (عليه السلام) في رواية طويلة: «يا مفضل لو تدبر القرآن شيعتنا لما شكوا في فضلنا»^(٥).

(١) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج ٢، ص ١٦٤.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ١٠٠، ص ٣٣٠.

(٣) الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ١١٨.

(٤) الخصبي، حسين بن حمدان، الهداية الكبرى: ص ٤١٩.

(٥) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٣، ص ٢٦.

المحصلة من النموذجين في التدبر الباطني:

الأول: التدبر بالميزان المذكور في الآيات الكريمة والعبور من ظاهر الآية إلى باطنها بأنه ليس من الميزان المتعارف ما له صورة مرسومة في الذهن، وذلك من خلال ذكر الشاهد والقرينة العقلية بأنّ الأنبياء والأولياء هم الموازين، وكذلك من القرينة العقلية بأنه لا يمكن أن يكون ميزان يوم القيامة ما يكال به الأرز والشعير، لأنّ الأعمال ليست كذلك، ثمّ الانتفاع بأنّ موازنة أعمال العباد تتم حسب ميزان الأنبياء، فإن كانت موافقة لمنهجهم، ثقلت تلك الموازين فهم في عيشة راضية، وإن خالفتهم خفت موازينهم فأثمهم هاوية، ثمّ الامتثال باتباع منهجهم عليهم السلام.
وأما الثاني: كان التدبر في معرفة مقام محمد وآل محمد عليهم السلام وشيعتهم، وبحسب الشواهد العقلية من الروايات، حيث تمّ العبور من ظاهر الآية التي لم يُنكر وجود بني إسرائيل ونيبهم موسى عليه السلام وحادثة شقّ البحر، إلى باطنها الذي له علاقة ومناسبة بين ظاهر الكلام بورود لفظة (إسرائيل) على أمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ الامتثال بركوب سفينتهم المنجية من بحر الدنيا.



المبحث الثالث

منهجنا في التطبيق



منهجنا في التطبيق

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيًا﴾ [البقرة: ١٤٨].

على ضوء ما تقدّم من مباحث أوضحنا فيها مفهوم التدبّر الصحيح وكيفيته، وأنّه يصلح أن يكون مرتكزاً رئيسياً ومنطلقاً لكل من أراد أن يتدبّر في آيات القرآن الكريم.

وكثيراً ما أوضحنا أنّ أصل التدبّر هو: عملية تفاعلية تخضع لحضور قلب المتدبّر نفسه، وما يتأثر به حين قراءته وسماعه لكلام خالقه، وليس هو عملية تفسيرية حتى تُدوّن به الكتب وتملئ به الصحف، فمجاله مختلف تماماً عن التفسير الذي يتمّ به كشف المعاني عن ألفاظ القرآن، فكل ما يُكتب في التدبّر الصحيح ليس من هذا النوع ولا يعني أنّه كشفٌ لمعاني القرآن، ولا أنّه إبراز لحقائق ونكات استخرجت من النص القرآني، لتكون هي المستنبطة وحدها لا غير، وإن توفّرت كل الدواعي والأسباب من مراعاة الضوابط واستيعاب المطالب السابقة في فهم التدبّر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، ونعني بذلك: أنّ أذهان الناس متفاوتة في الفهم والاستيعاب، والأصعب من ذلك أنّه مهما وصل إليه المتدبّر كان ذلك في مقام التحصيل الذهني، أمّا كيف سيترجمه

ويخرجه بشكل مكتوب، فيرجع ذلك إلى خبرة مستقلة ومختصة في فن الكتابة واختيار العبارات التي تناسب وتليق بما وصل إليه، باعتبار أنّ القارئ لا يستطيع أن يستوعب الحقيقة التي قد وصل إليها المتدبر إلا من خلال الحروف والكلمات المبيّنة، لذلك ليس من الضرورة أن تُترجم هذه المواعظ، والحكم المستخرجة من كل شخص تدبر وفُتح قلبه ومَسَّ آيات القرآن الكريم.

نعم؛ هو منطق القرآن نفسه عندما يُريد أن يُبين حقائق عن الجنة والنار ونحوها، نجده يتكلّم عنها بما يُشبه المصاديق المحسوسة، فيصف ما فيها من أشجار وأنهار وما شابه من معاني نعرفها ونتعلّقها، ثم يقول تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]. ولكن قد يصعب ذلك كثيراً على من كان دون المعصوم.

وبمعنى آخر: أنّه لا عاصم للمتدبر عند تقديم شيء من تأملاته، ويستعرضها بشكل كلمات وعبارات تليق وتتناسب مع الحقيقة القرآنية، أو تتطابق مع ما استخرجه في مقام التحصيل.

لذلك فإنّ ما يدوّن في هذا المجال لا دخل له بأصل التدبر وفهم القرآن من قبل عامّة الناس، أو قدرة استيعابهم وادراكهم له، فإن لم يكن فهم القرآن ممكناً فلا معنى ولا قيمة للحثّ على تدبره.

وبعبارة أخرى: أنّ ما يُكتب في تدبر القرآن الكريم قد يُحدّد بفئة متخصصة في فن الكتابة والتأليف، وهذا لا يتعارض مع الأصل في التدبر، وهو أنّه مُتاحٌ لعامّة الناس ولكل شخصٍ قد فُتحت مسامع قلبه

لكلام رب العالمين.

وكذلك فإنّ كلامنا سابقاً في أنّ تفاعل المتدبّر مع الآيات واستنطاقها ليس تفسيراً حتى يقرّره للغير، لا يتعارض مع ما تقدّمه من تأملات وأطروحات، وذلك لأنّ الحال هنا من أسلوب ومنهج تطبيقي يكون مُكَمَّل لما قدمناه من مباحث سابقة وهدفها التعليم والتفهم، وإيصال الفكرة كاملة بفصلها النظري والتطبيقي؛ ليكون منهجاً تعليمياً بإذن الله تعالى.

وإذا اتضح هذا، فيمكن لنا أن نُلخّص المنهج التطبيقي لنا بنقطتين أساسيتين، وهما:

١- أنّ كلّ ما تقدّمه في الفصل التطبيقي هو مُبتنٍ على قاعدة الأطروحة التي تعني أنّها خالية من جهة الجزم والقطع في بيان مراد الله تعالى، وإنّما هي فكرة مستخرجة من سور، أو آيات القرآن الكريم، وخير من عرّف الأطروحة هو الشهيد محمد صادق الصدر رحمته الله في كتابه (منّة المنان في تفسير القرآن)، وقد اعتمد عليها في بيان مراده في كثير من كتبه، ومضمونها: أنّها فكرة مُحتملة قابلة للأخذ، أو الردّ، أو النقاش، أو التطوير، وهي ليست على نحو الجزم والرأي^(١).

بمعنى: أنّ من يعتمد على هذه الطريقة (أي: نظام الأطروحة) ويُقدّم نكتة قرآنية، أو حكمة مُستنبطة، أو موعظة مُستخرجة لا يعني ذلك أنّه

(١) انظر: الصدر، محمد صادق، منّة المنان في تفسير القرآن: ج ١، ص ١٢، بتصرف.

قد فسّر القرآن، وإنما هي أفكار وتأمّلات لا أكثر، فلا دخل لها بالتفسير أولاً، وخالية من القطع ثانياً. وبما أنّها فكرة ولم تخالف الشريعة المقدسة، ولا سنّة النبيّ، ولا عُرف العقلاء، فلا مانع من طرحها ويبقى قبول هذه الأطروحة، أو ردّها راجعاً للقارئ نفسه.

لذلك على القارئ العزيز أن يفهم أسلوبنا ومنهجية طرحنا قبل شروعه بقراءة التأمّلات والرؤى والمفاهيم المطروحة في الفصل التطبيقي، وإلّا فإنّه قد لا يستسيغ الطرح، أو يذهب بعيداً عما أردناه من نفع الناس، وخدمة كتاب الله المبارك.

٢- قد يعتمد المتدبر ومن أراد أن يطرح تأمّلاته وما استخرجه من حقائق ينتفع بها الآخرين، على اتجاهه وصبغته التي يتلبّس بها، كما لو كانت صبغة الكاتب تاريخية مثلاً، فس نجد أنّ كتابته تطبّعت، واعتمدت على الجانب التاريخي، وكذا لو كانت أخلاقية، أو فلسفية وما إلى ذلك، فإننا نجد أنّ الكاتب يدور حول ما يحمله من اتجاه وبُعد فكري، وذلك سيكون واضحاً في تأمّلاته ومفاهيمه التي استخرجها ودوّنها بأدنى تأمل، سواء قصد بيان وإيضاح ذلك، أم لم يقصد.

لذلك قد حاولنا أن نُقدّم أكثر الأبعاد وأهمها، أي: العقائدية والتاريخية والأخلاقية والفلسفية والمعرفية، حتى يكون البحث أكثر مقبولية لأكثر عدد من الناس، وما هو إلّا أنموذجٌ وطريقٌ للتعلّم، ويبقى الباب مفتوحاً لكلِّ مُتدبرٍ، والتزوّد من المائدة القرآنية النازلة من ربّ السماء.

سبب بدايتنا في التدبر من سورتي الكهف ويوسف عليهما السلام:

قد يتسائل البعض عن سبب البدء بمشروعنا التدبري من سورة الكهف،

فنجيب: بأنّ سورة الكهف تحتوي على مضامين ودلالات تلامس واقع حياتنا اليومية وهي الأكثر قرباً من الأحداث التي نمرّ بها في واقعنا المعاش، ومن هنا ورد التأكيد على قراءتها للوقوف على كنوز هذه السورة واستلهاهم العبر والعظات منها، فقد ورد عن النبي ﷺ: «من قرأها يوم الجمعة، غفر الله له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام، وأعطي نوراً يبلغ السماء، ووقي فتنة الدجال»^(١).

ولأننا مأمورون في التدبير بالقرآن، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]؛ ولأنّ القرآن الكريم قد رسّم لنا حلاً لكل مشكلة، أو فتنة قد تعترض لنا، ما دام وقوع فتنة الدجال في زماننا أمراً محتملاً، فرأينا أن نبدأ مشروعنا في التدبير بهذه السورة، ومن ثمّ نتدبر في سورة يوسف ﷺ والتي هي بدورها قد تكون الأقرب لقصة الإمام المهدي ﷺ منقذ البشرية والتي سنتناولها بعون الله تعالى مفصلاً، ثمّ لا نقف عند هذا الحد، بل المشروع في قصص القرآن الكريم كاملة إن شاء الله تعالى، لنقف على آياتها، ونتفاعل معها، ونأخذ العبرة منها، بقصد الامتثال لأمر الله عزّ وجلّ، بإذنه وقوته سبحانه.

(١) الكفعمي، إبراهيم بن علي، المصباح للكفعمي (جنت الأمان الواقية): ص ٤٤١.

كلمة أخيرة:

لا يمنع المتدبر ومن أراد فهم المعاني واكتشاف الحقائق أن ينظر للنص من عدة جهات، والدخول له من عدة مداخل، كما أوضحنا ذلك مراراً أنّ المتدبر عليه أن يُعمّق تفكيره بأبعاد الآية ومن جميع جهاتها، فيتدبر تارة بظاهرها، وأخرى يحاول أن يعكسها على نفسه وحاله، وواقعه المعاش، الذي هو باطن الآية.

ومن اعتمد هذا، فسيجد في نفسه تأثيراً وانجذاباً يقوده إلى العمل بمضمون آيات القرآن الكريم، وسيحلُّ في قلبه نوراً يهديه وينير له دربه، وعندئذٍ سيجد حاله قد تطوّرت وتغيّرت تجاه القرآن، كما سيشعر بالتألق الروحي والمعنوي تجاهه، وكذلك من جهة سيره نحو الله تعالى، وبذلك فأنّه سيتغلّب على تحديات الحياة ومصاعب الدنيا. وقد ورد عن النبي ﷺ أنّه قال لمن قرأ سورة الكهف: «أُعطي نوراً يبلغ السماء»^(١)، ومن مصاديق النور هو العلم، كما قال الإمام الصادق (عليه السلام): «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»^(٢).

وقال تعالى عن سورة يوسف (عليه السلام): ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، فلنقف على قول الله تعالى وقول نبيه ﷺ بهاتين السورتين، والتي تحثنا على التدبر، ولنجعلها انطلاقتنا الأولى. ومن الله التوفيق..

(١) المصدر السابق.

(٢) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المرید: ص ١٦٧.

الفصل الثاني

الجانب التطبيقي في التدبير



المبحث الأول

التدابير التطبّيقية في سورة الكهف





المحور الأول

سورة الكهف ومعاني مفرداتها

سورة الكهف ومعاني مفرداتها

تقدّم الكلام في أنّ معرفة معاني المفردات القرآنية يكون مقدّمة لتدبرّ القرآن، والغور في مضامينه، ولكي نوَقِّر للقارئ الوقت في مراجعة معاني المفردات القرآنية والتي هي الطريق للتدبرّ، وضعنا السّورة ومعاني مفرداتها بين يديه اختصاراً للوقت وتسهيلاً للوصول إلى الغرض المنشود^(١).

فواتح السورة المباركة:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾^(١) ﴿١﴾ قِيَمًا^(٢) لِيُنذِرَ
بِأَسَاسًا^(٣) شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ^(٤) وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ
أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّكَثِينَ فِيهِ أَبَدًا^(٥) ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

(١) انظر: هويدي، محمد، التفسير المعين: ص ٢٩٣.

(٢) اختلال في اللفظ وتناقض في المعنى (والعوج عدم الاستقامة).

(٣) مستقيماً معتدلاً.

(٤) عذاباً.

(٥) صادر من عنده سبحانه.

(٦) لا يثين فيه الى ما نهاية.

﴿٤﴾ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ ﴿١﴾ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَدِخٌ ﴿٢﴾ نَفْسِكَ عَلَيَّ ءَأَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ ﴿٣﴾ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا ﴿٤﴾ جُرُزًا ﴿٥﴾ ﴿٦﴾

قصة أصحاب الكهف:

﴿١﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ ﴿١﴾ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ﴿١﴾ إِذْ أَوَى ﴿٢﴾ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿٣﴾ فَضَرَبْنَا عَلَيْهِمْ ءَأَذَانَهُمْ ﴿٤﴾ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُبَيِّنَ ءَأَى الْحَزِينِ ﴿٦﴾ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿٧﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ

(١) عظمت.

(٢) مهلك وقاتل نفسك.

(٣) لنختبرهم.

(٤) أرضاً مستوية.

(٥) لا نبات فيها.

(٦) لوح من رصاص رقم فيه حديثهم وأسمائهم.

(٧) التجأ.

(٨) أي: نكون به راشرين مهتدين.

(٩) أمنناهم نوماً ثقيلاً بحيث لا يسمعون.

(١٠) المؤمنين والكافرين.

(١١) مدة.

بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِيهِ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ
 قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا
 شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَتُولا قَوْمَنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ
 بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا
 يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْأَىٰ ﴿١٦﴾ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ ﴿١٧﴾ لَكُمْ
 مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى السَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ ﴿١٧﴾ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ
 الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ﴿١٧﴾ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ
 اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾
 وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ
 بَسِيطٌ ﴿١٨﴾ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ ﴿١٨﴾ لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ
 رُعبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ

(١) مجاوزاً للحق: والشطط: الخروج عن الحد.

(٢) إلتجؤوا.

(٣) يسهل.

(٤) ما ترفقون به أي تتفجعون به في عيشتكم.

(٥) تميل.

(٦) تتجاوزهم وتميل عنهم.

(٧) أي: متسع من الكهف.

(٨) ماد.

(٩) فناء الكهف.

قَالُوا لَيْسَ أَيُّومًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسْتُمْ فَاذْعَبُوا أَحَدَكُمْ
 بِوَرِقِكُمْ ^(١) هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى ^(٢) طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ
 مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ ^(٣) وَلَا يَشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ^(٤) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ ^(٥)
 يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ^(٦) وَكَذَلِكَ
 أَعْرَنَّا عَلَيْهِمْ ^(٧) لِيَعْلَمُوا أَن وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ ^(٨) فِيهَا إِذْ
 يَنْزِعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ
 غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ^(٩) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ
 وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ
 كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ^(١٠) فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ ^(١١) إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ
 وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ ^(١٢) أَحَدًا ^(١٣) وَلَا تَقُولَنَّ لِسَائِيءٍ إِنْ فَاعَلٌ ذَلِكَ غَدًا
^(١٤) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ^(١٥) وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبَ

(١) أي: الدراهم الفضية.

(٢) أظهر وأحل.

(٣) أي: ليدقق ويتخفى حتى لا يعرف.

(٤) ليطلعوا ويعلموا بمكانكم.

(٥) أطلعنا عليهم أهل مدينتهم.

(٦) لا شك.

(٧) لا تجادل في عددهم.

(٨) ولا تسأل أحداً من أهل الكتاب عنهم.

مِنْ هَذَا رَشْدًا^(١) ﴿٢٤﴾ وَلِئِشْوَا^(٢) فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسَعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لِيَشُو لَهُ، غِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ، وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ، مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴿٢٦﴾

الآيات التي اعقبت القصة:

﴿ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ، وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ﴿٢٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ، عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا^(٤) وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ^(٥) يَشْوِي الْوُجُوهُ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا^(٦) ﴿٢٩﴾ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا

(١) أقرب من أصحاب الكهف دلالة ورشداً على أي نبي

(٢) مكثوا.

(٣) إفراطاً وتجاوزاً عن الحد.

(٤) فسطاطها شبه به النار المحيطة بهم أو حائط من نار.

(٥) كالمذاب من المعادن أو كالزيت المغلي.

(٦) ساءت النار متكأً.

(٧) إقامة وخلود.

خُضْرًا مِّنْ سُنْدُسٍ ^(١) وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ^(٢) نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا

﴿٣١﴾

قصة صاحب الجنتين:

﴿٣١﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مِّثْلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ ^(٣) مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا ^(٤) بِنَخْلٍ

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ^(٥) كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْهَأُ وَلَمْ تَظَلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا

نَهْرًا ^(٦) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ^(٧)

﴿٣٢﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ^(٨) وَمَا

أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ^(٩) قَالَ قَالَ

لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ ^(١٠) رَجُلًا

﴿٣٣﴾ لَكِنَّا ^(١١) هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ^(١٢) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ

مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ^(١٣) فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ

(١) رقيق الديداج (الحرير).

(٢) السرر بالحجال (ذات عجلات).

(٣) بستانين.

(٤) أحطناهما.

(٥) أعوان وعشيرة.

(٦) مرجعاً وعاقبة.

(٧) صيرك: جعلك.

(٨) لكن أنا أقول.

يُؤْتِينَ خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا ^(١) مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا ^(٢) زَلَقًا ^(٣) ^(٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا ^(٤) فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ^(٥) وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ ^(٥) فَأُصْبِحَ يَقْلَبُ كَفَيْهِ ^(٦) عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ^(٧) وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ^(٨) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ^(٩) ^(٤٣) .

الآيات التي اعقبت القصص:

﴿ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ^(٨) ^(٤٤) وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا ^(٩) نَذْرُهُ الرَّيْحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ^(٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ^(١٠) خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ^(٤٦) وَيَوْمَ نُسِِرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ

(١) عذاباً كالصواعق.

(٢) أرض مستوية لا نبات فيها.

(٣) ملساء تزل بها القدم.

(٤) غائراً ذاهباً في باطن الارض.

(٥) أهلك ثمرة.

(٦) كناية عن التأسف والحسرة.

(٧) خالية قد سقط بعضها فوق بعض.

(٨) أحسن عاقبةً لأوليائه.

(٩) مكسراً مفتتاً.

(١٠) العبادات وأعمال الخير التي يبقى ثوابها أبداً.

بَارِزَةً^(١) وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ^(٢) مِنْهُمْ أَحَدًا^(٣) وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا
 كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا^(٤) وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى
 الْمُجْرِمِينَ مُسْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ^(٥) وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا^(٦) مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ
 صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا^(٧)
 وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ
 رَبِّهِ^(٨) أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ
 بَدَلًا^(٩) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ
 مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا^(١٠) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ
 فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا^(١١) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ
 مُوَاقِعُوهَا^(١٢) وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا^(١٣) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا^(١٤) فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ

(١) ظاهرة.

(٢) فلم نترك.

(٣) خائفين مما فيه من الأعمال السيئة.

(٤) هلكننا، دعاء على أنفسهم بالهلاك.

(٥) خرج عن طاعة ربه.

(٦) أعواناً.

(٧) اسم واد في جهنم.

(٨) واقعون فيها.

(٩) موضعاً ينصرفون إليه.

(١٠) لقد بينا.

مِنْ كُلِّ مِثْلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٦﴾ وَمَا مَعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٨﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٦٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴿٦١﴾ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿٦٢﴾ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٦٣﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٦٤﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٦٥﴾

قصة موسى والخضر عليه السلام:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ ﴿٦٦﴾ لَا أَبْرَحُ ﴿٦٧﴾ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ ﴿٦٨﴾ أَوْ

(١) طريقة الله التي أجزاها على الأمم السابقة.

(٢) ليبتلوا ويزيلوا.

(٣) أغطية ساترة.

(٤) صمًا وثقلًا.

(٥) ملحجًا ومنجى.

(٦) يوشع بن نون.

(٧) لا أزال أسير.

(٨) ملتقى بحر فارس والروم.

أَمْضَى حُقْبًا ^(١) ^(٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ^(٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا ^(٢) قَالَ لِفَتَاهُ إِنِنَّا غَدَاءْنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ^(٣) ^(٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا ^(٤) إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ^(٥) ^(٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ ^(٦) فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ^(٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ^(٧) عِلْمًا ^(٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ اتَّبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ^(٨) ^(٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ^(٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ^(٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ^(٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ^(٧٠) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ^(٧١) ^(٨) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ^(٧٢) قَالَ لَا نُؤَاخِذُكَ بِمَا نَسِيتَ وَلَا تُرْهِقُنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ^(٧٣) ^(١٠) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا

(١) أسير دهرًا طويلًا.

(٢) فلما تعديا مجمع البحرين.

(٣) تعبًا وشدة.

(٤) التجأنا.

(٥) نطلب.

(٦) من عندنا.

(٧) علمًا ذا رشد وصواب.

(٨) عظيمًا منكرًا.

(٩) لا تكلفني، لا تحملني.

(١٠) صعوبة ومشقة.

فَقَنَلَهُ، قَالَ أَقْنَلْتِ نَفْسًا زَكِيَّةً^(١) يَغْيِرُ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا^(٢) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ
 إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا^(٣) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي قَدْ بَلَغْتَ
 مِنْ لَدُنِي عُذْرًا^(٤) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنَّى أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا^(٥) أَنْ
 يُضَيِّقُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ^(٦) فَأَقَامَهُ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ
 أَجْرًا^(٧) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِأَوْيَلِ^(٨) مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا^(٩)
 أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ^(١٠) مَلِكٌ
 يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا^(١١) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا
 طُغْيَانًا وَكُفْرًا^(١٢) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّا زَكَاةً^(١٣) وَأَقْرَبَ رَحْمًا^(١٤)
 وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
 صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا^(١٥) وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ^(١٦) وَمَا
 فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا^(١٧) ❁

(١) طاهرة من الذنوب.

(٢) امتنعوا.

(٣) يقرب أن يسقط، والانقضاء: السقوط.

(٤) بالتفسير.

(٥) أمامهم أو خلفهم ورجوعهم عليه.

(٦) يأتباعها له وذلك لحبها إينها.

(٧) طهارة من الذنوب.

(٨) أقرب رحمة وعطفًا على والديه.

(٩) يبلغا رشدما وكمال عقلها.

قصة ذي القرنين:

﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾^(١) قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ^(٢) فِي الْأَرْضِ وَءَانِيئَهُ^(٣) مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ^(٤) وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّمَا أَنْتَ تُعَذِّبُ وَإِنَّمَا أَنْتَ تُنْجِذُ فِيهِمْ حَسَنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا^(٥) ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ^(٦) وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا^(٧) ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَنْبَعُ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ^(٨) مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا

(١) عبداً صالحاً أحب الله فأحبه أو كان من الملوك الصالحين.

(٢) أي: بسطنا يده وملكناه.

(٣) فاعطيناه ويسرنا له.

(٤) الحمأ: الطين الأسود، أي: تغرب عند شاطئ بحر ساحله طين أسود.

(٥) منكرًا غير معهود.

(٦) يعني الموضع الذي تطلع الشمس عليه أولاً من الأرض.

(٧) ساتراً من اللباس والبناء والشجر والكهوف.

(٨) قبيلتان من ولد يافث بن نوح.

مَكَّنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ^(٩٥) ءَأَتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ ^(٩٦) حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ^(٩٧) قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ^(٩٨) ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْتَطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ ^(٩٩) وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ^(١٠٠) ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ^(١٠١) وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ^(١٠٢) ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ ^(١٠٣) فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمَاعًا ^(١٠٤) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ^(١٠٥) ﴿٩٩﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ^(١٠٦) ﴿١٠٠﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَنخُدُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِّلْكَافِرِينَ نَزْلًا ^(١٠٧) ﴿١٠١﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ^(١٠٨) ﴿١٠٢﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٣﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّاتٍ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ ^(١٠٩) أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ^(١١٠) ﴿١٠٤﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ^(١١١) ﴿١٠٥﴾ ﴿١٠٦﴾

(١) حاجزاً حصيناً.

(٢) قطعة الحديد على قدر الحجارة بينى فيها.

(٣) جانبي الجبلين.

(٤) نحاساً مذاباً.

(٥) أن يعلوه ويصدّوه، يقال ظهرت السطح إذا علوته.

(٦) خرقاً.

(٧) يضطرب ويختلط بعضهم ببعض.

(٨) منزلاً.

(٩) بطلت وضاعت.

(١٠) مهزوءاً أهما.

خاتمة السورة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكُمَّتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾.

صدق الله العلي العظيم

(١) تحوّلًا وانتقالًا.

(٢) عونًا وزيادة.



المحور الثاني

الأطروحات في سورة الكهف

الأطروحة الأولى في سورة الكهف^(١)

الوقاية من الفتن هي المحور الرئيسي في هذه الأطروحة، ولأجل التوصل إليها لا بأس بثلاثة طُرق نظرناها على شكل أسئلة:

١ - ما هو موضوع السّورة العام؟

٢ - ما هو سبب تسمية السّورة بالكهف؟

٣ - هل توجد مناسبة بين فواتح السّورة وخواتيمها؟

جواب السّؤال الأوّل:

سورة الكهف هي من السّور المكيّة، وهي إحدى خمس سور بدأت بـ (الحمد لله)، وهن: (الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر).

(١) هذه الفكرة مقتبسة ومستفادة من عدة مصادر، مع تصرفنا بانتقاء ما يناسب منها، والإضافة عليها بما وفقنا إليه. والمصادر هي: ١- الموقع الإلكتروني لموسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية، تفسير سورة الكهف. ٢- منتدى الدرر السنية، مقالة مرفوعة باسم عروس القرآن، تفسير سورة الكهف. ٣- العلامة الطباطبائي، تفسير الميزان، تفسير سورة الكهف. ٤- ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل، تفسير سورة الكهف. ٥- محمد جواد مغنية، تفسير الكاشف، تفسير سورة الكهف. وقد اقتبسنا المخطط مع التغيير في آخر الأطروحة الأولى من موقع (خرائط المفاهيم).

وهذه السّورة ذكرت أربعة قصص قرآنية هي: (أهل الكهف، صاحب الجنتين، موسى والخضر عليه السلام، ذو القرنين) وهذه القصص يربطها محور واحد، وهو: أنّها تجمع الفتن الأربعة في الحياة وهي: فتنة الدّين: (قصة أهل الكهف).

فتنة المال والولد: (صاحب الجنتين).

فتنة العلم: (قصة موسى والخضر عليه السلام).

فتنة القوة والسلطة: (قصة ذو القرنين).

وأنّ هذه الفتن شديدة على الناس، والمحرّك الرئيسي لها هو الشيطان الذي يُزيّن هذه الفتن. لذا جاءت الآية وسط السّورة لتُحذّر من اتخاذ الشيطان ولياً: ﴿أَفَتَخَذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أنّه من قرأها وقى^(١) من فتنة الدجال»^(٢)؛ لأنّه هو من يأتي بهذه الفتن الأربعة ليُفتن الناس، ثمّ تأتي العصمة من هذه الفتنة بعد كل قصة من هذه القصص التي تتحدّث كل واحدة منها عن فتنة من الفتن كما سيوضح ذلك.

(١) أي: عصمه الله تعالى.

(٢) الكفعمي، إبراهيم بن علي، المصباح للكفعمي (جنة الأمان الواقية): ص ٤٤١.

القصة الأولى: قصة أصحاب الكهف (فتنة الدين)

هم فتية هربوا بدينهم من قريتهم التي كان قد ضل ملكها وأهلها عن الطريق المستقيم، فأووا إلى الكهف؛ ليكون ملاذاً لهم، وتركوا وراءهم منازلهم المريحة، ليسكنوا كهفاً موحشاً، فبنتهم الله تعالى، وزاد في هدايتهم، وألهمهم به طريق الرشاد.

وهذا ليس بغريب على من ملاً الإيمان قلبه، فالمؤمن يرى الصحراء روضة إذا أحس أن الله معه، ويرى الكهف قصراً؛ لاستشعار السعادة بطاعة الله تعالى، وهؤلاء ما خرجوا طمعاً في الدنيا، أو في المال، وإنما خرجوا طامعين في رضا الله تعالى، واختاروا أيّ مكان يستطيعون فيه عبادة الله تعالى دون قريتهم التي خرجوا منها.

نعم، إنها لفتنة في الدين، ففي كل زمان تظهر في العالم الإسلامي وغيره فتن، وبالطبع أن وجودها هو لأجل امتحان الناس وظهور الصادق من الكاذب والمدعي للهداية من غيره، وتمييز الخبيث من الطيب، ومعرفة السعداء من الأشقياء، وقد جاء في القرآن الكريم الإشارة إلى هذا الموضوع، كما في قوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، ومن خلال النظر في حال مجتمعنا المعاصر نلاحظ: أن صفات الكمال الإنسانية قد سلبت منه، واستبدل محلها الرذائل الشيطانية، كضياع الحياء منهم، الذي هو من الصفات الإنسانية العالية، وذهاب العفاف، حيث حلّ محله الاستهتار والتحلل، وهكذا تضييع الحقوق، وكفران النعمة، وعدم تقدير الإحسان، والخدمة للآخرين، وفقدان الصدق في القول والعمل، وحلّ محلّها الكذب،

والخداع، والغش، والتحايل، والتلاعب.

والخلاصة: أصبح المجتمع البشري يتعامل أفراده فيما بينهم في تفاخر وبمنطق القوة والغلبة في أغلب الأحيان. ومن واضحات الفتن هي: إسقاط علماء الدين في نظر المجتمع بشتى الطرق، كإيجاد حالة التشاؤم والسخرية بهم، وإيجاد فجوة بينهم وبين المجتمع، وإطلاق الاتهامات عليهم.

ومن جملة الفتن الدينية: هي البدعة في الدين، فهناك من يتتبع تيارات جديدة في الإسلام، لتفريق وحدة المسلمين، وضرب الإسلام الحقيقي، وتشتيت الفكر الأصيل في أذهان الناس، وإلهاءهم في الصراعات المذهبية والطائفية والدينية بقصد تضييقهم وتشويه صورة الإسلام اللامعة.

وهذه الفتنة هي من أشدّ الفتن التي طفحت في المجتمع الإسلامي المعاصر، وتتجسد العصمة من الانخراط فيها بما جاء عقيب قصة أصحاب الكهف، حيث قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا * وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٨ - ٢٩].

فالعصمة من فتنة الدين تكون بمصاحبة الأخيار: ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾، والابتعاد عن الأشرار: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾، وتذكر الآخرة بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾.

القصة الثانية: قصة صاحب الجنتين (فتنة المال والولد)

صاحب الجنتين الذي أتاه الله كل شيء: ﴿وإِن تَعُدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فقد انشغل بالأسباب وغفل عن مسبب الأسباب: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]، فكفر بأنعم الله، وأنكر قيام الساعة: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦]، فأهلك الله جنتيه: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ﴾ [الكهف: ٤٢]، والأمر الذي يجدر التذكير به: هو عظم وصعوبة هذا الذنب وهو الشرك، وحيث أننا سنتكلم عنه لاحقاً في محور الفوائد العامة في سورة الكهف سنوكل الحديث عنه في محله.

أمّا هنا فسنبيّن الشرك في الاستعانة بالأسباب كما أُصيب به صاحب الجنتين: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥].

نعم، إنّ خالق الكون جعل قاعدة الأسباب من ضمن إيجاده للعالم، فإيجاد كل شيء يستند إلى سبب، كوجود الثروة تستند إلى العمل، وحصول الشفاء من المرض يستند إلى التداوي، وهكذا في سائر الأشياء، وفي طبيعة الحال عندما يريد الإنسان أن يتوصّل إلى منفعة، أو أن ينجو من ضرر ما، فإنّه يلتجأ إلى أسبابها، فمن توهم أنّ وصوله إلى مقاصده كان بالأسباب، وهي التي أوصلته دون النظر إلى مسبب الأسباب، كان مشركاً، ومن اعتقد أنّ الوصول إلى المنفعة، أو النجاة من الضرر، بواسطة الأسباب، وهذه الأسباب هي مخلوقة من خالق الكون، وأنّ المؤثر هو الله، وهذا التأثير متوقف على مشيئته وإرادته، ولم تكن هذه الأسباب مستقلة

في التأثير، كان موحداً من هذه الجهة ولم يشرك بربه شيئاً، وهذا ما نراه منتشرأ بين أدنى مراتب أهل التوحيد فضلاً عن غيرهم. وهذه المرتبة من الشرك تتجسد في قصة صاحب الجنتين عندما رأى أن النعمة أتت نتيجة معونة أولاده وأمواله بنحو الاستقلال، في حين أنها من عطاء الله، وقد أعطاها إياه امتحاناً له، ليشكر الله أم يكفر؟ فهي فتنة، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمَوْلَكُمُ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. فالتعلق بهما فتنة إذا كانت بديلاً عن التعلق بالله، فصاحب الجنتين أحب النعمة من مال وولد بنحو الاستقلال، وقد خسر النعمة، فهو لم يجن النفع الدائم، ولا يتم ذلك إلا بإفراغ القلب من التعلق بغير الله تبارك وتعالى. وكذا فيمن يرى أن أولاده يغنونه بقوتهم، فلا يحتاج إلى غيرهم، فيعرض عن أرحامه، وأصدقائه، ومن أحسنوا له اتكالاً على الأسباب المادية فقط.

وتأتي العصمة من هذه الفتنة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، فقوله: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ متعلق بالمال للزيادة، أو البركة فيه، وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ متعلق بالولد؛ لأن فيه القوة والاستعانة. والعصمة من فتنة المال والولد واضح في الآية التي تختم القصة: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ [الكهف: ٤٦].

القصة الثالثة: قصة موسى مع الخضر عليه السلام (فتنة العلم)

كان موسى عليه السلام يظن أنه أعلم أهل الأرض، فأوحى الله تعالى له: أن هناك من هو أعلم منك، فذهب للقائه، والتعلم منه ^(١)، فلم يصبر على ما فعله الخضر عليه السلام؛ لأنه لم يفهم الحكمة من أفعاله، وإنما أخذ بظاهرها فقط، كما في الموارد الثلاث وهي: (خرق السفينة، و قتل الغلام، وإقامة الجدار)، وتلقى بدلها صوراً وعناوين أخرى أوجبت اعتراضه عليه، وهو عليه السلام محافظ على توازنه وأدب التعلم منه وملتفت إلى شرطه بأن يلتزم الصبر، وغير ذلك من دروس المعلم والمتعلم.

ومما يُستفاد من هذه القصة: أن أهل العلم قد يُفتنوا بعلمهم، بمعنى: أن كل علم لا يزيد صاحبه خوفاً من الآخرة وخشية من الله، فلن يكون له نافعاً، بل هو وبال على صاحبه، لذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وما أكثر من تعلم مصطلحات الفلسفة، والكلام، والأصول، والفقهاء ونحوها، وغفل عن أن قيمة العلم ليس بكثرة المعلومات، وإنما المعلومات وسيلة لخشية الله والخوف منه والنجاة من عذابه، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، بل منهم من يجعل العلم وما تعلمه مطيةً للدنيا، يأمر الناس بالبر وينسى نفسه، ويُزيّن كل ما يريده، وهو أقرب للمكر والحيل، ناهيك عما يصاب بعضهم بآفات الحسد والتكبر على

(١) الثعلبي، أحمد بن إبراهيم، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: ج ٦، ص ١٨٣، بتصرف.

المتعلمين، أو على عموم الناس، ونحوها من آفات العلم التي قد كثرت في هذا الزمان.

وتأتي العصمة من هذه الفتنة بقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِنَّمَا عَلَّمْتُ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦]، وقوله تعالى: ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ [الكهف: ٦٩].

فالإخلاص بالنية، والتواضع، وحُسن الظن بالأستاذ، والصبر على تحصيل العلم، وعدم الغرور به، هو السبيل للنجاة من فتنة الغرور والتكبر. وينبغي على العالم أن يعرف: أنّ علمه عطاء إلهي من دون استحقاق، فعليه أن يتواضع لمن يتعلم منه، وأن يشفق عليه ويرحمه، ويسعى في تعليمه، كما أنّ الواجب على المتعلم الخضوع والتواضع والاستجابة للعالم، ولو لم يكن لهذا العالم اسم وشهرة.

القصة الرابعة: قصة ذي القرنين (فتنة القوة، والسلطة)

ذو القرنين كان ملكاً عادلاً، وهو قد ملك مشارق الأرض ومغاربها: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤]، فكان يُعين الناس، ويدعو إلى الله، وينشر الخير حتى وصل إلى قوم خائفين من هجوم يأجوج ومأجوج، فأعانهم ببناء سدّ لمنعهم من اقتحامه، وما أكثر فتنة القوة والسلطة في أيامنا هذه، حيث أنّ فتنة السلطان الغالب، والقوة القاهرة تقود إلى البطش، والظلم ابتداءً من بعض أرباب الأسر وممارسة قوتهم على أسرهم، وجعلهم أسارى بين يديه انتهاءً بالحزب، أو الحركة، أو القائد، أو الرئيس الذي يقود قريته، أو عشيرته، أو بلده، أو دولته، فيفتن بما أوتي من قوة، وسلطة، فلا يحسن سياسته، ولا يُشرك

أحداً في رأيه أو عمله على العكس مما قاله تعالى: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]، فينفرد ويستبد بعناده، ورأيه، وينسى أن ما عنده من قوّة أو سلطان، فهو من عند ربه، كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٨].

وتكون العصمة من هذه الفتنة: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، بمعنى: أنّ العصمة من فتنة القوة والسلطة: هي بالإخلاص لله في الأعمال، وتذكر الآخرة، ومشاركة الرجال عقولهم، ومشاورتهم آراءهم، وعدم التفرد، والاستبداد؛ ليعينه في الأعمال، ودفع المفسد.

جواب السؤال الثاني:

لعلّ وجه تسمية هذه السّورة بالكهف؛ لأنّها العاصمة من الفتن، وأنّها رمز الدعوة إلى الله تعالى، والتسليم له، وكما ورد في دعاء الإمام الكاظم (عليه السلام): «ويا رجائي والمعتمد ويا كهفي والسند ويا واحد يا أحد...»^(١).

فالإمام (عليه السلام) يصف الله تعالى بالكهف، والملجأ الحصين، وفي دعاء الإمام الحسين (عليه السلام): «أنت كهفي حين تُعييني المذاهب في سعتها وتضيّق بي الأرض برحبها»^(٢)، وحيث أنّ المقصود من الكهف المادي هو: ستر

(١) ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات: ص ٢٧١.

(٢) المفيد، محمد بن محمد، كتاب المزار - مناسك المزار (للمفيد): ص ١١٩.

ووقاية لمن احتذى به من الرياح والمطر والشمس وغيرها، ومقصودنا في هذه السورة هو الكهف المعنوي بالوقاية من الفتن المختلفة، فالإلتجاء إلى كهف الله من تلك الفتن سيعصمك من مخاطرها. كذلك أنّ أول قصة في تلك السورة هي قصة أصحاب الكهف، فقد يكون السبب في تسميتها بأول قصة منها، والله أعلم.

جواب السؤال الثالث:

١ - أولها ذكر القرآن بعد حمده سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وهذه دلالة واضحة على أنّ جميع الفتن التي تواجه الإنسان، إنّما تحلّ بالإلتجاء إلى القرآن، وفي آخرها أيضاً ذكر القرآن (كلمات ربي): ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

٢- بدأت سورة الكهف بالعمل الصالح: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ [الكهف: ٢]، وانتهت السورة أيضاً بالعمل الصالح: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]، ونفهم منها أنه من وقى نفسه من الفتن وعمل صالحاً، فله البشري التي ذكرها الله تعالى.

٣- في أول سورة الكهف ذكر الانذار، والتبشير: ﴿يُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الكهف: ٢]، وفي آخرها قد ذكر أيضاً الإنذار والتبشير في آية [١٠٥-١٠٨]

الملخص:

١ - سورة الكهف هي كهفك من الفتن (وفائدة الكهف: للعصمة من الأخطار الخارجية)، فمن آوى إلى الكهف الإلهي فسينشر له ربه من رحمته ويهيئ له من أمره رشداً. والرشد: هو طريق الخير والصلاح، وأنه لو قرأها في كل سبعة أيام، كما ورد: «من قرأها يوم الجمعة غفر الله له إلى الجمعة الأخرى»^(١)، وتذكر فتن الدجال، وما يأتي به، لتعلم كيف يعصم الإنسان نفسه منها.

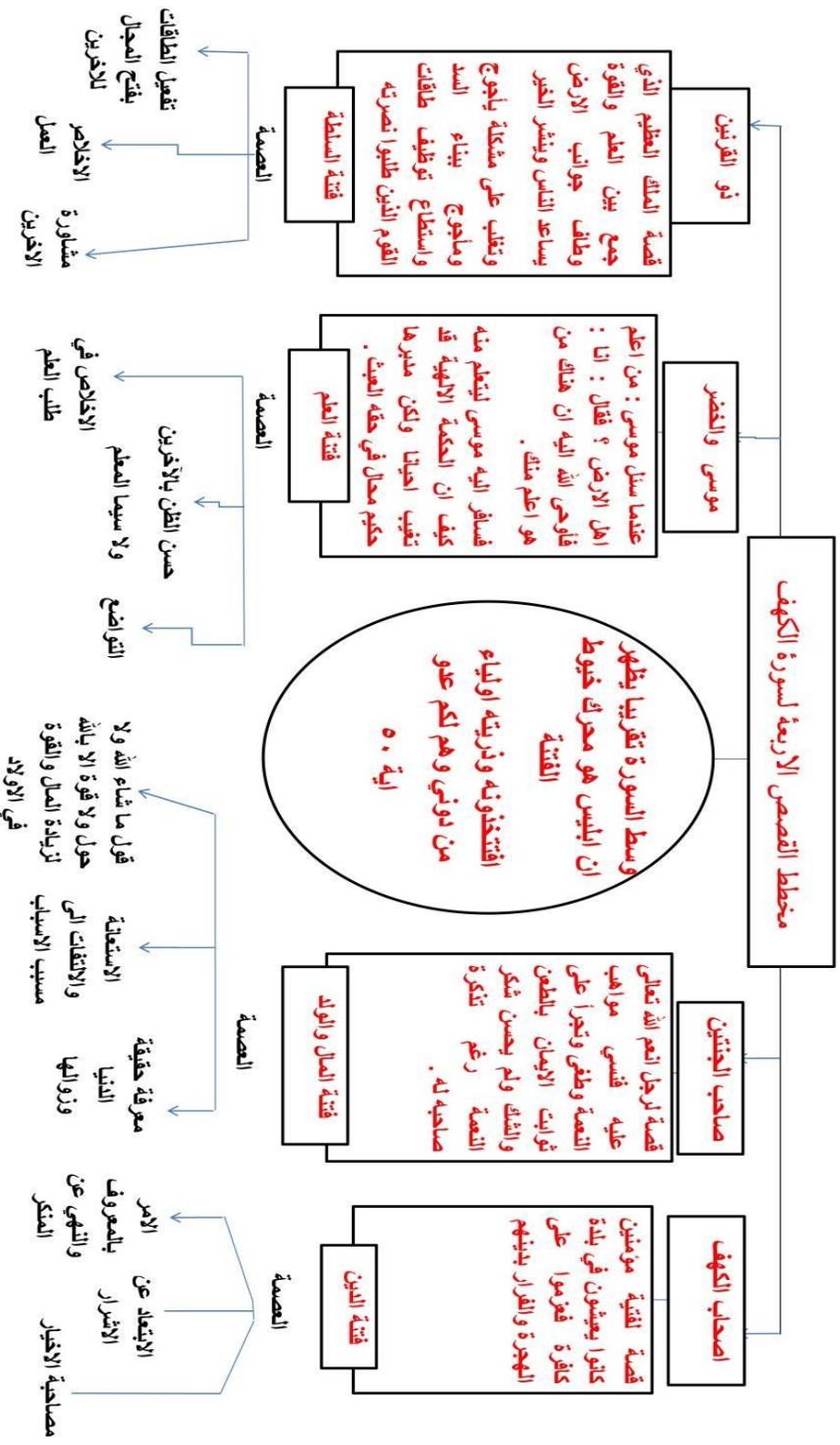
٢ - هناك مناسبة كبيرة بين (سورة الكهف، ويوم الجمعة، وفتنة الدجال) كما وردَ في حديث النبي ﷺ: «سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة، غفر الله له إلى الجمعة الأخرى... ووقى فتنة الدجال»^(٢). ويوم الجمعة هو يوم قيام الساعة^(٣)، وهو اليوم المتوقع فيه ظهور الإمام الحجة ﷺ^(٤)، ومن شروطها خروج الدجال، وظهور الفتن، فلو أنك قرأتها في كل يوم جمعة لكانت سبباً في وقايتك ونجاتك من فتنة الدجال.

(١) الكفعمي، إبراهيم بن علي، المصباح للكفعمي (جنة الأمان الواقية): ص ٤٤١.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) انظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٨٦، ص ٢٨.

(٤) البيزدي، علي بن زين العابدين، إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب: ج ٢، ص ٨٥.



الأطروحة الثانية في سورة الكهف^(١)

ضرورة التغيير هو المحور الأساسي في هذه الأطروحة ولأجل التوصل إليه لابداً من النظر في طريقتين:

الطريق الأول: التغيير المكاني في القصة

لو تأملنا في كيفية تغيير الأمكنة والانتقال من مكان إلى آخر في القصص (الكهف، مجمع البحرين، المدينة، مغرب ومطلع الشمس) لوجدنا أن القصص الثلاثة (الفتية - موسى - ذو القرنين) فيها انتقال واضح، أي: فيها تغيير للمكان، أو فيها حركة إيجابية، والقصة الوحيدة التي فيها دخول فقط وانتهت القصة سلباً هي قصة: (صاحب الجنتين). لذا سيقع كلامنا في القصص الثلاثة التي فيها حركة إيجابية وترك القصة التي لا يوجد فيها تغيير إيجابي من جراء الحركة، كما سنوضح ذلك لاحقاً.

(١) الفكرة مستفادة من موقع إسلاميات، تحت مقالة مرفوعة باسم: سورة الكهف وضرورة التغيير، د. عويض العطوي، لكنه أراد في فكرته التغيير المكاني الواضح من آيات القصص، ونحن أردنا مفهوم آخر وهو التغيير المعنوي (المراحل الأخلاقية)، لذا تصرفنا في بعض العبارات لتناسب وتنسجم مع ما نريده، لتظهر بشكل جديد.

الطريق الثاني: التغيير المعنوي في القصة

لو تأملنا جيداً في الانتقال، والتغيير، والحركة في القصص الثلاث، لوجدنا خريطةً، ومنهجاً مرسوماً للنجاح في هذه الحياة، وكذلك أهداف عظيمة تستحق أن نحيا من أجلها على الرغم من التعب، أو الجوع، أو الخوف، أو السفر، أو الانتقال، ولكن لأجل تحقيق هذا الهدف ألا وهو الوصول إلى السعادة، ولقاء الله بقلب سليم وأعمال صالحة، كان صلاح الإنسان مرتبطاً بعلاج القلب.

لذا تَعَيَّن العمل على إصلاحه بالتخلّي من الصفات المذمومة، والأمراض القلبية، وهذا ما نستفيده ونجده في القصة الأولى (أصحاب الكهف)، حيث كان هؤلاء الفتية مترفين في المدينة لما فيها من النعيم، والترف، وأنس الناس، ثم صاروا في عزلة وانفراد وتعب ووحشة، فإننا نجد في هذا التحوّل الوارد في القصة دلالة واضحة على ضرورة التخلّي من كل عائق ومانع يوصل الفرد إلى عبادة الله تعالى، كما فعَلَ الفتية والتجؤوا إلى كهفٍ حصين يقيهم من المخاطر الخارجية، بحيث استشعروا الأُنس بمعية الله لهم رغم أنهم يعيشون في عزلة وانفراد. والشيء نفسه لمن أراد أن يتخلّى من كل عائق ومانع وترفٍ ليصل إلى عبادة الله الحقيقية، واعتزال الموانع بكل أصنافها، والكهف هو الكهف المعنوي، وهو كهف الله الذي يَقيك الأخطار بعد المجاهدات، بترك العوائق وسيستشعر بمعية الله أيضاً، كما حصل مع الفتية أصحاب الكهف.

فهجر النفس لما تعودت عليه من ملكات سيئة وتهذيبها وترويضها هو أول الخطوات نحو الكمال. والذي حصل للفتية بعد إيوائهم في الكهف:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وهي نتيجة واضحة من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْ قَوْمِهِمْ وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْ قَوْمِهِمْ وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْ قَوْمِهِمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوَّاؤَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

أي: نشر الرحمة عليهم وتهيئة أمورهم، فهذه مرحلة عظيمة يحبها الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. بمعنى: أنه بدوام المراقبة، والتخلي عما سوى الله عز وجل يرق القلب ﴿يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ ويصبح مهيباً ﴿وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ للتحلي بالأخلاق الطيبة النبيلة، والمثل العليا، والتأسي بسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ، كما ورد: «تخلّقوا بأخلاق الله»^(١)، وجوهر هذه المرحلة هو: (العلم والتعلم)، ولأن النفس خداعة فيحتاج الفرد إلى مرشد، ومربّي كما هو واضح في القصة الثانية، وهي: (قصة موسى عليه السلام) والعبء العالم التي تكشف لنا الإرشاد في أن التعلم يحتاج إلى سفر، وتنقل دائم، وأنّ تغيير مكان التعلم مهم في تنوع مصادر المعلومة. وكذلك وضحت هذه القصة الصبر في طلب العلم، وحسن الظن

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٥٨، ص ١٢٩.

بالمعلم، والتواضع في العلم والتي تدوم بعد تطعيم النفس بالفضائل، وإروائها بالذكر، والشكر، وصدق التوبة، والانشغال بالتدبر، والتفكير، فهذه أيضاً مرحلة يحبها الله ويقابلها بفتح أبواب التوفيق ومدد أسباب المعونة، كما قال تعالى: ﴿يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا﴾ [الكهف: ٨٤].

بمعنى آخر: أنّ هذه الأبواب التي تفتح، فهي تفتح إلى مرحلة التجلي، وهو شأن إلهي، وتصرف ربّاني يفعلُه الله تعالى بتلك النفوس التي قامت بالتخلي، والتخلي، ويفيض عليها أنوار معرفته وينظر إليها بنظر الرحمة، واللفظ، ويجعل تلك النفس مرضية ومستعدة لتلقي النفحات والفيوضات والإمدادات الربانية، فيتجلى الحق تبارك وتعالى في قلب عبده المؤمن الصادق ويمنّ عليه بما يشاء، وبما يستحق؛ ليصبح إنساناً إلهياً وينشر الخير، وكما ورد: «يابن آدم أنا أقلّ للشيء كن فيكون، أطعني في ما أمرتك تقول للشيء كن فيكون»^(١).

وهو واضح من القصة الثالثة: (ذو القرنين)، الذي أعطاه الله من أسباب التمكين وغلبة أمر الدين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]، فقد أوتي من الأسباب العجيبة ما لا يعلمها إلا الله من العلم، والقوة التي بها يقهر الأعداء، ويبلغ مشارق ومغارب الأرض،

(١) الحلي، أحمد بن محمد، عدة الداعي ونجاح الساعي: ص ٣١٠.

ويفهم عجمة الألسن، ويذيب الحديد، ويبنى السدود.

التغيير المعنوي المستفاد من التغيير المكاني

أولاً: قصة الفتية، حيث انتقلوا من المكان الذي لم يستطيعوا فيه أن يعبدوا الله تعالى، إلى موضع آخر وهو الكهف، وهذه حركة، وانتقال واضح في موضوع القصة الأولى ألا وهي: (أصحاب الكهف).

ثانياً: قصة موسى، فالانتقال فيها واضح، وذلك من خلال تتبع الألفاظ التي تُشعر بالانتقال، كما في قوله تعالى: ﴿لَا أَبْرَحُ^(١) حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦]، وكان هذا الانتقال الأول، ثم حصل انتقال آخر من مجمع البحرين (قرب الصخرة) إلى موضع جديد يظهر أيضاً من تكرار كلمة (فانطلقا) ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ [الكهف: ٧١]، ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ [الكهف: ٧٤]، ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا آتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٧] مع كل حدث من الأحداث (السفينة، الفتى، الجدار). وبالتأمل البسيط في هذه الأحداث من القصة نجد تغييراً في المكان ومتابعة السير الواضح.

ثالثاً: قصة ذي القرنين، فيظهر فيها الانتقال أيضاً من أول أحداثها، كما في قوله: ﴿فَأَنْعَسَبَا﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْقُرْنَيْنِ بِمَا آتَىٰ أَنْ تَعْدَبَ وَإِنَّا أَنْ نُنْخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا * قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ

(١) أي: لا أسير.

فَسَوْفَ نَعْدِبُهِ، تُرِيدُ إِلَى رَبِّهِ، فَيُعَذِّبُهُ، عَذَابًا نُكْرًا * وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحَسَنُ وَسَنَقُولُ لَهُ، مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا * ثُمَّ أَنْبَغَ سَبَبًا ﴿ [الكهف: ٨٥ - ٨٩]، فإننا نجد في ذكر مغرب الشمس، ثم بعده مطلع الشمس ما يشير إلى سرعة التنقل، وإلى بعده أيضاً.

وما نريد أن نقوله: أننا استفدنا من تغيير الأمكنة والانتقال في ظاهر الآيات من القصص إلى انتقال وتغيير آخر، ولكنه انتقال معنوي والمراد به: المراحل الأخلاقية (التخلي والتجلي والتجلي) وكل واحدة منها تتناسب مع قصة من تلك القصص، كما بينا ذلك، نعم؛ التغيير المكاني واضح في القصص وفيه فائدة وانعكاس على واقع المتدبر، ولكننا في نفس الوقت تعمقنا بهذا الانتقال الظاهر؛ لينعكس على حال المتدبر معنوياً واستخرجنا مفهوماً آخر وحقيقة قرآنية جديدة تنفع المتدبر في بيان منهجية أخلاقية من القرآن نفسه، وطريقاً تكاملياً يسير عليه الفرد المؤمن، وذلك من خلال المناسبة والعلاقة بين الانتقال الظاهري الواضح في القصص مع الانتقال والتغيير المعنوي المطروح، فلو تأمل القارئ جيداً سيرى أن الآيات تكشف ذلك وبأدنى نظر.

وأما بخصوص القصة التي لم يُذكر فيها انتقال وتغيير إيجابي، فهي قصة صاحب الجنتين ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [الكهف: ٣٥]، وتلك الجنة تمثل الدنيا كما تشير إلى ذلك الآية التي أعقبت القصة: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: ٤٥]، فكانما هي تصوير لتوجهه إلى الدنيا وقد خسر. ولأنه تعلق بالأسباب

دون النظر إلى مسيئها^(١)، ومن ضمنها المال والولد: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا
وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

وكذلك من المعلوم أنّ مضمون القصة يدور حول محور الشرك بالله والتعلق بالأسباب، فكذلك استفدنا منها أمراً آخر وهو: أنّ المؤمن عندما تبدأ حركته التكاملية من أول خطواتها وهي التخلّي من كلّ عائق ومانع، فلا بدّ له من أن يُسلط الضوء على مسألة الشرك الخفي، وأهم مصاديقه: الشرك بالأسباب ويكثر مجاهدته عليه، ثمّ يستطيع بعد ذلك من أن ينتقل إلى مرحلة التخلّي، وإلّا كيف له أن يتحلّى بالطهارات والأنوار الإلهية ولا زال في قلبه شيء من أدران الشرك.

وبمعنى آخر: أنّ القرآن كأنما صورّ لنا ثلاث مراحل أخلاقية مستفادة من ثلاث قصص ولكن لأهمية ذلك العائق وهو الشرك جعله في قصة واحدة مستقلة، بقريته أنّها جاءت في ترتيبها بعد القصة الأولى وهي أصحاب الكهف، وهي مرحلة التخلّي ولم يدخل بعد في المرحلة الثانية وهي قصة موسى والخضر، أو ما سمّيناها بمرحلة التخلّي، وكذلك أنّ القصة نفسها تتكلم عن رذيلة وعائق، فهي إذن تتعلّق بالمرحلة الأولى، ولكن لتسليط الضوء على الشرك، وأنّه يُمثّل عائقاً خطراً يختلف عن بقية العوائق والموانع في مرحلة التخلّي جعل في قصة مستقلة، كما قال

(١) أي: اعتبر الأسباب مستقلة في التأثير.

تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨]. إذن: لا يمكن للفرد أن ينتقل من مرحلة التحلي إلى مرحلة التحلي حتى يتخلص من الشرك، وكما هو معلوم أنّ الشرك بالله على قسمين^(١): شرك جلي، وشرك خفي، وأنّ المجتمع المسلم لا يشملهُ القسم الأول، أي: الشرك الجلي، ولكنّه مبتلى بالقسم الثاني وهو: الشرك الخفي، فقد قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦]، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الشرك أخفى من دبيب النمل»^(٢)، أي: أنّ الشرك أكثر خفاءً من الصوت الذي يصدر عن حركة النمل، فالإنسان يجعل لله شريكاً في طاعته وعبادته واستعانتة، وهو لا يعلم، وهذا ما يُستفاد من القصة الوحيدة التي لم نلاحظ فيها تغيير وانتقال إيجابي، بينما القصص الثلاث الأخرى كان فيها خروج إلى العمل، والإنجاز، والنفع وتعرض أصحابها إلى التعب وبذل الجهد، لذا نالوا مرادهم وأضافوا شيئاً، فكانت ترمز تلك القصص الثلاث إلى المراحل الأخلاقية الثلاث أيضاً.

(١) النراقي، محمد مهدي: جامع السعادات: ص ١١٤.

(٢) الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار: ص ٣٧٩.

الملخص:

١ - سورة الكهف فيها أربع قصص، ثلاث منها مصداق للحركة والانتقال والتغيير، وواحدة ليس فيها انتقالٌ وحركةٌ، ولا حتى تغيير سوى التغيير السلبي، فكانت نتيجتها الخسران.

٢ - القصص الثلاث يُستفاد منها أنّ العبد في حياته الإيمانية التكاملية يَمُرُّ بثلاث مراحلٍ ألا وهي: مرحلة التخلّي (أصحاب الكهف)، ومرحلة التحلّي (موسى والعبد الصالح)، ومرحلة التجلّي (ذو القرنين).

فأول هذه المراحل: التخلّي، والاستفادة التي نفهمها من القصة الأولى هو: تخلّي الفتية عن عبادة غير الله، والتجاءهم إلى الكهف.

وثانيها: في القصة الثانية وما جرى بين موسى والخضر عليهما السلام، وما عوّضه الله تعالى مما لقيه في رحلته من النصب ومشقة السفر: ﴿لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]، فقد عوّضه الله بالعلم الذي لم يكن يعلمه بعد أن كان لا يمتلك أسبابه، أو أسراره، فكانت الاستفادة منها إلى التحلّي بالفضائل التي لا بدّ فيها من المرَبّي الخبير بتلك المسالك التي عبّرَ منها وقد عرف الطريق ومزالقه، وعرف ما ينبغي فعله.

وثالثها: في القصة الثالثة لذي القرنين وتمكينه في الأرض، وبلوغه مشارقها ومغاربها، ونشر الخير، ومعونة الناس. فكانت الاستفادة منها إلى التجلّي وهو نتيجةٌ لمرحلتَي التخلّي والتحلّي، فهو من فعل الله تعالى حينما يرى عبده قد صدق المجاهدة والتوجّه؛ ليقابله بفتح أبواب التوفيق، ومدّ أسباب المعونة.

مخطط قصص سورة الكهف الاربعة

قصة

ذي القرنين

التجلي

وهو شأن الهي وتصرف رباني يفتح ابواب التوفيق فهو نتيجة لمرحلتى التجلي والتجلي حيث يتجلي الحق تعالى في قلب عبده المؤمن كما حصل ذلك لذي القرنين واعطاه من كل شيء سبباً

مرحلة التجلي

- ١- ارواء النفس بالخير والتبكير والتفكير ((فلتسبح سبباً))
- ٢- نشر الخير ومساعدة الاخرين ونصرة المظلوم بالوقوف بوجه الظالم واعلاء كلمة الحق ((قال اما من ظلم فسوف نعقبه ثم يرد الى ربه ...))
- ٣- استخدام العلم والقوة لما يريده الله تعالى ((قال ما مكنت فيه ربي خير فاعويتني بقوة ...))

قصة

موسى ع والخضر

التجلي

بالفضائل والاخلاق النبيلة والمثل العليا ومقام هذه المرحلة هو العلم والتعلم كما فعل موسى ع باتباعه الخضر وتواضعه وسيره في طلب العلم

مرحلة التجلي

- ١- ازالة العزم على طلب العلم ((ان ابرح حتى ابلغ مجمع البحرين ...))
- ٢- التواضع للمعلم ((هل اتبعك على ان تعلمن ...))
- ٣- الصبر ((استجبني انشاء الله صابراً ...))

قصة

صاحب الجنتين

التعلق بالاسباب

من الشرك الخفي وهو اخفى من نيب التمل

لا الا ارادة والعزم على مسببها ((لا املك نفسي نفعا ولا ضرا الا ما شاء الله))

مرحلة التجلي

- ١- الا ارادة والعزم على طاعة الله ((الذين قاموا فقالوا ربنا الله ثم استقموا))
- ٢- العزيمة والافراد في شدة الفتن ((واذ اعزمتهم وما يعبدون الا الله))
- ٣- التأنق حين الاضطراب والاختلاط بالمجتمع في زمن الفتن ، أي التعامل بأسهل المستويات ((ويتأنق ولا يشعرون بكم احدا))

قصة

اصحاب الكهف

التجلي

من كل عائق ومنع بحجب الفرد عن عبادة الله وانسه كما فعل الفتية والتجأوا الى كهف الله

مرحلة التجلي

- ١- الا ارادة والعزم على طاعة الله ((الذين قاموا فقالوا ربنا الله ثم استقموا))
- ٢- العزيمة والافراد في شدة الفتن ((واذ اعزمتهم وما يعبدون الا الله))
- ٣- التأنق حين الاضطراب والاختلاط بالمجتمع في زمن الفتن ، أي التعامل بأسهل المستويات ((ويتأنق ولا يشعرون بكم احدا))

الأطروحة الثالثة في سورة الكهف

السفر المعنوي، أي: سفر القلب وتوجهه نحو الحقّ تبارك وتعالى، هو المحور الرئيسي في هذه الأطروحة، ولأجل الوصول إليه لا بأس من أن ننظر في طريقتين:

الطريق الأول: ترتيب وتسلسل القصص

حيث لا يخفى على المتتبع والمتدبر في آيات الله وما ذكره علماؤنا الأبرار في بحوثهم المتنوعة، أنّ حقائق ومعارف القرآن متعددة، ومناهل التزوّد من معانيه كثيرة، ولكن كلٌّ بحسبه ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد: ١٧]

فيأتي العالم المختصّ باللغة ويبيّن لنا ما اغترف منه في الجانب اللغوي وأنه لا يمكن استبدال كلمة بأخرى ولا تقديم ما أُخر، أو تأخير ما قُدّم، ويستخرج القواعد الكلية التي يبتني عليها علمه، كما يأتي عالم الطب ليبيّن من وجهة نظر الطب، ويأتي الفقيه ويبيّن من وجهة نظر التشريع، ويأتي المؤرّخ كذلك وينقل لنا وقائع التاريخ الصحيحة، فما المانع أن يأتي المُتدبر وينظر في معارف وعلوم القرآن من جهة ترتيب القصص داخل السّورة الواحدة ويستكشف منها مراحل أخلاقية، أو معرفيّة، أو

يستنبط منها العبر؟

وحيث لا أحد يستطيع أن يقول: هذه مواطن الاستفادة فقط، وإنما هي إضاءات توضح الطريق للقارئ والمتدبر بأن هذا القرآن كلام فنيّ دقيق، لا يشابهه حديث: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]. ومن هذا المنطلق لا يمنع أن ننظر في جهة ترتيب القصص التي اختارها ورتبها الله جلّ جلاله، أو نبيّه الأكرم ﷺ، وحيث لا خلاف في توقيفية الآيات والجمل داخل السّورة الواحدة^(١)، فإنّ ترتيب الآيات خير دليل على أنّ الترتيب القائم هو ترتيب توقيفيّ، إلّا إذا ثبت خلافه بدليل، نعم جمّع السّور وترتيبها بصورة مصحف بين دفتين قد وقع الخلاف فيه، كذهاب العلامة الطباطبائيّ رحمته الله إلى أنّ القرآن لم يكن مؤلفاً على عهد رسول الله ﷺ، وأكد أنّ ترتيب السّور على ما هو عليه الآن شيء حصل بفعل الصحابة وعن اجتهاد منهم^(٢)، بخلاف السيد المرتضى رحمته الله الذي قال: كان القرآن على عهده عليه وآله مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن، واستدلّ على ذلك: أنّ القرآن كان يُدرّس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان حتى عيّن جماعة من الصحابة في حفظهم له، وأنّه كان يعرض على النبيّ عليه وآله ويتلى عليه^(٣).

(١) انظر: المعرفة، محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن: ج ١، ص ٢٨٠.

(٢) انظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٢، ص ١٢٤.

(٣) انظر: المعرفة، محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن: ج ١، ص ٢٨٨.

والخلاصة: أن تأليف الآيات ضمن كل سورة على الترتيب الموجود، قد تحقق في الأكثر، إذن: فهي بأمر النبي ﷺ ومرتبّة بترتيب إلهي حكيم وهي: (أولاً- قصة أصحاب الكهف. ثانياً- قصة صاحب الجنتين. ثالثاً- قصة موسى والخضر عليه السلام. رابعاً- قصة ذي القرنين).

فلو أمعنا النظر وتدبرنا جيداً في هذا الترتيب، لرأينا أنه موحٍ إلى خريطةٍ وطريقٍ لمريدي السير والسلوك نحو الله تعالى، والتي لا بدّ للإنسان السالك من أن يتعرّف على الطريق الصحيح، ليوصله إلى معرفة ربّ الأرباب بإتقان التوحيد الإلهي، وكما هو معروف في أنّ معنى السير: «هو المشي بقطع الطريق. ومعنى السلوك: هو الدخول في المسلك المتبع، أو المنهج الموصل إلى الله سبحانه والسالك هو: السائر إلى الله، المتوسط بين المريد والمنتهي ما دام في السير»^(١).

وبما أنّ القرآن الكريم كتاب تربويٍّ يحمل قيماً سماوية وليس كتاباً قصصياً أدبياً فقط، بل هو منهج له انعكاس على واقع الحياة، ومنه نتعرّف على ذلك الطريق الموصل له سبحانه، وكيفية السلوك فيه، حيث تسمّى هذه الحركة، أو الطريق عند العرفاء بالسّفر وهو سفر معنوي ينطوي على حركة من المبدأ إلى المنتهى، وقد قسموه إلى أربعة أسفار^(٢): الأول: السفر من الخلق إلى الحقّ، - الثاني: السفر من الحقّ

(١) الكاشاني، عبد الرزاق بن جلال الدين، اصطلاحات الصوفية: ص ٨٠، بتصرف.

(٢) الشيرازي، ملا صدرا، محمد، الحكمة المتعالية: ج ١، ص ٣٩، (المقدمة).

إلى الحقّ، الثالث: السفر من الحقّ إلى الخلق، - الرابع: السفر من الخلق إلى الخلق.

فهذه المصطلحات مأخوذة من منهج ذكره الحكيم الإلهي والفيلسوف الربّاني صدرالدين الشيرازي رحمته الله في كتابه: (الأسفار الأربعة) تمثيلاً للمقامات الأربعة التي ذكرها العُرفاء للإنسان السالك إلى الله، ولكنّ الشيرازي أراد بها الأسفار العقلية لنيل الحكمة، حيث قال في مقدمة كتابه: «فرتبت كتابي هذا طبق حركاتهم في الأنوار والآثار، على أربعة أسفار، وسمّيته بالحكمة المتعالية، في الأسفار العقلية»^(١)، أمّا العُرفاء، فأرادوا منها السلوك العملي والترقيّ في درجات القرب منه تعالى، إلّا أنّهم قالوا: «إنّ السفر الرابع (من الخلق إلى الخلق) تكون وظيفة العارف فيه وهي مداراة الناس، وذلك من خلال إيصال الشريعة المقومة لحياة الإنسان والمنظمة لكل حركاته وسكناته في حياته، فالعارف هنا هو: صاحب نبوة التشريع، ومن الواضح أنّ هذه النبوة التشريعية ليست ثابتة لكل سالك وعارف وإنّما هي هبة إلهية، وسفارة ربانية، فهي محددة بقدر مُعيّن وقد أُغلقت دائرتها بنبوة الخاتم صلّى الله عليه وآله»^(٢). لذلك بقيت ثلاث أسفار ليقع كلامنا فيها إن شاء الله تعالى.

(١) المصدر السابق: ص ٤٤.

(٢) الخميني، روح الله، مصباح الهداية والولاية: ص ١٥٩، بتصرف.

الطريق الثاني: الغرض من نزول السورة

ما ذكر في سبب نزول سورة الكهف «أن قريشاً بعثوا مجموعة إلى قوم نجران ليتعلموا من اليهود والنصارى مسائل يسألونها رسول الله ﷺ» فعندما سألوا علمائهم قالوا: اسألوه عن ثلاث مسائل، فإن أجابكم فيها على ما عندنا فهو صادق... قالوا: ما هذه المسائل، قالوا: اسألوه عن فتية كانوا في الزمن الأول فخرجوا وغابوا وناموا كم بقوا في نومهم حتى انتبهوا؟ وكم كان عددهم؟ وأي شيء كان معهم من غيرهم؟ وما كانت قصتهم؟ واسألوه عن موسى حين أمره الله عز وجل أن يتبع العالم ويتعلم منه من هو؟ وكيف يتبعه؟ وما كانت قصته معه؟ واسألوه عن طائف طاف مغرب الشمس ومطلعها حتى بلغ سد يأجوج ومأجوج من هو؟ وكيف كانت قصته؟... فلما كان بعد أربعين يوماً نزل عليه جبرائيل بسورة الكهف»^(١).

ونحن نتساءل: أن عدد الأسئلة عن الحوادث التي أرادوا قريش معرفتها في الرواية ثلاثة، ولكن سورة الكهف تحوي أربع قصص!، ثلاث منها ذكرت في الرواية وواحدة (صاحب الجنتين) لم تذكر من ضمن أسئلة قريش لرسول الله ﷺ؟! وحتى في تتبع كلام علمائنا ولا سيما المعاصرين منهم نجد أنهم ذكروا ثلاث قصص في سورة الكهف رغم

(١) الفيض الكاشاني، محمد محسن، تفسير الصافي: ج ٣، ص ٢٣٢.

أنّها أربع! وقد يكون ذلك بتسليط الضوء منهم على تلك القصص موافق للرواية التي تمّ ذكرها، ففي تفسير الأمل لسورة الكهف: (الظريف أنّ السّورة تُشير إلى ثلاث قصص - قصّة أصحاب الكهف، قصّة موسى والخضر، قصّة ذي القرنين حيث أن هذه القصص بخلاف أغلب القصص القرآنية لم تكرر في مكان آخر من القرآن)^(١). وفي تفسير الميزان بنفس السّورة، قال: (وغير بعيد أن يُقال: أنّ الغرض من نزول السّورة ذكر القصص الثلاث العجيبة التي لم تذكر في القرآن الكريم إلّا في هذه السّورة وهي قصّة أصحاب الكهف وقصّة موسى وفتاه في مسيرهما إلى مجمع البحرين وقصّة ذي القرنين)^(٢).

ونحن ذكرنا أيضاً في الأطروحة الثانية: أنّ قصص سورة الكهف الأربع ثلاث منها: - وهي ما توافق القصص الثلاث في الرواية - فيها انتقال ظاهر من مكان إلى آخر والقصّة الوحيدة التي ليس فيها انتقال إيجابي هي: صاحب الجنتين.

والخلاصة: قد اتضح لنا أنّ الرواية ذكرت ثلاث قصص فقط، وكذلك ذكر علماءنا أيضاً ثلاث قصص، ونحن أيضاً سنأخذ القصص الثلاث للحوادث الثلاثة المذكورة في الرواية؛ ليقع كلامنا فيها إن شاء الله تعالى.

(١) الشيرازي، مكارم، الأمل في تفسير كتاب الله المنزل: ج ٧، ص ٤٤٧.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٣، ص ٢٣٣.

المحصلة من الطريقتين:

أصبح لدينا ثلاث قصص (أصحاب الكهف، موسى والخضر، ذو القرنين) وثلاثة أسفار: (من الخلق إلى الحق، من الحق إلى الحق، من الحق إلى الخلق)، وهذه الأسفار تعني السفر، أو السير من مرحلة إلى أخرى أكمل من الأولى حتى يصل العبد السالك إلى غايته وهو الحق سبحانه، وكما قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «كان ربي قبل القبل بلا قبل... فهو منتهى كل غاية»^(١).

السفر الأول: قصة أصحاب الكهف

أن معنى السفر الأول: (من الخلق إلى الحق): هو «سفر معنوي، أي: هو توجه القلب نحو الحق تعالى من المبدأ إلى المقصد، بمعنى: توجهه من منطلقه الأول، أي: من هذه النشأة المادية (من الخلق)، وفي هذه النشأة لم يكن الإنسان قد تعرّف فيها على الله تعالى إلّا بقدر ما يحمله من إرتكاز وفطرة، ولكن بين المبدأ إلى المقصد عوائق وموانع وحالات وترقيات لا بدّ للسالك من أن يدخل فيها، أو يترقى في مراحلها، كما هو الحال في السفر العادي الذي تقطع فيه مسافة وندخل فيه بالكثير من البلدان والمدن حتى نصل إلى مقصودنا، وقد تحصل مشقات ومجاهدات حتى يصل إلى مقام الفناء وهو عدم الالتفات والانشغال

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٩٠.

بالكثرة؛ لأنّ مبدأ هذا السفر هو هذه النشأة المادية وهي نشأة الكثرة لا الوحدة، أي: أنّ الوحدة محجوبة عن السالك بالكثرة بعالم المادة والطبيعة والآثار، أو الاحتجاب^(١)، وهو ما حصل تماماً مع الفتية الذين آمنوا بالله وقرّروا قطع كل العلائق التي تمنعهم من عبادة الله تعالى، وتركوا بيوتهم وأموالهم وأولادهم وكل ما يشغلهم، أو يمنعهم من الوصول إلى مقصدهم وهو توحيد الله عزّ وجلّ، فحصل لهم الفناء، وأصبح وجودهم حقّانياً^(٢) (إلى الحقّ)، حيث أنّهم أرادوا واختاروا الفناء بدل الرجوع إلى النقطة الأولى (من الخلق)، أي: من حيث أتوا، فكان هذا هو نهاية سفرهم وهو السفر الأوّل من الخلق إلى الحقّ.

السفر الثاني: قصة موسى والخضر عليهما السلام

وأما السفر الثاني (من الحقّ إلى الحقّ): «فيبدأ هذا السفر من نهاية السفر الأوّل، فيأخذ السالك من سفره موقف الكمالات واحداً بعد واحد، والغوص في أسماء الله تعالى وصفاته والتعرّف والتحقّق بها، أي التخلّق بأخلاق الله، حيث أنّ السالك يزداد تحقّقاً بالصفة كلما زاد فعله، فمثلاً ترسخ صفة الصدق في نفسه كلما صدق في حديثه، أو ترسخ صفة العلم

(١) انظر: الحسن، طلال، من الخلق إلى الحق، من أبحاث السيد كمال الحيدري: ص ٨١-٨٣، بتصرف.

(٢) معنى الفناء والوجود الحقاني: هو عدم الالتفات إلى الكثرة والانشغال التام بالوحدة. انظر: المصدر السابق.

فيه، وغيرها من أخلاق الله تعالى، ويسمى سيراً في صفات الله^(١)، وهذا ما يُستفاد من قصة موسى عليه السلام باتباعه للعالم العابد وما أراد أن يتعلم: ﴿هَلْ أَتَيْتَكَ عَلَىٰ أَنْ تَعْلَمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، وإرادته بالتزوّد والتحقق بأسماء الله وصفاته بأن يكون عالم بالعلم الحقيقي، ونستشف من هذا السفر في هذه القصة من أنّ السالك لا بدّ له من معلّم ومربٍّ، فهو يختلف عن السفرالأوّل لإرادة العبد واختياره بالسير والتوجّه للهدف. أمّا في السفر الثاني وما يحصل عليه السالك في سفره هذا، فلا بدّ من أن تؤخذ من أشخاص يُطمئنّ إليهم؛ ليكون بمثابة مرشد ومُعَلِّم له، يدفع عنه الوقوع في الزلل بالقول، أو العمل، ويأخذ بيده ويدخله في حصن حصين، وكل ذلك استفدناه من قصة موسى والخضر عليهما السلام وهي القصة الثانية.

السفر الثالث: قصة ذي القرنين

السفر الثالث (من الحقّ إلى الخلق): هو «بمعنى الرجوع إلى الخلق، أو إلى الكثرة، أي: الرجوع إلى عالم المادة والطبيعة، ولكنّه يعيش حال المعية الإلهية في كل سلوكياته، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله، ومعه، وبعده»^(٢). وبعبارة أخرى: أنّ السالك بعد

(١) انظر: المصدر نفسه: ص ١١٧، بتصرف.

(٢) الشيرازي، صدر الدين، محمد بن إبراهيم، شرح أصول الكافي: ج ١، ص ٢٥٠.

أن أفضى ذاته في صفات الله وأسمائه فيؤهله ذلك لإكمال ما وصل إليه من معرفة، فيحصل له حظ من النبوة ولكن لا يسمّى نبياً، وهذه هي نبوة الأنبياء وليس نبوة التشريع، وهي نبوة متاحة للجميع دون نبوة التشريع^(١)، وهذا ما يُستفاد من قصة ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤]، وما حصل عليه من معارف، وقوة استخدمها بنشر الخير بين الناس، ومساعدتهم، واختيار ما يصلح لهم ويدفع عنهم المكائد: ﴿قُلْنَا يَذَا الْقَرْيَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا * وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٦-٨٨].

الملخص:

١- سورة الكهف فيها أربع قصص، ثلاث منها ذكرت في الرواية التي حوت على ثلاث أسئلة، أو حوادث أرادت قریش معرفتها. والأسفار التي تمثل السلوك العملي، أو الترقّي في درجات القرب من الله تعالى أربعة، لكن السفر الرابع ثابت لصاحب السفارة الربانية، وقد ختمت بنبوة الخاتم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فأصبح الكلام في ثلاث قصص في سورة الكهف وثلاث

(١) أي: أنه عود رباني حقاني يؤدي من خلاله وظيفة إلهية سامية معنونة بالسفارة الربانية، حيث يبدأ بإيصال ما شاهده وعاینه في سفره، فيعرّف الآخرين بما تعرّف عليه، وهذه ما يصطلح عليه بنبوة الأنبياء لا نبوة التشريع. انظر: الحسن، طلال، من الخلق إلى الحق، من أبحاث السيد كمال الحيدري: ص ١٣، بتصرف.

أسفار في السير والسلوك العملي.

٢- من خلال التدبّر والتمعّن في ترتيب القصص داخل سورة الكهف نلاحظ أنّه (أي: الترتيب) موحٍ إلى خريطة لمريدي السير والسلوك إلى الله سبحانه.

٣- بما أنّ القرآن الكريم كتاب تربوي وهداية ومنهج له انعكاس على واقع الحياة، وفيه بيان لكل شيء بما فيها الطريق الموصّل إلى الله سبحانه بكافّة المستويات، أي: كما أنّ للمؤرّخ، أو اللغوي وغيرهم نصيب من نور القرآن وهدايته، كذلك للسالك إلى غايته وهو الحقّ سبحانه. فالكل يتزوّد من مائدة القرآن ولكن كلُّ بحسبه.

٤- تقسيم كل سفر حسب ترتيب القصص، أو ما يُستفاد من نفس القصة داخل السّورة.

فالسفر الأوّل: وهو من الخلق إلى الحقّ مستوحى من القصة الأولى وهي أصحاب الكهف.

والسفر الثاني: وهو من الحقّ إلى الحقّ مستوحى من القصة الثانية وهي قصة موسى عليه السلام والعبد الصالح.

والسفر الثالث: وهو من الحقّ إلى الخلق مستوحى من القصة الثالثة وهي قصة ذي القرنين.

وبقي لنا أن نبيّن هذه الأطروحة بشكل مخطّط توضيحي ليسهل على القارئ فهمها أكثر.

مخطط قصص سورة الكهف

قصة ذي القرنين

من الحق الى الخلق

بعضى الرجوع الى الخلق بعد ان افنى ذاته في الله (في السفر الاول) وتحقق باسماء الله وصفاته في السفر الثاني) رجع الى الخلق ليحقق السلوك بمراتب الاعمال ويحصل له الصحو التام ويبقى ببقاء الله ويسافر في عوالم الجبوت والمكوت والسموت

(حتى اذا بلغ مغرب الشمس ...)
(حتى اذا بلغ مطلع الشمس ...)
(حتى اذا بلغ بين السنين ...)

السفر الثالث من الحق الى الخلق

- 1- الثبات والداومة - إذ أن العمل القليل المستمر أفضل من العمل الكثير غير المستمر كما جاء عن البيهقي ع (احب الاعمال الى الله ما داوم عليه العبد وإن قل)
- 2- التووض بأبعاء ارشاد الخلق وتعليم الناس فن العالم والمرشد ان لم يكن في قلبه نورانية وصفاء ومحبة وتواضع فن يستطيع ذلك (ما معنى فيه ربي خيرا فاعينوني)

قصة موسى والغضر

من الحق الى الحق

بعد ان وصل السالك الى مرحلة القاء بيان لا ينفك لغير الله بل يرى افعال الخلاق هي افعال الله وصفات الخلاق تجليات لاسماء الله يستمر في التحقق باسماء الله وصفاته أي يحصل له الصفة الراسخة في النفس بعد ان انصف بها فمثلا صفة الكرم عليه ان يبدأ بفعل مقتضى هذه الصفة وهو اكرام الناس والوجود عليهم وإن كان بداية تكلف وضيق نفسي لكنه وبالاتسار يصدر منه الفعل من دون تروى وتكلف بل لا يستطيع ان يكون غير كريم

السفر الثاني من الحق الى الحق

- 1- صعوبة الخوض في هذا السفر من غير مصاحبة رجل نوراني قد خزر الطريق وعرف صعوباته فقد يوفق السالك في سفره هذا من مصاحبة رجل ماجد فيتعلم منه الاخلاق (هل التبعك على ان تعطيني ...) (لا اعصي لك امرا)
- 2- المراقبة - وهي عبارة عن تحصيل الانتفات والتوجه في جميع الأحوال لكي لا يتخلف عما عزم عليه (إن سألته فلا تصاحبني)

قصة اصحاب الكهف

من الخلق الى الحق

بعضى التخص من كل الشواغل والملهيات . أي ان السالك بعد ان كان ملتفتاً الى الكثرة (الكثير من الامور) وهذه الكثرة حجاب يمنعه من رؤية الوحدة . ومعنى الوحدة (القاء) هو عدم الانتفات

الى ذات الانسان وصفاته وافعاله وينتفت الى ذات الله وصفاته وافعاله

السفر الاول من الخلق الى الحق

- 1- الغم - بحيث لا يحتمل رجوعه من تحمل الضمائد واعمال المحاروف
- 2- الرقى والمدارة - لان النفس تنكسر وتزجر اذا حصلت فرق طاقها (و ينبتف ولا يشمن بكم احدا)
- 3- ترك العادات والمجاملات - ترك كل المعرفلات عن السفر وتمثل بداية من التوبة



المحور الثالث

فوائد تدبرية عامة في سورة الكهف

فوائد تدبّرية في عموم سورة الكهف^(١)

الجهة الأولى: فوائد عامة

- ١- خمسُ سُور في القرآن بدأت بـ (الحمد لله)، وهي: الفاتحة، الأنعام، الكهف سبأ، فاطر.
- ٢- من مقاصد السّورة، أنّها تقي الفتن، ولذا جاء في مضمون الحديث: «من قرأ سورة الكهف.. وفي فتنة الدّجال»^(٢).
- ٣- من خلال الترتيب للقصص نستشفُّ منها مراحل أخلاقية، وهي: (التخلّي، والتحلّي والتجلّي)، وأسفار معرفيّة وهي: (من الخلق إلى الحقّ، من الحقّ إلى الحقّ، من الحقّ إلى الخلق).
- ٤- سورة الكهف لا نهاية لمعانيها المستخرجة على امتداد الزمان

(١) هذه الفوائد مقتبسة ومستفادة من عدة مصادر مع التصرّف بانتقاء ما يُناسب منها، وإضافة ما وفقنا إليه من تأملات. والمصادر هي: ١- موقع طريق الإسلام، مقالة: تحت عنوان ١٠٠ فائدة تدبّر في سورة الكهف، ناصر بن سليمان العمر. ٢- موقع إسلاميات، مقالة: فوائد من آيات سورة الكهف، د. زيد عمر العيص. ٣- مدونة الصفطاوي، مقالة: ٩٩ فائدة في سورة الكهف، محمد السريع. ٤- تيسير الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي. ٥- العلامة الطباطبائي، تفسير الميزان، سورة الكهف. ٦- ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل، سورة الكهف. ٦- محمد جواد مغنية، تفسير الكاشف، سورة الكهف.

(٢) الكفعمي، إبراهيم بن علي، المصباح للكفعمي (جنة الأمان الواقية): ص ٤٤١ .

والمكان، كما هو في باقي سور وآيات القرآن الكريم، فيبقى الكهف مجهولاً إلا أن ندخل فيه، وفي نفس الوقت سيكون لنا حافظاً من الأخطار الخارجية.

٥- سورة الكهف تُبين للمؤمنين الوظيفة المنوطة بهم، والدور المطلوب منهم، كالذي قام به ذوالقرنين من منع الفساد، والزحف نحو المشارق والمغرب لإقامة العدل ونشر الخير، كما تقدّم سابقاً.

٦- سورة الكهف ويوم الجمعة، فقد جاء في الحديث: «سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة، غفر الله له إلى الجمعة الأخرى وزيادة ثلاثة أيام..»^(١)، فإنّ يوم الجمعة هو خير يوم طلعت فيه الشمس، وفيه بداية الخلق، وفيه تقوم الساعة^(٢)، ومن هنا قد تبين لنا وجه المناسبة بين اجتماع المؤمنين يوم الجمعة (صلاة الجمعة) ومن قرأ سورة الكهف في هذا اليوم العظيم.

٧- قراءة سورة الكهف في يوم الجمعة والتدبر فيها تعطي نوراً، فقد جاء في الحديث: «سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة... أُعطي نوراً يبلغ السماء»^(٣)، وأحد مصاديق النور هو العلم، كما قال الإمام

(١) المصدر السابق: ص ٤٤٢.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٨٦، ص ٢٨٤.

(٣) الكفعمي، إبراهيم بن علي، المصباح للكفعمي (جنة الأمان الواقية): ص ٤٤١.

الصادق (عليه السلام): «العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء»^(١)، ولعلّ معنى (يبلغ السماء) إشارة إلى شدة بصيرة المتدبر وكثرة علمه.

الجهة الثانية: فوائد في فواتح السورة وعلاقتها بما قبلها وبعدها

٨ - بعد كل (حمد) يذكر علة استحقاقه تعالى للحمد، فإنّ (أل) في (الحمد) للاستغراق، فكل المحامد له، فهو أحقّ أن يُعبد، وهو أحقّ أن يُحمد.

٩- هناك تناسب بين أوائل الكهف وأواخر الإسراء التي تأتي قبل سورة الكهف، فقد قال تعالى في آخر الإسراء: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبْرَهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]، وقال في بداية الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١ - ٢]، فكانت تكون هكذا: (وقل الحمد لله - الحمد لله)، يعني (فقل - فقال).

١٠- ذكر الكتاب في خواتيم الإسراء: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]، وفي فواتح الكهف قال تعالى: ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، فكانت تكون بالمعنى هكذا: (وبالحقّ أنزلناه وبالحقّ نزل ، ولم يجعل له عوجاً) يعني أكد نزوله من عند الله تعالى ولم يجعل له عوجاً.

(١) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المرید: ص ١٦٧.

١١- جاء في نهايات الإسراء قوله تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْنَاهُ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]. وفي بدايات الكهف قال تعالى: ﴿قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُونَهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾. إنذار وتبشير في أواخر السورة، وإنذار وتبشير في بدايات سورة تليها، فمن هو الذي يُنذر ويبشّر؟.

١٢- في خواتيم الإسراء قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]. وفي فواتح الكهف، قال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٤].

فيتّضح لنا: أنّ بعض آيات القرآن توضح آيات أخرى وتجعلها في سياقها، ففي خاتمة الإسراء يخاطب نبيه، بأن يحمده الله تعالى على أنه لم يتخذ ولداً، ثمّ في السورة التي تليها وهي الكهف أن يُنذر من يقول بذلك.

١٣- هناك تناسب بين أواخر الكهف وأوائل سورة مريم، ففي أواخر الكهف، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. وفي أوائل مريم وما فعله مع زكريا عندما طلب من ربه أن يهب له غلاماً:

﴿ذَكَرْ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ، نِدَاءً خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا *

بِرِثْنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا * يَذَكِّرْنَا إِذَا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ
 اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ
 وَكَانَتْ أُمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿ [مريم: ٢-٨]. أليس
 هذا من كلمات ربي؟، فهو من سمى عيسى (كلمة) كما فعله مع مريم،
 فالكلمات يعني قدرته التي لا تنتهي، أو من جهة كونه كلمة الإيجاد.
 بمعنى: كن^(١)، وكما قال جلّ جلاله: ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ
 يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴿ [آل عمران: ٤٥]، وكلها من
 كلمات الله سبحانه، وهو التناسب الذي ذكرناه بين نهايات وبدايات
 السورتين.

١٤- في بداية و وسط وآخر سورة الكهف رحمة: (رحم الفتية أصحاب
 الكهف، ورحم المساكين، وأصحاب السفينة، ورحم الأبوين، ورحم
 الغلامين، ورحم القوم الضعفاء من يأجوج ومأجوج) وفي بداية مريم
 رحمة عبد من عباد الله: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿ [مريم: ٢]،
 فتختم السورة بالرحمة وتفتح بالسورة التي تليها.

١٥- بدأت سورة الكهف بحفظ الكتاب: ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿ [الكهف:
 ١]، وفي نهايات السورة نفسها تأكيد لما جاء في مطلعها: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ
 مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿ [الكهف:

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ٣، ص ٢٢٣.

١٠٩]، وبالتالي حفظ الكتاب هو حفظ الدين، بل وحفظ المؤمنين أيضاً. ١٦- التوحيد والوحدانية لله عز وجل أبرز قضية في هذه السورة، وكما جاء في فواتحها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]، وفي خواتيمها تأكيد الكلام على لسان رسوله ﷺ أنه عبد وأنه يوحى إليه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، كما جاء في فواتح السورة أن الكتاب يُنذر الذين قالوا: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلِداً وفي خواتيمها: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

الجهة الثالثة: فوائد في قصة أصحاب الكهف

١٧- المحور الموضوعي لهذه القصة هو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر والقيم.

١٨- قصة أصحاب الكهف قصة عجيبة جليلة تدل على قدرة الله، وإرادته، وقيومته، فقد حوت هذه القصة كثيراً من العبر والدروس التي يحتاجها المؤمن.

١٩- قصة أصحاب الكهف تصنع للمؤمن كهفاً يعصمه من أشد الفتن في حياته، وأعظمها فتنة الدجال في الدين، وعليه أن يبحث عن ذلك الكهف العاصم.

٢٠- اشتهرت السورة بسورة الكهف وتسمى سورة أهل الكهف وأصحاب الكهف، ومرجعها جميعاً إلى أول قصة وردت فيها وجاءت تسميتها بسورة الكهف على لسان النبي ﷺ في أكثر من حديث منها: «سورة أصحاب الكهف من قرأها يوم الجمعة، غفر الله له إلى الجمعة»

الأخرى..»^(١).

٢١- في وصف أصحاب الكهف بالفتية ثناء عليهم بدلالة السياق، فعندما لم يصرفهم شبابهم عن عبادة الله تعالى، استحقوا الذكر، وكذلك أن إيمان الشباب يكون بشكلٍ اندفاعيٍّ قويٍّ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، ويصدعون بالحق أينما كانوا: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]، ويعلنون دعوة التوحيد بثبات: ﴿لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا﴾ [الكهف: ١٤]، وقد أُطلق (الفتى) على النبي إبراهيم عليه السلام عندما أعلن التوحيد وكسّر الأصنام: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]، ومعنى الفتى لغة: هو الرجل الشابّ والشجاع، وجمعه فتية وفتيان، وليس الفتى بمعنى الحدث، وإنما هو بمعنى الكامل من الرجال^(٢).

وبهذا يتّضح لنا أيضاً المراد من الفتى في قصة موسى عليه السلام في هذه السّورة: ﴿قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]، وحيث ورد أنه وصيّ موسى عليه السلام يوشع بن نون، وهذا خير دليل على قوة وعلم الوصيِّ وإلّا كيف يكون وصيّاً للنبي!

٢٢- لا بدّ لكل أمر تريد أن تدعو إليه أن تُقدّم دليلاً، أو برهاناً، وإلّا سقط في أوّل حوار: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥]، وإذا

(١) الكفعمي، إبراهيم بن علي، المصباح للكفعمي (جنة الأمان الواقية): ص ٤٤٢.

(٢) انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب: ج ١٥، ص ١٤٦.

لم يكن هناك حُجَّةٌ قويَّة، أو دليلٌ ساطع، فيبقى ما تريده ضعيف ولعلك لا تقنع به أحداً.

٢٣- يُعَلِّمُنَا اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَأَوَّأَ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦]، اعتزال الناس في حال وقوع الفتن، فقد يكون الاعتزال مرَّةً في الجبال، ومرَّةً في السواحل، ومرَّةً في البيوت، فقد وردَ عن الإمام الصادق عليه السلام: «... ثم إن قدرت أن لا تخرج من بيتك فافعل، فإنَّ عليك في خروجك أن لا تغتاب، ولا تكذب، ولا تحسد، ولا ترائي، ولا تتصنع، ولا تداهن، ثم قال: نعم صومعة المسلم بيته يكف به لسانه ونفسه وفرجه»^(١).

وقضية غار حراء دالَّة على هذا المطلب. ومرَّةً اعتزالاً معنوياً كما أوضحنا ذلك في الأطروحة الأولى من هذه السورة: ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِعِبَاٍ وَلَهْوًا وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وكذلك وردَ عن المعصومين عليهم السلام: «صاحب العزلة متحصنٌ بحصن الله متحرّس بحراسته. فيا طوبى لمن تفرّد به سرّاً وعلانية»^(٢)، وكما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

٢٤- من لجأ إلى الله حقّ الإلتجاء كان له ناصرٌ ومعينٌ، وأبدل حاله وشأنه من عسرٍ إلى يسرٍ: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِّن رَّحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٨، ص ١٢٨.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٢، ص ٥١.

مَرَفَقًا ﴿ [الكهف: ١٦].

٢٥- أن الفتية اجتمعوا وشكّلوا صحبة سالحة، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقد وردَ عن الإمام السجاد (عليه السلام): «جالسوا أهل الدين والمعرفة فإن لم تقدروا عليهم فالوحدة أنس وأسلم، وإن أبيتم إلا مجالسة الناس، فجالسوا أهل المروآت؛ فإنهم لا يرفثون في مجالسهم»^(١)، وعنه (عليه السلام): «مجالسة الصالحين داعية إلى الصلاح»^(٢).

٢٦- كما انتفع الكلب من مصاحبة الفتية وهو ليس منهم: ﴿سَبْعَةٌ وَقَامَ مِنْهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، فكذلك أهل الخير في زماننا هذا إن اصطحبوا معهم شخصاً طالب دنيا كما وردَ عن النبي ﷺ: «الدنيا جيفة وطالبيها كلاب»^(٣)، أو كالذي ذكره الله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. فينتفع حتماً إن صاحب أهل الخير وتشمله رحمة الله، وما أعظمها من رحمة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

٢٧- الأكل الحرام لا يكون زكياً: ﴿أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩]، وكما قال تعالى في موضع آخر من القرآن: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾

(١) النوري، حسين بن محمد تقي، مستدرک الوسائل و مستنبط المسائل، ج ٨، ص ٣٢٨.

(٢) ابن شعبه الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص ٣٨٩.

(٣) منسوب إلى الإمام جعفر بن محمد (عليه السلام)، مصباح الشريعة: ص ١٣٨.

[عبس: ٢٤]، فالكثير من الناس في زماننا هذا لا يتحرى الحلال، وهذا من أسباب شقاء الكثير، فانظر كيف كان الفتية حريصين على أن يقتنوا الأكل الحلال، وكما وردَ في الرواية عن النبي ﷺ: «إذا وقعت اللقمة من حرام في جوف العبد لعنه كل ملك في السموات والأرض»^(١).

٢٨- ارسلوا واحداً منهم فقط، ﴿فَاَبْعَثُوا أَحَدَكُمْ﴾ [الكهف: ١٩] ليشتري لهم الطعام الحلال الطيب الذي هو أنفع للجسم، وأرفع للروح، فالواحد أقدر على التخفي، ولا يتتبه له أحد، وهروبه يكون أسهل إن شعرت به عيون العدو، أو إن وقع في أيدي الظلمة، فهو فدائي واحد ولن تسقط المجموعة كلها، فسبحان الله على هذا الدرس المهم لتعلم كيف نختار الفرد المناسب للمهمة.

٢٩- مجيء ﴿وَلِيَتَلَطَّفْ﴾ [الكهف: ١٩] في منتصف القرآن، فالوسطية هي منهج القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهذه الوسطية تقتضي الكثير من التلطف، فسبحان الله اللطيف بعباده.

٣٠- إذا كان التلطف مع الأعداء مطلوباً لتحصيل منفعة دينية، وطبعاً المقصود هنا من التلطف هو اللين في الطلب، والتكلم بالمختصر المفيد، والحكمة في الحركات، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، فهو مطلوب مع

(١) الفتال النيشابوري، محمد بن أحمد، روضة الواعظين وبصيرة المتعظين: ج ٢، ص ٤٥٧.

المؤمنين من باب أولى.

٣١- الحياة لا تخلو من المشكلات، فلا بدّ للوصول إلى حلولها، من تَلَطَّف وهدوء وتأنٍ، وكلّما كَبُرَت المشكلة زادت الحاجة للهدوء والتروّي.

٣٢- الشورى، كان منهج الفتية التشاور فيما بينهم، وهو تربية قرآنية أخرى، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

٣٣- الدعاء، هو سلاح الفتية المؤمنة: ﴿رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةٌ وَهِيَ لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]، فالدعاء من أنفع الأدوية، وهو عدوّ البلاء، يدفعه ويعالجه ويمنع نزوله، ويرفعه، فهو سلاح المؤمن، وكما وردَ عن النبي ﷺ «الدعاء سلاح المؤمن»^(١)، وعن الإمام الصادق (عليه السلام): «الدعاء يردُّ القضاء وقد نزل من السماء وقد أبرم إبراهيماً»^(٢).

٣٤- إعلان الإيمان، ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤] أمام الناس في زمن الفتن، وقد أمدهم الله بالقوّة قبل ذلك: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤]، فهو تعالى من صَبَّرهم على هذا الإيمان؛ لأنّ أصل الربط هو الشدّ والتقوية، فإنّك عندما تشدّ شيئاً تقويّه، فالربط على القلب هو التقوية؛ فإنّ إعلان إيمانهم كان يمكن أن يؤدّي بحياتهم إلى الموت، وكذلك نجد في موضع آخر من القرآن

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٤٦٩.

الكريم عن الربط والتقوية نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَيَّ قَلْبُهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، فأصبح واضحاً من الآيات أن الله تعالى لا يترك العبد في الشدائد، بل يقويه ويصبره، وهذا من أطافه سبحانه على عباده.

٣٥- الحذر في كل حالات الحياة بحلاوتها، ومرارتها، وأمنها، وخوفها أمرٌ مطلوب، فالتخفي والكتمان من أنواع الحذر: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠]، كذلك يتكرر هذا الدرس في موضع آخر من القرآن مع مؤمن آل فرعون نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨].

٣٦- قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]. نستشف من هذه الآية ثلاثة مستويات:

الأول - قال قائلٌ منهم كَمْ لَبِئْتُمْ.

الثاني - قالوا لبئنا يوماً أو بعض يومٍ.

الثالث - قالوا ربُّكم أعلم بما لبِئتم.

لأن: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾، دليل على أن السائل واحد فقط، وأنه قد خاطب الباقيين، وهو أول من استشعر غرابة أمرهم فهو صاحب البصيرة بينهم،

وهو المستوى الأول.

و﴿قَالُوا لِبَشَائِرِ يَوْمِنَا أَوْ بَعْضِ يَوْمِنَا﴾، فأجابوا بالترديد بين يوم، أو بعض يوم، وهذا الجواب الأول، فهؤلاء قد نظروا إلى الأسباب بأنّ الذي ينام ليس أكثر من يوم، أو بعض يوم أي في الحالات الاعتيادية التي تحدث مع كل إنسان وهم المستوى الثاني.

و﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَكُمْ﴾، وهي المجموعة الثالثة، أي: هي غير الذين أجابوا بالأسباب يوماً، أو بعض يوم، فإنّ جوابهم كان رداً على القائلين: ﴿لِبَشَائِرِ يَوْمِنَا أَوْ بَعْضِ يَوْمِنَا﴾، فلو لم يكن رداً لقالوا: ربنا أعلم بما لبنا، لكنهم قالوا: ﴿رَبُّكُمْ﴾ فاتضح: أنّ القائلين: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَكُمْ﴾ غير القائلين: ﴿لِبَشَائِرِ يَوْمِنَا أَوْ بَعْضِ يَوْمِنَا﴾، وهم المستوى الثالث الذين أرجعوا العلم لله، لأنّ الحقيقة لا يعلمها إلّا الله وهذه من الآداب التي علّمها الله جلّ جلاله لنبيه كما في الآية: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٢].

٣٧- أدب وحقيقة قرآنية أخرى: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسَ لَكُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، و﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٢]. فهذا ليس لمجرد مراعاة حسن الأدب فحسب، بل هو لبيان حقيقة من حقائق معارف التوحيد وهي: أنّ العلم بالحقيقة كما هي، ليس إلا الله سبحانه المحيط بكل شيء، والشهيد على كل شيء.

٣٨- لبثوا في الكهف: ﴿ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]. والشمس تميل عنهم حين طلوعها: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَوُّرًا عَن

كَهْفِهِمْ ﴿ [الكهف: ١٧]، وتميل أخرى في غروبها: ﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ
تَقَرَّبُ إِلَيْهِمْ ﴾ [الكهف: ١٧]، فانظر إلى قدرة الله في حركة مخلوقاته.
٣٩- قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ آيَاتًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف: ١٨]، الأيقاظ
جمع يقظ ويقظان، واليقظة نقيض النوم^(١)، والرقود: جمع راقد وهو
النائم. والمعنى: أنك لو رأيتهم لحسبتهم متبھين ولكنهم نائمون
بالحقيقة، كما يحصل مع الكثير من الناس، فقد نتوهم بأنهم في حالة
اليقظة؛ لكنهم نائمون، فلا شك أنّ الإنسان المغمور بالمادة والماديات
غافل عن الآخرة كالنائم بالحقيقة.

٤٠- قال تعالى: ﴿ لَوْ أطلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ
رُعبًا ﴾ [الكهف: ١٨]. ألبسهم الله تعالى من الهيبة؛ لئلا يصل إليهم أحد
حتى يبلغ الكتاب أجله. وقيل: أن أظافرهم قد طالت وكذلك شعورهم،
فلذلك يأخذ الرعب منهم^(٢)، فسبحان الله الذي لم يطلع عليهم أحداً؛
لأنه قال: لو اطلعت، وسبحان الله من أسرار وعيوب لدى الكثير من
الناس لو اطلع عليها غيرهم لما نظر أحد في وجه الآخر، لكن الله تعالى
سترهم، كما ستر على أصحاب الكهف.

٤١- قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ ﴾ [الكهف: ٢٢]. المرء في أمر لا فائدة
فيه فلا حاجة إليه، فإنّ وقت المؤمن ثمين، فليس هناك فائدة من معرفة

(١) انظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين، لسان العرب: ج ٧، ص ٤٦٦.

(٢) الطبرسي، الفضل ابن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ٦، ص ٧٠٤.

أمور ثانوية بخصوص أسمائهم، أو اسم كليهم وما إلى ذلك، بل الفائدة تجدها في أفعالهم، وثباتهم على المبدأ، وفرارهم بدينهم ليحافظوا عليه، وأخوتهم في الله تعالى، فقد ذمّ المرء كما جاء عن النبي ﷺ: «لا تتعلموا العلم لتماروا به السفهاء، وتجادلوا به العلماء»^(١). وعنه عليه وآله: «ذرّوا المرء؛ فإنه لا تفهم حكمته ولا تؤمن فتنته»^(٢).

٤٢- قوله تعالى: ﴿سَبْعَةٌ وَقَامَنَهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]. فهذا هو القول الثالث، فالأول: ﴿ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾. والثاني: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ رجماً بالغيب، لكن هنا ذكر الله العدد ولم يُعقب بشيء ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾، وقد يدل على تزييف هذا القول، بعكس القول الثالث! وعندما نتأمل في محاورتهم بقول الله تعالى: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩]، فهو مُشعرٌ بأنّ عددهم لا يقل عن سبعة، فإنّ ﴿قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ هو سائل واحد، و﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ هم مجموعة وأقل الجمع يتحقق بثلاثة، و﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ﴾، هي مجموعة أخرى، كما أوضحنا ذلك في فقرة (٣٦) وأقلها ثلاثة أيضاً، فأصبح لدينا مجموعتان أقلها ستة و سائل واحد، فيكون المجموع سبعة، والله أعلم.

٤٣- تعليق الأمر بمشيئة الله: ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ * إِلَّا

(١) الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المريد: ص ١٣٥.

(٢) المصدر نفسه: ص ١٧٠.

أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿ [الكهف: ٢٣ - ٢٤]. فقد أمر الله نبيه ﷺ في هذه الآية أن لا يقول في أمر من الأمور إنني فاعل غداً كذا وكذا إلا أن يُعَلِّق الأمر بمشيئة الله تعالى، فعجبت وأنا أكتبُ في هذه الفوائد عندما سمعتُ من بعض الطلبة بأنَّ أستاذهم في إحدى المواد الدراسية، أمرهم أن لا يقولوا: إن شاء الله لكل شيء، وبرر لهم أن كل أعمالنا مرهونة بمشيئة الله تعالى، فلا داعي لذكر ذلك، فقد غفلَ أن في ذلك أدب قرآني، وما علمه الله تعالى لنبيه، حيث قال ﷺ: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»^(١)، فالألفاظ تدلُّ على المعاني، وهل هناك أعظم من التعلق بالله والخضوع لإرادته قولاً وفعلاً؟.

٤٤- قوله تعالى: ﴿وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]. نلاحظ: أن كلمة ازدادوا تعني: أنهم لبثوا في الأصل ثلاثمائة فقط، ثم حدث شيء جعلهم يزدادوا تسعة!، فلعلَّ الأصل في الثلاثمائة هو على التقويم الميلادي، وكما هو واضح أن القصة وقعت قبل الإسلام، فعندما هاجر رسول الله ﷺ وبدأ بالتقويم الهجري فالمدة زادت تسعة سنين، والله أعلم.

٤٥- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٢]. المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى؛ إما لقصوره في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم، أو ليس عنده ورع يمنعه، فما أكثر فتاوى

(١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ١٠٨، ص ٢٢٢.

التلفاز والفضائيات ممن لا يصلحوا للفتوى في زماننا هذا.

٤٦- قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]، لزوم الصحبة الصالحة يحتاج إلى تصبير النفس؛ لأنه قد يخالف الهوى فمن تصطفيه لصحبتك ينبغي أن يحمل خصلتين هما:

١- العمل الصالح: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ ٢- الإخلاص: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾. ومن كان يحمل هاتين الخصلتين، فجاء الأمر بملازمته: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾.

٤٧- قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. فلم يقل لسانه، بل قال: (قلبه)، فإننا قد نجد رجلاً دائم الذكر ولا نجد أثره في دينه وخلقه ومعاملاته، والسبب: أن ذكره بلسانه لا بقلبه.

الجهة الرابعة: فوائد في قصة صاحب الجنتين

٤٨- موضوع القصة، هو الشرك بالله تعالى، كما جاء في السورة: ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٣٨]. فالمشرك يقابل الموحد، والشرك: هو أن يرى في الوجود مؤثراً غير الله سبحانه^(١)، فإن عبد هذا الغير، سواء كان صنماً، أو كوكباً، أو إنساناً، أو شيطاناً، كان شرك عبادة، وإن لم

(١) النراقي، محمد مهدي: جامع السعادات: ص ١١٤.

يعبده، ولكن لاعتقاد كونه منشأ أثر طاعة فيما لا يرضي الله، فهو شرك طاعة.

والأول: (شرك العبادة)، يسمّى بالشرك الجلي. والثاني: (شرك الطاعة)، يسمّى بالشرك الخفي^(١).

وإنّ الشرك هو من أعظم الذنوب وأكبرها، كما قال تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

للشرك مراتب كما للتوحيد مراتب^(٢)، وهي:

١- الشرك في مقام الذات: وهو عبارة عن الاعتقاد بتعدد ذات ربّ الأرباب المقدسة، وعبادة الصنم شرك بالله.

٢- الشرك في مقام الصفات: وهو الاعتقاد بأنّ صفات الله الحقيقية الذاتية، مثل: الحياة، والقدرة، والعلم، والإرادة، ليست عين ذاته، بل زائدة عنه، وإنّ كل واحدة من هذه الصفات في غيره هي ليست من مواهبه، وإفاضته، فلو قال قائل في حالة مدح النفس: علمي، قدرتي، إرادتي، غنائي، فهمي، وغير ذلك بدون أن يقول: علمي الذي أعطاني إياه الله، وقدرتي التي أعطاني إياها الله، فهو شرك.

٣- الشرك في مقام الأفعال: وهو أن يعتقد أنّ المالك، والمدبر في

(١) المصدر نفسه.

(٢) الدستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة: ج ١، ص ٥٧.

جميع الأمور، أو جميع العوالم هو غير الله، أي لا اعتقاد له بأن لا حول ولا قوة إلا بالله المشتقة من كلمة لا إله إلا الله.

٤- الشرك في مقام الطاعة: هو من لا يعتقد بأن الخالق، والرازق، والمدبر، والمربي له وسائر المخلوقات واحد لا شريك له، فإنه لا يعتقد بالامتثال لأوامره والطاعة له سبحانه، ولا الطاعة لكل من عينه الله وأعطاه الولاية، وأمر الخلق بالرجوع إليه كالأنبياء وأئمة الهدى عليهم السلام.

٥- الشرك في مقام العبادة: أن رب العالمين دعا عباده للاقتراب من رحمته، والاستفادة من البركات العظيمة، ونيل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد، وكما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]. وهنا كل من لا يعبد الله فهو مُشرك، وكل من عبد الله وجعل له شريك (كالمرائي) فهو مشرك، وكذلك من انقاد إلى غير الله فقد جعله مُطاعاً شريكاً لله في الألوهية والربوبية، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰءَ آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

٤٩- قوله تعالى: ﴿مَّا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥]. من أنواع الشرك: هو الشرك في الاستعانة بالأسباب، أي: اعتبار الأسباب مستقلة في التأثير: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]. وتوضيح ذلك: أن الإنسان إذا أراد أن يتوصل إلى منفعة، أو ينجو من ضرر؛ فإنه يلتجئ إلى أسبابها، ويعتقد أن الأسباب هي التي أوصلته إلى مقصوده،

في حين أنّ الوصول إلى النفع والنجاة من الضرر هما من الله الوهاب بواسطة الأسباب، وكافة الأسباب مخلوقة منه: ﴿يَلَيِّنُنِي لِمَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] وأنّ ظهور تأثير هذه الأسباب متوقّف على مشيئة الله وإرادته.

٥٠- قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَظَلِمْ مَنَّهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]. دلت على أنّ النقص ظلّم، فلو أعددنا كلّ نقص وقع فينا ظلماً وأصلحناه لتغيّر حالنا.

٥١- قوله تعالى: ﴿حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الكهف: ٤٠]. الحسبان بمعنى: العذاب، فخصّ من السماء، لأنّ ما جاء من الأرض قد يُدافع، لكن ما نزل من السماء يصعب دفعه، أو يتعذّر.

٥٢- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ [الكهف: ٣٤]. فالإسلام مع الحوار البناء لا مع تضييع المفاهيم، أو تضليل الحقائق.

٥٣- قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ﴾ [الكهف: ٤٢]. هذه كناية عن الندم، فإنّ النادم كثيراً ما يُقلب كفيه ظهراً لبطن، فلا ينفعه شيء ﴿عَلَىٰ مَا أَنفَقَ﴾ بهلاك أمواله، لكن حين سقطت عروش جنّته، ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢]، سرعان ما ندم، وتذكّر، وقال: ﴿يَلَيِّنُنِي لِمَ أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] عكس الكثير من الناس اليوم يبتليه الله جلّ جلاله بأنواع البلاءات ولا يتذكّر، ولا يندم، وكأنّه لم يعمل شيئاً.

٥٤- قوله تعالى: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦]. فقد كان يستبعد تغيير الوضع الحالي بقيام الساعة، وهذه من تسويات النفس

التي اغترّب بها بحيث طال أمله وساء عمله واستبعد حصول المحذور.
 ٥٥- قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: ٤٢]. أصل الإحاطة: إدارة الحائط على الشيء، يقال: فلان محاطاً به، وقيل: هي الأرض المحاط التي عليها حائط، ومن المجاز: كل من بلغ أقصى الشيء، وأحصى علمه فقد أحاط به^(١).

وهنا أمران:

الأول: أنّ عقوبة الله عزّ وجلّ لهذا العبد كانت في محل شركه، أي: أنه أشرك بسبب جنّته لا بسبب صحته، أو غيرها، فأراد الله عجز من كان يتصوره بأنهم ينفعون (المال والولد) تأديباً له، وكما قال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ﴾ [الكهف: ٤٣].

والثاني: أنّ صاحبه المؤمن قد دعا عليه بأنواع العذاب: ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ ﴿فَنُصِّحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠] ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا﴾ ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٤١]. هذا ما كان يتمناه المؤمن بإنزال هذه العقوبات على من كان يحاوره وهو صاحبه المشرك، فهل استجاب الله جلّ جلاله لكل هذه الدعوات وهي إنزال الحسبان عليها من السماء، ومعناها: هلاك الجنّة بأكملها. ﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصِّحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾، أو عدم استسقاءها: ﴿أَوْ يُصْبِحَ

(١) الزبيدي، محب الدين، محمد، تاج العروس من جواهر القاموس: ج ١٠، ص ٢٢٦.

مَاؤَهَا غُورًا ﴿؟﴾

الجواب: قد أنزل الله تعالى العقوبة حسب ما يستحق ذلك العبد، أي: أن الله تعالى أنزل العقوبة بحسب استحقاق العبد لا بحسب ما تمنّاه الغير: ﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ [الكهف: ٤٢-٤٣]،

بمعنى آخر: أنزلت العقوبة في محل شركه، وهي: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾، و﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾، فوقعت في الثمر لا بكل الجنة، وفي نفس الوقت قد ظهر للذي أشرك عجز وفقر من كان يتصور أنهم ينصرونه.

٥٦- قوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]، الاستعلاء بالمال داءٌ وعاقبته وخيمة وصاحبه ما هو إلا جاهل مغرور، فقد وضح لنا القرآن الكريم في أكثر من موضع تقديم المال على غيره، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٦]، ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤]، ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [سبأ: ٣٥]، ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ: ٣٧].

فتقديم المال على البنين هو لرغبة الجميع فيه؛ لأنّ زينة المال أظهر من زينة الأولاد وأوضح للناس والمجتمع، فيمكن أن يفخر الإنسان بالمال ولا يفخر بأولاده، فقد يكونوا سيئين بحيث لا يُستحق أن يفخر بهم،

والمال هو الأكثر زينة من الأولاد، ولذلك قُدِّم المال على البنين: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥].

٥٧- قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٣٩].
أهميّة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمتجسّد بتقديم النصيحة، والتعليم للجاهل؛ لئلا ينتشر الظلم والجهل والأُميّة فتعمّ المنكرات كالجاهلية.

الجهة الخامسة: فوائد في قصة موسى والخضر عليه السلام

٥٨- قوله تعالى: ﴿لَا أَبْرِحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ [الكهف: ٦٠].
سعى موسى عليه السلام لِقَاء الخضر، لأنّ ما عنده من علم هو من الله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، فعلمه مُزكّي نافع في الدنيا والآخرة، فعلينا أن نفتش عن العلم الإلهي النافع ونطلبه من أهله.

٥٩- قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]. العلم اللدني: هو مصطلح قرآني، وقد استعمله العرفاء وأشاروا بذلك إلى أنّ العارف قد بلغ مراتب القرب من الله سبحانه، والانصراف إليه، وأنّ الله تعالى أطلعه على علم لم يطلع عليه آخرون. وبعبارة أخرى: أنّ هذا العلم من عند الله سبحانه، وليس من الكسب الشخصي، ويقال: لدني، أي: من لدن الله تعالى ^(١).

(١) طريق معرفة العلم اللدني هو: تفرغ القلب للتعلم و تصفية الباطن بتخليته من الرذائل وتخليته

٦٠- قوله تعالى: ﴿إِذْ أَوْينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٣].
فقد الحوت قد يكون أمراً مكروهاً ليوشع وصي موسى ﷺ، لكنه كان علامة للقاء العبد الصالح: ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ [الكهف: ٦٤]، فقد يكون فقدان شيء في ما يكره الإنسان خيراً كثيراً، فالإنسان لا يعلم والله يعلم، وكما قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٦١- قوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤]. على الإنسان أن يتذكر ويستعيد مسيرته المنحرفة عن الطريق الذي رُسم له؛ ليرجع إلى سواء السبيل ويثبت على الجادة المستقيمة: ﴿إِذْ أَوْينَا إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: ٦٣] ورجوعه يكون بنفس الطريق السالك به إلى الاستقامة حتى لا يضيع، أو يبتعد أكثر.

٦٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا أُنْسِنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ [الكهف: ٦٣]. الشيطان عدوٌ شديد حريص على صدّ الناس عن كل ما فيه خير لهم في الدنيا والآخرة.

٦٣- قوله تعالى: ﴿ءَاِئِنَّا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]. مشاركة الخادم، أو التلميذ، وغيرهم في الطعام والشراب من

بالفضائل ومتابعة الشرع وملازمة التقوى، كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٢٨٢]. انظر: الفيض الكاشاني، محمد محسن، الوافي: ج ١، ص ٩.

التواضع المطلوب.

٦٤- قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّمَا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٤]. على المرء أن يطلب الخير والفائدة ممن كان صغيراً، أو كبيراً، أو تلميذاً وغيرهم، فالحكمة ضالة المؤمن، فعليه أن يبحث عن العلم الذي يطلبه حتى عند الأصغر منه، أو الأقل منه شأنًا، فموسى عليه السلام أفضل من الخضر عليه السلام؛ لأنه أحد أنبياء أولي العزم، ومع ذلك صاحب الخضر عليه السلام وطلب الفائدة منه.

٦٥- قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ﴾ [الكهف: ٦٥]. التأدب مع المعلم وحسن خطابه ﴿هَلْ أَتَيْتُكَ﴾ على سبيل السؤال والمشاورة، لا كما يخاطب البعض معلّمه بـ (عرفت و فهمت).

٦٦- قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ [الكهف: ٦٥]. ما قال تعالى إنساناً، وإنّما قال (عبداً) فلعله يكون إشارة إلى عبودية الله تعالى، وهي أسمى وأعلى المراتب، ولذا عبّر الله تعالى عن نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله بالعبد، كما قال تعالى: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١].

٦٧- قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]. قد نعترض على الأمور الظاهرية في كثير من المفردات أو المعلومات ولا نصبر حتى نتثبت أو نعرف كامل الحقيقة ولو ابسها، وهو نوع من التسرع المذموم: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨].

٦٨- قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٦٩]. علو الهمة، وإصرار موسى عليه السلام على التعلّم بمصاحبة العبد العالم جعله يتعاهد معه،

لكنه علق الأمر بمشيئة الله تعالى.

٦٩- قوله تعالى: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩]. بدء المعاهدة من موسى عليه السلام مع الخضر عليه السلام، فقال له: سأكون تابعاً لك كأبيّ تابع، ثم ردّ عليه وقال: ﴿قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] أي: أنت من تريد أن تتبعني، وليس أنا من أريد ذلك، إذن: إن اتبعني فلا تسألني.

٧٠- قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ [الكهف: ٧٠]. قبول العبد الصالح صحبة موسى عليه السلام هو من أدب العلماء، فعلى العالم أن يخفض جناحه لطلابه، فلا يرى إلّا متواضعاً؛ ليستفيد منه طلابه، وإذا سئل عن علمه، أو أصبحت له مكانة وشهرة علمية، فيرجع الفضل إلى الله تعالى: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الكهف: ٨٢].

٧١- قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ [الكهف: ٧١]. من هنا يبدأ الدرس الأوّل: ﴿خَرَقَهَا﴾ [الكهف: ٧١]، قد يكون الخضر عليه السلام متخفياً لا يراه أحد عندما حرق السفينة، لأنهم لو شاهدوه وهو يُغرق السفينة لاعتراضوه ومنعوه من ذلك، فربّما نزل وحده إلى الأسفل وبدأ بخرق السفينة، كالذي حصل مع موسى عليه السلام ﴿قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]، فهذا تصوّر من موسى عليه السلام بأن أهلها سيغرقون، واللطيف في الأمر، أنه حصل هذا بمجرد أن ركبوها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الكهف: ٧١]، أي: لم تكن في وسط البحر، وربما لم تكن قد سارت أصلاً.

٧٢- قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٦٧]، هذه المرة الأولى فكأنه كان الكلام عاماً وليس موجهاً إلى موسى (عليه السلام)، إلا أنه في المرة الثانية عندما قال له: ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٧٢]، فردّ موسى (عليه السلام) قائلاً: ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ [الكهف: ٧٣]، فقد أُرهِقَ من تحمّل ما رآه من أحداث لا يصبر على مثلها في الظاهر.

٧٣- قوله تعالى: ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ [الكهف: ٧٤]، كان هذا هو الدرس الثاني من الخضر لموسى (عليه السلام)، فلم تُحدّد لنا السورة عُمر هذا الغلام، لكن من يُرهِقُ أبويه طغياناً وكفراً، فقد يكون بالغاً، أو قريباً من مرحلة البلوغ، أما إذا كان أصغر من ذلك، أي: بمرحلة الطفولة لا يطلق عليه غلام ولا يطلق من جرائها الإرهاق؛ لأنّ الطفل لم تتضح نواياه وتصوّراته بعد، والله أعلم. ﴿ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾.

٧٤- قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ [الكهف: ٧٤]. كان شيئاً عظيماً على موسى (عليه السلام)، فعندما أراد الخضر (عليه السلام) أن يُبَيِّنَ تأويل هذه القصة قد عَظَمَ نفسه (خَشِينَا)، لأنّ مسألة قتل النفس مسألة عظيمة.

٧٥- قوله تعالى: ﴿ إِنْ سَأَلْتَهُ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصْجِبْنِي ﴾ [الكهف: ٧٦]. موسى (عليه السلام) هو من أُلْزِمَ نفسه بهذا الأمر. ﴿ فَلَا تُصْجِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ [الكهف: ٧٦]. من لدني: أي من أعماقي كأنّ هذا الذي في قلبي، فلم يقل: بلغت من عندي.

٧٦- قوله تعالى: ﴿ فَأَنْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَنْبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ

يُضَيِّفُوهُمَا ﴿ [الكهف: ٧٧]، فمعنى: ﴿أَسْتَطْعَمَا﴾، أي: طلبا الطعام، تكشف لنا أنهم أرادوا استطعام ضيافة، ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾، فلم يفعل أهل هذه القرية ما كان يفعله العرب قديماً من الضيافة ونحوها، فقد يكون أهل هذه القرية بخلاء، أو أنهم كانوا لا يُراعون الضيافة حسب أعرافهم حينها، لذا قال موسى ﷺ: ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧].

٧٧- قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ﴾ [الكهف: ٧٧]، بين لنا أن الجدار قارب على الإنهيار ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾، فأقامه، أي: عدله؛ لأن الإقامة من التعديل، فاعترض موسى ﷺ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]، أي: كان يمكن لك أن تشأ وتأخذ أجراً، حينها ردَّ الخضر ﷺ وقال: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨].

٧٨- قوله تعالى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِمَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، كان يستطيع أن يقول: هذا فراق بيني وبينك وتنتهي القصة، لكنه أراد أن يُبين هذه الأمور الغيبية التي لم يسكت عليها موسى ﷺ. والجدير بالذكر: أن العبد الصالح بعد أن أخذ العهد من موسى ﷺ بالصبر، ولم يستطع ﷺ أن يصبر على ما رآه، قال: هذا فراق بيني وبينك، بينما نحن قد أخذ الله تعالى علينا الكثير من العهود، والمواثيق، ولا زلنا نخلف فيها ونعصيه، وبعد أن قلنا له مراراً وتكراراً: ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾، إلا أنه لم يقل لنا: هذا فراق بيني وبينك! فلم يحدث، ولن يحدث أبداً، فسبحانك ربنا ما أرحمك.

٧٩- قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]. كلمة مساكين دخلت عليها (لام) التملك، فالسفينة كانت ملكهم، أي: لم يكونوا فقراء، فمن هنا نعرف الفرق بين الفقراء والمساكين، فمعنى المسكنة: هي الذلة ولا ترتبط بمفهوم الفقر إطلاقاً. وأمّا الفقير: فهو من يتّصف بصفة واحدة وهي الضعف الاقتصادي، فقد يكون المقصود من المسكين هنا هو المسكين المعنوي^(١)، وكما نقرأ في الدعاء: «ووقفت سفينة المساكين على ساحل بحر جودك وكرمك يرجون الجواز على ساحة رحمتك ونعمتك»^(٢).

٨٠- قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]. هنا نسب الإرادة لنفسه، أي: ما قال: (فأردنا)، فلعله فيها معنى العيب، فلا مجال فيه للتعظيم، ولا يصحّ أن يُنسب العيب لله سبحانه على الرغم من أنه فعل ذلك من وحي ربه: ﴿وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِ﴾ [الكهف: ٨٢]. أمّا في قوله: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الكهف: ٨١] عظمَ فيها نفسه؛ لعظمة الحدث، لأنّ الله أعلمه بشأن هذا الغلام وفساده، وأمّا في قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] نسب الإرادة لله تعالى، ولم يقل: (فأردت، أو فأردنا)؛ لأنّ بلوغ الغلامين هو من عمل الله سبحانه، ولا يستطيع أن يدخل نفسه فيه، حتى لو عظم عليه السلام نفسه. ﴿يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا

(١) الصدر، محمد صادق، فقه الأخلاق: ص ٣٠.

(٢) القمي، عباس، مفاتيح الجنان: ص ٣٢٧-٣٢٨.

وَيَسْتَخْرِجَا ﴿ [الكهف: ٨٢]، فكل الأمر لله.

٨١- قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]، بينما في الآية قبلها قال: ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، لما فيها من شرح وإيضاح فجاءت تامة ﴿تَسْطِعُ﴾. أمّا هنا، فلأنّ فيها وقت مفارقة وابتعاد قال: ﴿تَسْطِعُ﴾ من غير تاء، فالزيادة في المبنى تدلّ على الزيادة في المعنى، ولو أنّنا تأملنا في الآية: ﴿فَمَا أَسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]، لاتّضح لنا هذا البيان؛ لأنّ إحداث النقب أشدّ من تسلّل السد؛ وذلك لاختلاف القدرة في الاستطاعة، فكأنّ الآية الأخيرة من قول العبد الصالح: ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ تدل على استطاعة موسى (عليه السلام) في الصبر قد نفذت.

الجهة السادسة: فوائد في قصة ذي القرنين

٨٢- موضوع القصة علوّه همّة المؤمن، فمن اجتهد حيث انتهت طاقته، ولم يفرط في شيء مما أوتي من أسباب فسيبلغ الهدف، وكما قيل: (من جدّ وجد).

٨٣- قوله تعالى: ﴿فَأَنْبَغَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥]، أخذ بتلك الأسباب، وعمل بها على وجهها، فالأخذ بالأسباب المشروعة مشروط بالرجوع إلى الدّين، واتباع الأسباب هو نوع من التوكّل على الله، أي: معناه اتّخذ الأسباب وتوكل، فمن أراد الثروة عليه أن يعمل، ومن أراد العلاج يذهب إلى الطبيب، ومن أراد الذريّة يتزوج، وذلك بشرط الاعتقاد أنّ الله هو المؤثر الحقيقي، وهو مسبّب هذه الأسباب، فإنّها تربية منه سبحانه علّم

بها البشرية لتعمل بالأسباب لا أن تتعاس، أو تتواكل بدل أن تتوكل،
وينتظرون السماء تمطر ذهباً وفضة ولا يعملون.

٨٤- قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٥]، في مثل
هذا الموقف نعرف أن العرب لم يتركوا شيئاً لم يسألوا عنه رسول
الله ﷺ، وكأنه قريب من قول أمير المؤمنين عليه السلام عندما قال: «سألوني
قبل أن تفقدوني»^(١)؛ لإيضاح أيّ مسألة لم تتضح، أو لأجل فائدة الناس.
٨٥- قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٩١]، أي:
أحاط خبراً بما لديه، فالإحاطة أن تحوط الشيء، أي: أن تجعل من
علمك دائرة تحوط بها وتطوقه. والخبر: هو المعرفة البالغة كما نقول هو
بذلك خبير.

٨٦- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الكهف:
٨٨]. أنّ ذا القرنين لم يقل: أنا سأجازيه؛ لأنّ الإيمان والعمل جزاؤه
الجنة من الله، ولكن قال: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨]،
كقوله: جازاك الله خيراً، أو بارك الله فيك وهو ليس بجزاء.

٨٧- قوله تعالى: ﴿قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا
تُكْرًا﴾ [الكهف: ٨٧]. الظالم ينبغي أن يُحاسب في الدنيا فيعذبه ويطاله
القانون، وكما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، ثم

(١) الصفار، محمد بن حسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم: ج ١، ص ٢٦٧.

يعاقبه الله سبحانه في الآخرة. وبعبارة أخرى: أنّ ذا القرنين ليس مكلفاً بجزاء المؤمن، ولكنّه مكلفٌ بعقاب الظالم. لا كما يحصل في أيامنا هذه، فالذي يعمل حسناً لا يُقال له: بارك الله فيك، ومن يظلم ويُفسد لا يُعاقب من السلطة، ولعلّه يُفسح له المجال أكثر من ذي قبل؛ لنشر الفساد.

٨٨- قوله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]. أنّه بحر الظلمات، فكلمة عين: معناها مجرى ماء، أي دائماً تجري ليلاً ونهاراً، وهذه العين كان لونها معتماً، فكأنّه: ﴿عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، والحمئة: معناها، وكما قال المفسرون: طين أسود ولكن قرأت (حامية) في بعض القراءات السبع، ومعناها: حارة، والمعنى على القراءتين أنّها تغرب في عين حارة ذات طين أسود، أي: ترائي له كأنّ الشمس تغرب في عين كمن كان في البحر رآها، كأنّها تغرب في الماء^(١).

٨٩- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠]، أي: سار نحو جهة المشرق حتى إذا بلغ الصحراء، لأنّ معنى: ﴿لَّمْ يَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ ما يستتر به من الشمس، (كالبناء واللباس)^(٢). وقد وردَ عن أميرالمؤمنين (عليه السلام): «أنّه ورد على قوم قد أحرقتهم الشمس وغيّرت أجسامهم وألوانهم حتى صيّرتهم

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٣، ص ٣٥٦.

(٢) المصدر نفسه: ج ١٣، ص ٣٥٨.

كالظلمة»^(١)، وكثير من الناس يطلقون العنان؛ لأنفسهم بفعل القبيح من دون مراعاة للحدود حتى لا يجدوا ما يسترون به فضائح أعمالهم.

٩٠- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٩٢]، فقد حصلت هذه بعد الحالة الأولى، أي: بعد أن ساق ذو القرنين (وهو صاحب القوة والعلم) حملة إلى مغرب الشمس، وأخرى إلى مطلع الشمس، وحملة إلى ما بين السدّين، أي: هذه الحملات تأتي واحدة تلو الأخرى بمدّة، ولهذا جاء استعمال (ثم) التي تفيد الترتيب، وبهذا ليعرف من يطوي المراحل سواء كانت أخلاقية، أو معرفيّة، أو حتى المراحل الدراسية والمعيشيّة وغيرها، فهي تحتاج إلى وقت من مرحلة إلى أخرى، وكذلك لا بدّ من الترتيب فيها ومراعاة التسلسل والتدرّج.

٩١- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ [الكهف: ٩٣]، السدّان: جبلان حاجزان لما وراءهما، والذي وراءهما هما (قوم يأجوج ومأجوج)، ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣]، فمن الممكن أنهم كانوا لا يعرفون إلّا كلامهم، أو أنّ أذهانهم وأفكارهم لا تفقه الدّين، والتعبير بالقول عن الدّين وارد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]. ودليل أنهم مفسدون قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٩٤].

(١) العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي: ج ٢، ص ٣٤٢.

٩٢- لعلّ فهم ذي القرنين لهم هو من الأسباب التي يسرّها الله تعالى له.

٩٣- يأجوج ومأجوج أمّتان من بني آدم مفسدتان في الأرض من قديم الزمان، كذلك يخرجون قبل قيام الساعة، فقد اختلف في وصف يأجوج ومأجوج، فروي: «أنّهم من الترك ومن ولد يافث بن نوح كانوا يفسدون في الأرض فضرّب السدّ دونهم». وروي: «أنّهم من ولد آدم. وفي عدة من الروايات أنّهم قوم ولود ولا يموت واحد منهم (أي يتكاثرون ونسبة الموت قليلة) من ذكر، أو أنثى حتى يولد له ألف من الأولاد، وأنّهم أكثر عدد من سائر البشر حتى عُدّوا في بعض الروايات تسعة أضعاف البشر». وروي: «أنّهم من الشدة والبأس بحيث لا يمرّون ببهيمة، أو سبع، أو إنسان إلّا افترسوه وأكلوه ولا على زرع، أو شجر إلّا رعوه ولا على ماء نهر إلّا شربوه ونشّفوه». وروي: «أنّهم أمّتان كل منهما أربعمئة أمة لا يحصي عددهم إلّا الله سبحانه»^(١). فتأمّل بامتداد تلك الأقوام المفسدة، أو بأقرب المصاديق المتشابهة لها في أيامنا هذه.

٩٤- قوله تعالى: ﴿بَجَعَلْ لَكَ خَرَجًا﴾ [الكهف: ٩٤]، أي: نجعل لك أجراً ومالاً لتبني لنا سداً يحول بيننا وبينهم، لكنّه قال: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي﴾ [الكهف: ٩٥]، فالمؤمن يعلم أنّ عطاء الله له خير مما يناله من الناس مهما عظم، فلا ينبغي للمؤمن الذي مكّنه الله تعالى أن يجعل

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١٣، ص ٣٧٢.

فترة عمله فرصة لجمع المال ونهب الثروات، كما يحصل في زمننا هذا.
 ٩٥- قوله تعالى: ﴿أَتُونِي زُبْرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦]، أي: قَطَعَ الحديد،
 ﴿أَفْرَغَ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾. القطر: هو النحاس، أو الصفر المذاب^(١) ليكون
 أشدَّ. ﴿قَالَ أَنْفُخُوا﴾ [الكهف: ٩٦]، أي: أَجَّجُوا النار فلما اشتعلت النار
 صَبَّ عليه قِطْرًا، وكأنَّما أصبحت الفائدة من هذا الدرس في بناء القصور
 فقط؛ لتحمي من بداخلها من الرؤساء والزعماء ومن لَفَّ لَفَّهُم، وأمَّا
 الفقير، والمؤسسات المدنية، أو المستشفيات العامَّة، أو المدارس
 وغيرها، تجدها هشَّة غير معتنى فيها، فقد تسقط على رؤوس من فيها
 في أيِّ لحظة.

٩٦- قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾
 [الكهف: ٩٧]. زيادة التاء في فعل (استطاع) كما قلنا تفيد الزيادة في
 المعنى، وبعبارة أخرى: الصعود على السدِّ أهون من إحداث نقب فيه،
 لأنَّ السدَّ قد صنعه ذو القرنين من زبر الحديد والنحاس المذاب، لذا
 جاء في القرآن (استطاعوا) للصعود على السدِّ و(واستطاعوا) للنقب.
 ٩٧- قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٨]. هكذا المسؤول
 الصالح إذا مَنَّ اللهُ عليه بالإنجاز أسنده إلى ربه ومولاه دون تصنُّع
 البطولات.

(١) المصدر نفسه: ص ٣٦٠.

٩٨- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]. دكّاء: أي مهدوم، والكلام هنا عن السدّ الذي صنعه ذو القرنين، فجعله دكّاء؛ يعني جعله مستويّاً في الأرض، وهنا أمران:

الأوّل: إن كان المقصود بوعده الله هو يوم القيامة، فدكّ السدّ طبيعياً كما تدكّ الجبال، وكما قال تعالى في مواضع كثيرة من القرآن لبيان أهوال يوم القيامة، منها: قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّنَاذَكَةً وَنَجْدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٤ - ١٥ - ١٦].

وأما الثاني: إذا كان الوعد الإلهي هو الوعد بظهور منقذ البشرية المتمثل بإمام الزمان عليه السلام، فسيكون دكّ السدّ وظهور يأجوج ومأجوج قبل الظهور، كما ورد أيضاً في الروايات بأنّ تلك الأقوام تخرج قبل قيام الساعة^(١).

٩٩- قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]. العبادة والعمل على بصيرة لا بالأهواء، فإنّ كل خسارة في الدنيا ممكن أن تعوّض، أو يزول ضررها، أمّا إذا أتت القيامة وقد كتبه الله من الخاسرين فكيف له التعويض؟!
وبعبارة أخرى: يعمل المرء ويكدح ثمّ تكون عاقبته إلى النار. ربي لا تجعلنا ممن زين له سوء عمله وهو يحسب أنّه يحسن صنْعاً.

(١) الفتال، النيشابوري، محمد بن أحمد، روضة الواعظين وبصيرة المتعطين: ج ٢، ص ٢٨٤.

١٠٠- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]. قد يؤتى بالرجل العظيم الذي ملأ الدنيا ضجيجاً (ملاً وإعلاماً ورياسةً) فلا يُقام له يوم القيامة وزناً، ويؤتى بالرجل الفقير الضعيف، فقد يكون أثقل في الميزان من جبل أحد لإيمانه وتقواه.

١٠١- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، فلو تأملنا جيداً في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠] لا تُضح للجميع ما ينبغي عليهم من التأسي برسول الله ﷺ في الجلوس والقيام، والأكل، والمشي، وكما صرحت بذلك الآيات ووردت به الروايات الشريفة: «علم الله نبيه التواضع لئلا يزهي على خلقه فأمره أن يقرّ على نفسه بأنه آدمي كغيره إلا أنه أكرم بالوحي»^(١)، فعلى المرء أن يرى نفسه متساوياً مع الجميع وليس له التكبر والامتياز عن الآخرين، وكذلك ليس للإنسان حقاً أن يرى نفسه أفضل من الآخرين.

(١) الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن: ج ٦، ص ٣٠٢.



المبحث الثاني

التكبير التطبقي في سورة يوسف





المحور الأوّل

سورة يوسف ومعاني مفرداتها

سورة يوسف ومعاني مفرداتها

تقدّم الكلام في أنّ معرفة معاني المفردات القرآنية يكون مقدّمة للتدبّر والغور في مضامين الآيات، وذلك بالرجوع لكتب التفسير لمعرفة معاني تلك المفردات^(١)، لذلك قدّمناها للقارئ العزيز لنسهّل عليه عملية التدبّر في القرآن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَبْنَئُ لَا نَقُصُّ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا^(٢) إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ^(٣) رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ^(٤) وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

(١) الهويدي، محمد، التفسير المعين: ص ٢٣٥.

(٢) يتالون في هلاكك.

(٣) يصطفيك ربك ويختارك للنبوة.

(٤) تعبير الرؤيا وتفسيرها.

وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾
 ﴿٧﴾ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِفِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ
 أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴿٨﴾ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ أَقُولُوا لِيُوسُفُ أَوْ
 أَطْرَحُوهُ أَرْضًا ﴿٩﴾ يَخُلُ لَكُمْ ﴿٩﴾ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ
 قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقُولُوا لِيُوسُفَ وَالْقَوْهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ ﴿١٠﴾ يَلْنَقُطُهُ ﴿١٠﴾ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ﴿١٠﴾ إِنْ
 كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴿١١﴾
 أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ ﴿١٢﴾ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنَّ
 تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا لَيْنَ
 أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ

(١) دلائل وعبر.

(٢) لمن سأل عن قصتهم.

(٣) جماعة.

(٤) ألقوه في أرض بعيدة عن العمران وعن أبيه.

(٥) يخلص لكم في رعايته.

(٦) في قعر البئر.

(٧) يتناولوه.

(٨) مارة الطرق والمسافرين.

(٩) أي: المخلصون في إفادة الخير لهم.

(١٠) يتنعم ويأكل.

(١١) جماعة.

وَأَجْمَعُوا^(١) أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ^(١٥) وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ^(١٦) قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَقِ^(٢)
وَتَرَكْنَا يُوْسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا
صَادِقِينَ^(١٧) وَجَاءَ وَعَلَى قَيْصِيهِ يَدْمِرُ كَذِبٍ^(٣) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ^(٤) لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ^(١٨) وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ^(٥) فَأَرْسَلُوا وَرُدَّهُمْ^(٥)
فَادَّلَى^(٦) دَلْوَهُ^(٧) قَالَ يَبْنَشْرَى^(٨) هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْعَةً^(٩) وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ
وَشَرُّهُ بِشْمِنٍ^(١٠) بَحْسٍ^(١١) دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ^(١٢)
وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ^(١٣) عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ
نَنْجُوهُ^(١٤) وَلَدَا^(١٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ^(١٦) فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ^(١٧) مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ^(١٨) وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ^(١٩) وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٢٠) وَلَمَّا

(١) عزموا .

(٢) يسابق بعضهم بعضاً .

(٣) زينت - والتسويل تزيين النفس ما ليس بحسن .

(٤) مارة الطريق أو مسافروه .

(٥) الذي يرد الماء ليستسقي منه .

(٦) أرسلها في البئر ليملاًها فتعلق بها يوسف .

(٧) أخفوه متاعاً للتجارة عن سائر الرفقة .

(٨) باعوه بثمان زهيد قليل .

(٩) أكرمي مقامه عندنا .

(١٠) جعلنا له قوة ومكانة .

بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَوَدَتْهُ^(١) الَّتِي هُوَ فِي
بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ^(٢) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ^(٣) إِنَّهُ رَبِّي
أَحْسَنُ مَنَآئِي إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^(٤) وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ
رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ^(٥) ﴿٢٤﴾ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ^(٦) وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ ۖ مِن دُبُرٍ^(٧) وَأَلْفَا سَيِّدَهَا^(٨) ﴿٢٥﴾ قَالَ
لَهَا الْبَابُ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ
هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي ۖ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ ۖ قَدْ مِّنْ
قَبْلِ^(٩) فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ ۖ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ ۖ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ^(١٠) إِنْ كَيْدَكُنَّ

(١) طلبت زليخا منه الواقعة.

(٢) اقبل وبادر.

(٣) اعتصم بالله.

(٤) عزمت على الفعل (الجماع).

(٥) مال طبعه إليها لا القصد الاختياري.

(٦) لولا النبوة المانعة أو أن أقدم قتلوه أهلها.

(٧) أي: تسابقا إليه.

(٨) انشق قميصه من الخلف.

(٩) وجددا زوجها.

(١٠) انشق من أمام.

أَعَصِرْ خَمْرًا^(١) وَقَالَ الْآخِرُ إِنِّي أَرِنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبَثَنَا
 بِتَأْوِيلِهِ^(٢) إِنَّا نَزَبْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ^(٣٦) قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا
 بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
 وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ^(٣٧) وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا
 كَانَتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ^(٣٨) يَصْحَجِي السِّجْنِ أَرْبَابٌ^(٣) مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ
 اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ^(٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ
 وَءَابَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
 ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ^(٤) وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ^(٤٠) يَصْحَجِي السِّجْنِ أَمَّا
 أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ^(٥) خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ
 الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ^(٤١) وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ
 رَبِّكَ^(٦) فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ^(٧) فِي السِّجْنِ بِضْعَ

(١) أعصر عبأ (سماه بما يؤول إليه).

(٢) أي: أخبرنا بتعبيره وما يؤول إليه أمره.

(٣) جمع رب، أي: إله.

(٤) الدين المستقيم.

(٥) يسقي سيده المنعم عليه.

(٦) عند سيدك بأني حبست ظلماً.

(٧) فمكث.

سَيْنِينَ^(١) ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ^(٢) وَسَبْعٌ سُنبَلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا بِنْتُ آلِ الْمَلَأِ^(٣) أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَثٌ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ^(٤) أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبَلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا^(٥) فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ^(٦) فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ^(٧) يَا كُلُّنَا مَا قَدَّمْتُمْ لِهَذَا إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ^(٨) ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ^(٩) وَفِيهِ يَعْصَرُونَ^(١٠) ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ

(١) البضع بين الثلاثة والعشرة.

(٢) مهازيل.

(٣) أشرف القوم.

(٤) بعد مدة من الزمن.

(٥) أي: على عاداتكم

(٦) فاتركوه.

(٧) أي: سبع سنين مجذبات صعاب تشتد على الناس.

(٨) مما تحززون وتدخرون.

(٩) يمطرون من الغيث أو ينقذون من الغوث.

(١٠) ما يعصر من الشار والزروع.

قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَأْسُ النِّسْوَةِ ^(١) الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ^(٥٠) قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ^(٢) مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتُ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَن حَصْحَصَ ^(٣) الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ^(٤) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ^(٥) وَمَا أُبْرِي نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(٦) وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ ^(٧) أَمِينٌ ^(٨) قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ ^(٩) عَلِيمٌ ^(١٠) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ ^(١١) مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ^(١٢) وَلَا جُرْأِخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ ^(١٣) وَجَاءَ إِخْوَتُهُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ^(١٤) وَلَمَّا جَهَّزَهُم

(١) ما حالهن وما شأنهن.

(٢) ما أمركن وما شأنكن.

(٣) تنزيهاً له.

(٤) ظهر واتضح.

(٥) ذو مكانة ومنزلة وأمر نافذ.

(٦) احفظها على أن تجري فيها خيانة.

(٧) بوجه التصرف.

(٨) جعلناه متمكناً من التصرف في أرض مصر.

(٩) ينزل.

(١٠) جاهلون به لا يعرفونه.

بِحَهَارِهِمْ^(١) قَالَ أَتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ^(٢)
 ٥٩ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ^(٣) قَالُوا سَتَرِدُ عَنْهُ أَبَاهُ
 وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ^(٤) وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ اجْعَلُوا بَضْعَنَّهُمْ فِي رِحَالِهِمْ^(٥) لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا
 انْقَلَبُوا^(٦) إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ^(٧) فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ
 مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا^(٨) نَكْتَلُ^(٩) وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ^(١٠) قَالَ هَلْ
 ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمَنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
 الرَّحِيمِينَ^(١١) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ^(١٢) وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ^(١٣) قَالُوا يَا أَبَانَا
 مَا نَبغِي^(١٤) هَذِهِ، بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا^(١٥) وَنَحْفُظُ آخَانًا وَنَزْدَادُ كَيْلَ
 بَعِيرٍ^(١٦) ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ^(١٧) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ، مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ
 لَتَأْتُنَّنِي بِهِ^(١٨) إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ^(١٩) فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ^(٢٠)

(١) أي: حمل لكل واحد.

(٢) أفضل من يحسن الضيافة.

(٣) جمع رحل وهو ما يوضع على ظهر الدابة.

(٤) رجعوا.

(٥) بنيامين.

(٦) أي: نأخذ الطعام بالكيل.

(٧) يعني: أوعية الطعام.

(٨) أي: ما نطلب.

(٩) نجلب لهم الميرة، وهي: الطعام الذي يحمل من بلد إلى بلد.

(١٠) يحيط بكم عدوكم فيهلككم.

وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ
 مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾
 وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
 حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ
 لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴿٦٩﴾ قَالَ إِنِّي أَنَا
 أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ
 السِّقَايَةَ ﴿٧٠﴾ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ﴿٧٠﴾ ثُمَّ أَدَّانَ مُؤَدِّنٌ ﴿٧١﴾ أَيَّتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسْرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا
 وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعًا الْمَلِكِ ﴿٧١﴾ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ
 حِمْلٌ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي
 الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ ﴿٧٣﴾ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا
 جَزَاؤُهُ مَنْ أُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴿٧٤﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ

(١) أي: وما أَدْفَعُ.

(٢) ضم إليه أخاه من أمه وأبيه، وهو بنيامين.

(٣) فلا تحزن.

(٤) أثناء للشرب من ذهب جعل صاعاً للكيل.

(٥) في متاعه.

(٦) نادى نادياً.

(٧) صاعه وهو السقاية.

(٨) كفيل ضامن.

(٩) أي: جزاء السارق الاسترقاق، فيكون عبداً وهي شريعة يعقوب.

بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ (١) مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا (٢) يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ (٣) قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا (٤) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ (٥) إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ (٦) أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ (٧) إِنَّا إِذَا لَطَمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا (٨) مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا (٩) قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ (١٠) فَلَنْ أْبْرَحَ الْأَرْضَ (١١) حَتَّى يَأْتِيَ لِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيْبُكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلِ

(١) دبرنا ليوسف تدبيراً خفياً في أخذ أخيه.

(٢) فأخفاها.

(٣) أي: لم يظهرها.

(٤) أي: شر منزله.

(٥) أي: نعوذ به معاذاً.

(٦) يأسوا.

(٧) انفردوا متناجين متشاورين يسر بعضهم بعضاً.

(٨) أي قصرتم في أمره.

(٩) لن أفارق أرض مصر.

الْقَرِيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَى عَلَى يُونُسَ وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴿٣﴾ قَالُوا تَأَلَّه تَقْتُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ ﴿٣﴾ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا ﴿٤﴾ أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي ﴿٥﴾ وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا ﴿٦﴾ مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴿٨﴾ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَنَةٍ ﴿٩﴾ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُونُسَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَعْنَاكَ لَأَنْتَ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُونُسَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ

(١) زينت وسهلت.

(٢) بمعنى الكاظم وهو المملوء غيظاً.

(٣) أي: ما تزال تذكره.

(٤) مريضاً مشرفاً على الموت.

(٥) عظيم الحزن الذي لا يصبر عليه حتى يبيت إلى الناس.

(٦) تفحصوا واستخبروا من يوسف.

(٧) رحمته.

(٨) الجوع والحاجة.

(٩) رديئة.

عَيْنًا إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا
تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكِ ۗ ﴿٩١﴾ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا
تَثْرِبَ ۗ ﴿٩٢﴾ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾
أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ ۗ ﴿٩٣﴾ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ
تَفَنِّدُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ۗ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ ۗ ﴿٩٥﴾
أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ ۗ ﴿٩٦﴾ فَازْتَدَّ بَصِيرًا ۗ ﴿٩٦﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا بَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۗ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَى
إِلَيْهِ أَبُوئِهِ ۗ ﴿٩٩﴾ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبُوئِهِ عَلَى

(١) فضلك واختارك.

(٢) أي: لا عيب ولا تعبير ولا تأنيب.

(٣) أي: لما انفصلت القافلة عن أرض مصر متوجهة إلى الشام.

(٤) أي: لفي ذهابك القديم عن الصواب.

(٥) وهو يهوذا إبنة.

(٦) ألقى قميص يوسف على وجهه.

(٧) ضم إليه أباه وأمه.

الْعَرْشِ^(١) وَخَرُّوْا لَهُ سُجَّدًا^(٢) وَقَالَ يَتَأْتِبِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ^(٣) مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ^(٤) الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي^(٥) إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ^(٦) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ^(٧) وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ^(٨) لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ^(٨) فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ

(١) سرير ملكه.

(٢) تكريماً وتعظيماً لا سجود عبادة.

(٣) من البادية.

(٤) أفسد بيني وبينهم.

(٥) خالفها ومبدهما.

(٦) عزموا على إلقائه في البئر.

(٧) إلا موعظة وعبرة.

(٨) كم من حجة ودلالة.

بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ ۗ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ
 بَغْتَةً ۗ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ۗ أَنَا
 وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا
 رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ۗ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
 كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۗ وَلِدَارُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾
 حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ ۙ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِيَ مَنْ
 دَشَاءُ ۗ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ۗ لِأُولِي
 الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ
 كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴿١١١﴾

صدق الله العلي العظيم

(١) عقوبة تغشاهم وتحيط بهم.

(٢) فجأة من غير سابقة علامة.

(٣) على يقين ومعرفة وحجة واضحة.

(٤) يأسوا من النصر.

(٥) موعظة.



المحور الثاني

الأطروحات في سورة يوسف

الأطروحة الأولى في سورة يوسف ﷺ

مقام التائبين وأحوال الواصلين مُستوحى من قصة السيدة زليخا وما وصلت إليه، ولأجل التوصل لتلك المقامات علينا أن نتدبّر في آيات القصة. وقبل بدء التدبّر في الآيات القرآنية نوضّح سبب اختيارنا لقصة السيدة زليخا:

سبب اختيارنا لقصة السيدة زليخا

قد سلّطنا الضوء على درس من دروس هذه السّورة (سورة يوسف) التي قال تعالى عنها: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: ٣]. وهذا الدرس (قصة زليخا) يحمل أسمى دروس الحياة من المصير الذي انتهت إليه. وسبب اختيارنا لقصتها يقع من عدة جهات:

الجهة الأولى: أنّ جميع المفسرين قد سلّطوا الضوء على قصة النبيّ يوسف ﷺ وآل يعقوب ﷺ، من قبيل الرؤيا وتفسيرها، أو حكومته ودعوته ﷺ إلى التوحيد، فأغلب ما كُتب فيها هو لبيان حياة النبيّ ﷺ، وهي بلا شك أنموذج خاص بحدّ ذاته، ولكن لم يذكر المفسرون بشكل دقيق أو عميق شيئاً عن مدى صبر السيدة زليخا وطّيها لمراحل تكاملية، أو وصولها إلى حُسن العاقبة، كمثال التي عُرفت لبعض من خلّدهم التاريخ وحكى لنا قصصهم من التوبة وحُسن الخاتمة أمثال بشر الحافي، وبهلول النَّبَّاش، وأبو لبابة، ورابعة العدوية، وغيرهم، ولعلّه ثبت

صدور الخطيئة من بعضهم، بل أن بعضهم قد ارتكب الكبائر، فما بالك بمن لم تصدر منه الخطيئة، وإنما قد همّ بفعلها فقط! ولقد ذكرنا أن قصة يوسف عليه السلام تحوي على الكثير من الدروس والعبر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. وهذا لا يمنع أن نوضح ونبيّن إحدى هذه الدروس والعبر في قصة تلك السيدة ابتداءً من توبتها حتى حضيت بالقرب من النبي عليه السلام ورضا الله سبحانه.

الجهة الثانية: أننا نسمع الكثير من الناس وهو يُضيف على القصة إضافات كاذبة، والتي تخصّ جزء من حياة النبي يوسف عليه السلام، بل يعتبرها حادثة عشق وغرام ليس أكثر، وذلك يكشف عن قلة فهمهم أكيداً. فأردنا دفع هذه الشبهات، وتسليط الضوء على هذا الجزء من السورة المباركة (سورة يوسف) وبيان مقام هذه السيدة، وأخذ الفائدة منه.

الجهة الثالثة: أن سبب اختيارنا لقصة السيدة زليخا هو قربها من الواقع، أي: أنه ما دام المرء مُكبلاً في قيود النفس والشهوات، وما دامت سلاسل الشهوة مُلتقّة على رقبته، ولا يزال مدفوعاً إلى المعاصي، إذن هو بعيد عن المقامات المعنوية، التي يحظى بها الأنبياء المعصومين من الآثام، لذلك لم نتكلم عن مقام النبي يوسف عليه السلام، وتكلّمنا عن مقام السيدة زليخا التي هي أنموذج قرآني واضح للمُعترف بذنبه، الكابح لنفسه الأمانة. ومن هنا فمن الممكن أن يغتنم الإنسان الفرصة لتهديب نفسه من قبائح الرذائل، والتحليّ بحسن الفضائل.

إذن: لابداً للإنسان العاقل من السعي واللجوء إلى كل سبيل ولإنقاذ نفسه من أسر الشهوات، لذا علينا أن نطالع في البدء أحوال وحكايات الماضين؛ لتتعرف على كيفية اجتهادهم ووصولهم حتى ينبعث فينا النشاط والرغبة مقتدين بالمتطهرين والتوابين ومنهم السيدة زليخا.

الآيات الخاصة بالسيدة زليخا:

لو تأملنا في الآيات التي ذكرت السيدة زليخا، لأمكن الاستيحاء منها مراحل القرب التي سارت بها، وهي لا تختلف عن الكثير من الذين وصلوا ذلك المقام الكبير ألا وهو مقام التوابين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، كذلك أنها وصلت إلى ساحة وقبول إمام زمانها، أو قل: أنها انتقلت من حضيض الشرك إلى محض التوحيد، فلنكن منصفين مع تلك السيدة ولا نسلط الضوء على معصيتها، أو إصرارها على فعل الفاحشة التي لم تحصل أساساً.

الشهوة وأسرها:

قال تعالى: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١]، حيث أنّ غرورها وحبّ الدنيا لم يجعلها تحمد الله على نعمته وهي يوسف (عليه السلام)؛ لأنهم آنذاك كانوا مشركين وليسوا بموحّدين وغاية كل عمل يعملونه خال من نية القربة، بل محمّلة بالمصالح والغايات ﴿نَخِذَهُ وَكَدًّا﴾ [يوسف: ٢١].

وفعلاً أكرمته، ولم تذكر لنا الآيات، أو الروايات بأنّها عاملته كعبدٍ من عبيدها في تلك الفترة، بل اهتمّت به أعلى الاهتمام إلى أن اشتدّ عوده

وأصبح شاباً يافعاً.

بعدها راودته ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ [يوسف: ٢٣]، وهنا دلالة واضحة على أسر الشهوة، وقد جاء في بيان ذلك في كتب التفسير: «قد عاش يوسف مع امرأة العزيز تحت سقف واحد أمداً غير قصير، وكان في ريعان شبابه، وضيء الطلعة، فتأنأ في هيئته ومنظره .. فلا عجب أن تُفتن به، وتتهالك (امرأة). وأيضاً لا عجب أن يصمد يوسف ﷺ لوسائلها، وينجو من حبالها على رغم أن الجنس صرع كثيراً من العقول .. فليس الإنسان عبداً لغريزة الجنس فقط... وقد تنازع امرأة العزيز عاملان: شهوتها الحيوانية تدعوها إلى مراودة يوسف عن نفسه، وبينهاها العز والكبرياء عن تذلل لمن ابتاعه زوجها بثمن بخس، وبقيت تتذبذب حائرة بين هذين العاملين أمداً غير قصير، ثم انهارت أعصابها، ووقعت فريسة النزوة وشهوة الجنس»^(١)، وهكذا كل إنسان لو أصبح مقهوراً لهيمنة الشهوة والانجذاب لها لأصبح عبداً مطيعاً في كل ما تأمره به نفسه الأمانة.

التكبر منبع الخطيئة:

التكبر: «هو عزةٌ وتعظيمٌ يوجب رؤية النفس فوق الغير واعتقاد المزية

(١) مغنية، محمد جواد، التفسير الكاشف: ج ٤، ص ٣٠٠.

والرجحان عليه»^(١).

وجاء بمعنى آخر: «هو حالة نفسية تجعل الإنسان يترفع ويتعالى على الآخرين»^(٢).

وللتكبر درجات، «منها: الكبر بسبب الإيمان والعقائد الحقّة. ومنها: الكبر بسبب الملكات الفاضلة والصفات الحميدة. ومنها: الكبر بسبب العبادات والصالحات من الأعمال. ومنها: الكبر بسبب أمور خارجية يحصل عليها في حياته. أمّا الذي نحن بصدده هنا على وجه الخصوص، فهو الكبر بسبب أمور خارجية مثل: النسب، والمال، والجمال، والرئاسة وغيرها»^(٣)، وسببه «هو توهم الإنسان الكمال في نفسه»^(٤)، ومنبعه هو الشيطان الذي تكبر على نبينا آدم ﷺ ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. فَطُرِدَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

أي: أنّ الفرد قد يتكبر ويتعالى على الآخرين بسبب ماله، أو جماله، أو نسبه، أو علمه، وما إلى ذلك من العوامل الخارجية التي قد تزول، فتكون سبباً لتكبره وتعالیه على الآخرين، من غير أن يعي بأنّ الجمال

(١) النراقي، محمد مهدي: جامع السعادات: ص ٢٥٦.

(٢) الخميني، روح الله، الأربعون حديثاً: ص ١٠٩.

(٣) المصدر السابق: ص ١١٠، بتصرف.

(٤) المصدر السابق: ص ١١٢.

سيزول عندما يكبر، وقوته سوف تذهب، وبالمرض أو كبر السن سيضعف، وكذلك بالمال والنسب، ونحوها. وهذه العوامل الخارجية كانت كلها عند السيدة زليخا، وهي ليست بخارجةٍ عن منظومة البشر، بمعنى: لا عاصمَ للإنسان من الأنيّة والأناية والتعالي على الناس إلّا التقوى فقط و فقط، ومهما أراد الفرد أن يروّض نفسه ويؤدّبها بالأداب العرفية التي قد تفرض عليه أحياناً، وفي بعض المواقف من أن يتواضع للآخرين ويتفقدهم ويزور مرضاهم أو يهتمّ بهم وغيرها، فلا تعني أبداً أنه قد تخلّص من آفة التكبر والتعالي، أو التباهي وما إلى ذلك، فتبقى الأفعال الصادرة منه مُصطنعة ومؤقتة ما لم تكن صادرة من وعي إيماني وقلب تقي وعقل سوي يدرك عاقبة وقبح ورذيلة التكبر.

الإصرار على الذنب:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ﴾ [يوسف: ٢٤]، دلالة على أنّ الذنب الذي تنوي فعله قد استحوذ على تفكيرها حتى أصبح همّاً ولا شيء سواه، وعلى ذلك، فمن الطبيعي أنه ينتج إصراراً بالإتيان به، فإنّ الإصرار على الذنب أكبر من الذنب نفسه، وفيه من الدلائل على أنه من الكبائر، كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «إيّاك والإصرار؛ فإنه أكبر من الكبائر، وأعظم الجرائم»^(١)، وقال أيضاً: «أعظم الذنوب ذنب أصرّ عليه عامله»^(٢).

(١) الأملدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم: ص ١٦٨.

(٢) المصدر نفسه: ص ٢٠١.

وحقيقةً هذا ما نسمعه عن تلك القصة بأن السيدة زليخا قد أصرت على ذنب، فعلها ما تستحق من اللعن والتشهير، وما يستدعي العجب أن الذنب الذي أصرت لفعله لم يقع! والروايات ناظرة لمن أتى بالذنب وأصرّ عليه بإتيانه وكرّر فعله، فيبقى معنى إصرارها لا يتجاوز التفكير به.

المكر والكيد والخداع:

قال تعالى: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣]، فيها دلالة على أنّ معناها يحمل معنى المكر والكيد والخديعة، لأنها تقريباً تأتي بمعنى واحد، وإن كان في تلك الكلمات فرقٌ بالمعنى على نحو الدقة كما سنبيّن ذلك في كتب اللغة، لكن دلالة (غَلَّقَتِ الأبواب) هو إيقاع الشخص المقابل بتخطيطه هذا، وهو ناتج عن مكر وخديعة وكيدٍ، وعلى كل حال، فالمكر يأتي بمعنى: «احتيالٌ بغيرِ ما تُضمِرُ»^(١)، و«أصل المكر الخداع»^(٢)، وبالطبع هو مختلف في المعنى عن مكر الله تعالى، وحسب ما جاء في كتب اللغة: «مكرُ الله إيقاعُ بلائه بأعدائه دون أوليائه»^(٣)، ثمّ الكيد، كما قال يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَلَّا تَصْرِفَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، والكيد هو: «ما يدلُّ على معالجةٍ لشيء

(١) صاحب بن عباد، المحيط في اللغة: ج ٦، ص ٢٦٣.

(٢) ابن منظور، لسان العرب: ج ٥، ص ١٨٣.

(٣) المصدر نفسه: ج ١، ص ٣٤١.

بشدة، وكلُّ شيءٍ تُعالِجُه فأنت تَكِيدُه. هذا هو الأصل في الباب، ثمَّ يسمُّون المَكْر كَيْدًا. وَيَكِيدُ بِنَفْسِهِ، أي: يجودُ بها، كأنه يُعَالِجُهَا»^(١)، ثمَّ الخداع بمسألة قدَّ القميص، والخداع يأتي بمعنى: «الجُرْبُزُ الذي يَسْعَى بينَ الناسِ بالفَسَادِ، وخبئًا الشَّيْءَ في المَخْدَعِ هو المَخْزَنُ أي: بمعنى الإخفاء»^(٢)، وكما هو واضح في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ [يوسف: ٢٥].

وأما حفظُ يوسف (عليه السلام) من الله تعالى، فكان واضحاً أيضاً، كما قال تعالى في موضع آخر من القرآن: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]. نعم؛ إنَّ هذه الأمور كلها كانت عند زليخا حينما همَّت ولم تهتمَّ أن تقع الخطيئة أو لا، وكانت فخورة بذلك فقد تجاهرت بذلك أمام نسوة المدينة، كما في قوله تعالى: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، وهو ليس بشيءٍ خاصٍّ بزليخا وحدها، وإنما قد يصدر ذلك من أيِّ شخصٍ دون الأولياء والمعصومين الذين عصمهم الله واجتباهم، فكل شخصٍ مُعْرَضٌ لأن يقع وتزلَّ قدمه، وعلى كل حال فباب التوبة مفتوح، وكما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

(١) الزخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة: ص ١٥٥.

(٢) ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة: ج ٥، ص ١٤٩.

وما نقرأه، أو نسمعه عن قصتها، كأنه انتهت إلى هنا، ولم يُسَلِّط الضوء على ما يليها من أحداث، لذا تعالوا سوياً لتدبّر في مراحل وصولها حتى أصبحت مرضية من الله سبحانه، ومن نبيه، وليكون هذا بمنزلة درس قرآني لنا جميعاً.

الهمّ بالمعصية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهٖءَ كَذَلِكَ لِنَصَّرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].
 قد وردت أقوال كثيرة في كتب التفسير في ما يخص معنى: ﴿هَمَّتْ بِهٖءَ وَهَمَّ بِهَا﴾، من قبيل ما ذكر في الميزان عن عيون أخبار الرضا (عليه السلام): «عن حمدان عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى، فقال له المأمون: يا ابن رسول الله أليس من قولك: إنّ الأنبياء معصومون: قال: بلى، وذكر الحديث إلى أن قال فيه: فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖءَ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهٖءَ﴾، فقال الرضا (عليه السلام): لقد همّت به لولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها، لكنّه كان معصوماً، والمعصوم لا يهّمّ بذنب ولا يأتيه ولقد حدثني أبي عن أبيه الصادق (عليه السلام) أنّه قال: همّت بأن تفعل وهمّ بأن لا يفعل، فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن»^(١).

(١) الصدوق، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا (عليه السلام): ج ١، ص ١٧٩. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١١، ص ١٧٠.

ونحن هنا لا نريد التعرّض إليها أكثر من ذلك، ومن أراد الاطلاع أكثر، فعليه أن يرجع إلى كتب التفسير، ولكن ما نريد بيانه هو: أنّ من حُسن حظ امرأة العزيز أنّها همّت بنبيّ معصوم مما ساعد ذلك على عدم وقوع المعصية ويبقى مجرد همٍّ فقط من دون صدور الخطيئة، فقد ورد: «أنّ الله تبارك وتعالى جعل لآدم في ذريّته من همٍّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن همٍّ بحسنة وعملها كتبت له بها عشرًا، ومن همٍّ بسيئة ولم يعملها لم تُكتب عليه سيئة، ومن همٍّ بها وعملها كتبت عليه سيئة»^(١).

والمتدبر في هذه القصة لا يأبه بالوجوه الضعيفة التي تطرح وتدوّن فيها الكتب، أو ما يسمعه من إضافات كاذبة فيما يخصّ قصة السيدة زليخا، بل ويصوّرُها بأبشع الصور. وننقل عبارات ما جاء في كتاب تفسير الميزان وهو في معرض الدفاع عن النبيّ يوسف عليه السلام، ولكنّ كلامه يصبّ أيضاً في ما نريده، وكذلك يستدعي التأمل في قصة زليخا وهل أنّها كانت تخضع لأجواء اعتياديّة ولم تتمالك نفسها؟، أم هناك أسباب وظروف كانت أقوى، ولو وقعت لغيرها لصدر أكبر مما صدر من زليخا؟ فقال عليه السلام: «قد كان يوسف عليه السلام رجلاً ومن غريزة الرجال الميل إلى النساء، وكان شاباً بالغاً أشدهُ وذلك أوان غليان الشهوة وثوران

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي: ج ٢، ص ٢٣٨.

الشبق، وكان ذا جمال بديع يدهش العقول ويسلب الألباب والجمال والملاحة يدعو إلى الهوى والترح، وكان مستغرقاً في النعمة وهنيئ العيش محبوباً بمتوى كريم وذلك من أقوى أسباب التهوؤ والإتراف، وكانت الملكة فتاة فائقة الجمال، وكذلك تكون حرم الملوك والعظماء. وكانت لا محالة متزينة بما يأخذ بمجامع كل قلب، وهي عزيزة مصر وهي عاشقة والهة تتوق إليها النفوس وتتوق نفسها إليه، وكانت لها سوابق الإكرام والإحسان والإنعام ليوسف وذلك كله مما يقطع اللسان ويصمت الإنسان، وقد تعرضت له و دعته إلى نفسها والصبر مع التعرض أصعب، وقد راودته هذه الفتانة وأتت فيها بما في مقدرتها من الغنج والدلال، وقد ألحّت عليه فجذبه إلى نفسها حتى قدّت قميصه والصبر معها أصعب وأشقّ، وكانت عزيزة لا يردّ أمرها ولا يثنى رأيها، وهي ربّته، خصّه بها العزيز، وكانا في أحد القصور الزاهية، ذي المناظر الرائقة التي تبهر العيون وتدعو إلى كل عيش هنيء. وكانا في خلوة وقد غلقت الأبواب وأرخت الستور، وكان في أمن من ظهور الأمر وانتهاك الستر؛ لأنّها كانت عزيزة بيدها أسباب الستر والتعمية، ولم تكن هذه المخالطة فائتة لمرة، بل كان مفتاحاً لعيش هنيءٍ طويل، وكان يمكن ليوسف أن يجعل هذه المخالطة والمعاشقة وسيلة يتوسّل بها إلى كثير من آمال الحياة وأمانها كالمملك والعزة والمال. فهذه أسباب وأمور هائلة لو توجّهت إلى جبل لهدته أو أقبلت على صخرة صماء لأذابتها ولم يكن هناك مما يتوهم مانعاً إلّا الخوف من ظهور الأمر أو مناعة نسب

يوسف أو قبح الخيانة للعزیز» وقال أيضاً: «التدبر البالغ في أطراف القصة وإمعان النظر فيما محتفّ به الجهات والأسباب والشرائط العاملة فيها يعطي أنّ نجاته يوسف منها لم تكن إلّا أمراً خارقاً للعادة و واقعة هي أشبه بالرؤيا منها باليقظة»^(١).

الاعتراف بالذنب:

وبعدها بدأت مرحلة جديدة عند السيدة زليخا وهي مواجهة الناس بخطأها وبيان الدوافع التي دفعتها لذلك التفكير، فهو نوع من الاعتراف وإن كان بصورة غير مباشرة: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]. وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَنْهَعَنَ نَفْسَهُ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]، وفي مقام المواجهة والردّ عليهنّ كأنها تقول: «قد كان ليوسف (عليه السلام) من الجمال الذي يأخذ بمجامع القلوب، فكيف بالذي امتلأت به عينه وشغف القلب من إدامة النظر إليه حتى أسعرت في سرّه كل لهب، وأججت كل نار، فاستغرق القلب في حبه وتولّه في غرامه وقد أحيط به من كل جانب، فلا همّ له إلّا بيوسف» ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]. وفي رواية عن أبي جعفر (عليه السلام) قال في هذه الآية: «قد حجبتها حبه عن الناس فلا تعقل غيره، والحجاب هو الشغاف،

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١١، ص ١٢٩.

والشغاف هو حجاب القلب»^(١) «^(٢). هذا من جهة، ومن جهة أخرى: «أنَّ حرية الملوك وسلطنتهم تمنحهم التنقل في قصورهم، كيف ما شاؤوا ومتى أرادوا من غير سؤال، فكيف تُسأل وهي امرأة العزيز! كما أنَّ استعانتها بالأسباب: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣] ساعدَ على اعتقادها بأنَّ خيانتها لن تُكشف، وكانت الخيانة زمانها شيئاً مرفوضاً اجتماعياً لا من أجل الاعتقاد المتولد من الدين والإيمان، فإن توفرت الأسباب التي تسترُّها فلا يبقى شيء لفعالها، فقالت: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، ولكن لمثل النبيِّ يوسف عليه السلام لا يطاوعها في مرادها، وقد ملأ قلبه حباً لله تعالى وكان محلاً لتسديده وعنايته ولطفه، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤]. وهنا الفارق الأهم بين نفوس الأنبياء عليهم السلام ونفوس العامة التي تتقلب بين الأهواء، فإن ارتقت، فإنما ترتقي إلى منزلة التقوى ورجاء الثواب وخوف العقاب. كذلك أنَّ زليخا إحدى سيدات المدينة اللواتي كنَّ يتحدثنَ في محافلهنَّ بعد شيع الخبر. وزليخا كباقي النساء تغلبها العواطف الرقيقة والأحاسيس اللطيفة، والتعلق بالزينة والجمال، فبعد أن حَضَرَ عند زليخا وقد هيأت لهنَّ متكئاً وآتت كلَّ واحدة منهنَّ سكيناً وقدمت لهنَّ الفاكهة وخرج إليهنَّ يوسف: ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ

(١) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج ١، ص ٣٥٧.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١١، ص ١٢٩.

وَقُلْنَا حَسْبُ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿يوسف: ٣١﴾.

على الرغم من أنهم في بيت العزيز وهو بيت يجب فيه التحفظ على كل أدب ووقار لما يتمتع به من شرف وسمعة أوصلته إلى مكانة عزيز الملك، وكان عليهن أن يحتشمن وهنَّ من أشرف الناس، ولعلَّ البعض منهنَّ ذوات بعولة، فقد فوجئنَّ به دفعة واحدة فغشيت قلوبهنَّ، وطارت عقولهنَّ، فنسينَ الفاكهة، وقطعن أيديهنَّ وأبدينَّ ما في نفوسهنَّ من وله الحبِّ بقولهنَّ: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

رغم أنهم لم يرين منه سوى حُسن وجهه، واعتدال صورته، وجمال خلقته، فلم يفارقنَّ المجلس إلَّا وهنَّ متيمَّات به، ويعرضنَّ له نفوسهنَّ: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

أما بالقياس مع حبِّ زليخا، فقد كان استغراقه تدريجياً ممَّا رأت من جمال الخلقة والخلق لا كما أحبينَّ النساء بقاء واحد، فقالت: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢] ﴿١﴾.

الخطوة الأولى نحو التوبة:

قال تعالى: ﴿فَسَأَلَهُ مَا بَأَلُ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ * قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنِ نَفْسِهِ قُلْنَ حَسْبُ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوْءٍ

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١١، ص ١٢٥، بتصرف.

قَالَتْ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ أَكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٠﴾
[يوسف: ٥٠ - ٥١].

الانطلاقة الأولى نحو الطريق السوي هو: الندم، فقد وردَ عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «ندم القلب يكفر الذنب»^(١).

نعم، قد أشرقت التوبة على السيدة زليخا: ﴿أَكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ﴾ كانت تستطيع أن تكذبه وبكل بساطة كما فعلت أول مرة. وكما هو معلوم أن التوبة تمحو ما قبلها، وليس شيء أحب إلى الله من مؤمن تائب، فقول الحق من سمات التائب التي تستنزل عليه الرحمة، كما وردَ: «من ندم فقد تاب، ومن تاب فقد أناب»^(٢)، و«عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: جاءت امرأة إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فقالت: يا نبي الله امرأة قتلت ولدها هل لها من توبة، فقال (صلى الله عليه وآله) لها: والذي نفس محمد بيده لو أنها قتلت سبعين نبياً ثم تابت وندمت ويعرف الله من قلبها أنها لا ترجع إلى المعصية أبداً لقبَل الله توبتها وعفا عنها، فإنَّ بابَ التَّوْبَةِ مَفْتُوحٌ ما بينَ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وإنَّ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(٣)، وهذا كافٍ في إثبات توبتها بحسب ما مرَّ علينا من روايات في التوبة؛ لأنَّها لم تقتل أحداً وكان همَّها بارتكاب المعصية لجهلها، ورغم كل ذلك همَّ

(١) النوري، حسين بن محمد تقي، مستدرك الوسائل و مستنبط المسائل: ج ١٢، ص ١١٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق: ج ١٢، ص ١٣١.

والإصرار لفعل الخطيئة، لكنّها لم تقع، وهناك روايات خاصة في السيدة زليخا تُثبت قبول توبتها من الله عزّ اسمه كالرواية التي جاءت في تفسير البرهان «فأوحى الله عزّ وجلّ إلى يوسف أنّها قد صدقت وإني قد أحبتها لحبّها محمّداً صلّى الله عليه وآله»^(١). والخلاصة: أنّ إقرارها بالذنب توبة، كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام): «المُقرُّ بالذنب تائب»^(٢)، حيث قالت: ﴿وَمَا أُبْرِيْ نَفْسِيْ﴾ [يوسف: ٥٣].

ما بين التوبة وحسن الخاتمة:

ما نستطيع أن نفهمه من بين المقامين: التوبة وحسن الخاتمة، أي: من مرحلة التوبة إلى مرحلة الوصول لساحة إمام زمانها؛ لأنّه قد وردَ في عدّة روايات: أنّ النبيّ يوسف (عليه السلام) قد تزوج بالسيدة زليخا وقد أنجب منها أولاداً، كما وردَ في تفسير البرهان: «استأذنت زليخا على يوسف، فقيل لها: إنّنا نكره أن نقدّم بك عليه؛ لما كان منك إليه. قالت: إنّني لا أخاف من يخاف الله، فلما دخلت، قال لها: يا زليخا مالي أراك قد تغيّرت لونك؟ قالت: الحمد لله الذي جعل الملوك بمعصيتهم عبيداً، وجعل العبيد بطاعتهم ملوكاً. فقال لها: ما الذي دعاك إلى ما كان منك؟ قالت: حسن وجهك يا يوسف، فقال: كيف لو رأيت نبياً يقال له: محمد صلّى

(١) البحراني، سيد هاشم، البرهان في تفسير القرآن: ج ٤، ص ٢٢٨.

(٢) النوري، حسين بن محمد تقي، مستدرک الوسائل و مستنبط المسائل: ج ١٢، ص ١١٨.

الله عليه وآله يكون في آخر الزمان أحسن مني وجهاً وأحسن مني خلقاً وأسمح مني كفاً، قالت: صدقت. قال: وكيف علمت أنني صدقت؟ قالت: لأنك حين ذكرته وقع حبّه في قلبي، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى يوسف أنّها قد صدقت وإنّي قد أحببتها لحبّها محمداً صلّى الله عليه وآله فأمره الله عزّ وجلّ أن يتزوَّجها»^(١).

وكذلك ورد في تفسير القمي: «لما مات العزيز في السنين الجديّة افتقرت امرأة العزيز واحتاجت حتى سألت، فقالوا لها: لو قعدت للعزيز، وكان يوسف سمّي العزيز، وكل ملك كان لهم سمّي بهذا الاسم. فقالت: أستحي منه، فلم يزالوا بها حتى قعدت له، فأقبل يوسف في موكبه، فقامت إليه فقالت: سبحان الذي جعل الملوك بالمعصية عبيداً وجعل العبيد بالطاعة ملوكاً، فقال لها يوسف: أنت تيك؟ فقالت: نعم، وكان اسمها زليخا، فقال لها: هل لك في رغبة؟ قالت: دعني بعد ما كبرت أتهدأ بي، قال: لا، قالت: نعم، فأمر بها فحولت إلى منزله وكانت هرمة، فقال لها: أأنت فعلت بي كذا وكذا، فقالت: يا نبي الله لا تلمني، فإنّي بليت بثلاثة لم يبتل بها أحد، قال: وما هي؟ قالت: بليت بحبّك ولم يخلق الله لك في الدنيا نظيراً، وبليت بأنّه لم يكن بمصر امرأة أجمل منّي ولا أكثر مالاً منّي نزع عني، وبليت بزواج عيني، فقال لها يوسف:

(١) البحراني، سيد هاشم، البرهان في تفسير القرآن: ج ٤ ص ٢٢٨.

فما تريدین؟ فقالت: تسأل الله أن یردّ علیّ شبابی، فسأل الله فردّ علیها شبابها فتزوّجها وهی بكر»^(١).

والمعلوم أنّ الأنبياء أولى أن يختاروا لنظفهم، فأصبح واضحاً من الروایتین أنّها قد آمنت وصدّقت وأحبّها الله تعالى، (فأوحى الله عزّ وجلّ إلى يوسف أنّها قد صدقت وإنّی قد أحببتها)، وجعلها آية من آیاته برده عزّ وجلّ شبابها (فسأل الله فردّ علیها شبابها). إذن؛ صبرت السيدة زليخا ونالت، ومن أهمّ ما یثبت المرء علی إيمانه هو الصبر، فقد وردّ عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «الصبر أحسن حلل الإيمان وأشرف خلائق الإنسان»^(٢)، و«لا يتحقق الصبر إلا بمقاساة ضدّ المألوف»^(٣). وقد ذكرّ الله تعالى أوصافاً كثيرة للصابرين.

ففى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾
[السجدة: ٢٤]،

وقوله: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
[النحل: ٩٦]،

وقوله: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤].

ومعنى الصبر: «هو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب،

(١) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج ١، ص ٣٥٧.

(٢) الأمدى، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم: ص ١٠٣.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٨١.

بأن تقاوم معها، بحيث لا تخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه قبل ذلك من السرور والطمأنينة»^(١).

أو بعبارة أخرى: هو تحمّل الإنسان لحالة حدثت له تستدعي منه التحمّل، والهدوء، ومعالجة الأمور بتعقّل ولو طالّت مدّة هذه الحالة.

كذلك نستشفّ من بين تلك المقامات: الزهد، لأنّها كانت ذات سعة من المال والجاه: (فإني بليت بثلاثة لم يبتل بها أحد، قال: وما هي؟

قالت: ... ولا أكثر مالا مني نزع عني). فأصبحت زوجة مؤمنة خاضعة طائعة لزوجها، (فتزوجها وهي بكر)، ومُعينة له في نبوّته، وقد وردَ عن

النبيّ الأكرم ﷺ: «ما تعبدون الله بشيء مثل الزهد في الدنيا»^(٢). وعن أمير المؤمنين (عليه السلام): «الزهد أقلّ ما يوجد وأجلّ ما يعهد يمدحه الكل

ويتركه الجل»^(٣).

وغير ذلك من المقامات، أو الفضائل التي نستطيع أن نستشفّها؛ لأننا قد عرفنا البداية وهي التوبة، والنهاية وهي حسن الخاتمة، لأنّ أكثر أخلاق

الإيمان داخل في الصبر، كالرضا، والشكر، والصدق، والإيثار، والتواضع، وغيرها.

(١) النراقي، محمد مهدي: جامع السعادات: ص ٧٢٤.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٧ ص ٣٢٢.

(٣) الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم: ص ٦٢.

حسن الخاتمة

أنّ الإنسان قد يكون مؤمناً، ويكون الإيمان مستقراً وثابتاً في قلبه، وقد يكون كافراً، ويكون الكفر مستقراً وثابتاً أيضاً، وقد يكون مُتقلّباً بين الكفر والإيمان، وإنّما يحكم عليه بالسعادة والمفاضة بالدنيا والآخرة، أو الشقاوة وخسران الدنيا والآخرة بلحاظ خواتيم أعماله، كما وردَ عن الإمام الكاظم عليه السلام: «إنّ الله خلق خلقاً للإيمان لا زوال له وخلق خلقاً للكفر لا زوال له، وخلق خلقاً بين ذلك أعاره الإيمان يسمّون المعارين..»^(١).

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ العبد يصبح مؤمناً ويمسي كافراً ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً وقوم يعارون الإيمان ثمّ يسلبونه..»^(٢).

فاتّضح أنّ الإنسان قد تسوء عاقبته إلى درجة أن يختم له بالكفر، وقد يختم له بالفسق، والعكس صحيح أيضاً. وما استعرضناه من روايات خاصّة في حقّ السيدة زليخا كافٍ لإثبات حسن عاقبتها ووصولها إلى ساحة إمام زمانها ورضا الله عنها. وهذه هي أمنية كل مؤمن.

(١) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٤١٨.

(٢) المصدر نفسه.

أهم الأمور التي تساعد على ثبات المؤمن:

بعد أن تكلمنا عن حُسن الخاتمة، ولتتميم الفائدة أكثر، نذكر أهم الأمور التي تساعد على ثبات المؤمن على إيمانه واستقراره في قلبه، وهي:

١- فعل الواجبات وترك المحرمات وتعاليم شرع الله، وهي الجادة الصحيحة، كما وردَ عن أمير المؤمنين (عليه السلام): «يا كميل إنما تستحق أن تكون مستقراً إذا لزمَت الجادة الواضحة..»^(١).

٢- معرفة الله، كما وردَ في الدعاء: «اللهم عرفني نفسك؛ فإنك إن لم تعرفني نفسك لم أعرف رسولك، اللهم عرفني نبيك؛ فإنك إن لم تعرفني نبيك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك؛ فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن ديني»^(٢). فقد ورد أن المواظبة على هذا الدعاء يقي الإنسان من العديلة ويثبته على الإيمان.

٣- العمل الصالح، فقد وردَ عن الإمام الصادق (عليه السلام): «لا يثبت الإيمان إلا بالعمل...»^(٣).

٤- لزوم الدعاء والإلحاح به، فقد وردَ عن الإمام الصادق (عليه السلام): «إن الله

(١) ابن شعبه الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول: ص ١٧٤.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ١، ص ٣٣٧.

(٣) المصدر نفسه: ج ٢، ص ٣٨.

جَبَلَ النَّبِيِّينَ عَلَى نَبَوَّتِهِمْ، فَلَا يَرْتَدُّونَ أَبَدًا، وَجَبَلَ الْأَوْصِيَاءَ عَلَى وَصَايَاهُمْ، فَلَا يَرْتَدُّونَ أَبَدًا، وَجَبَلَ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْإِيمَانِ، فَلَا يَرْتَدُّونَ أَبَدًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أُعِيرَ الْإِيمَانَ عَارِيَةً فِإِذَا دَعَا وَأَلْحَ فِي الدَّعَاءِ مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ»^(١). لَذَلِكَ عَلَّمُونَا أَهْلَ بَيْتِ النَّبُوَّةِ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ) الدَّعَاءَ الْمَعْرُوفَ بِالْعَدِيلَةِ، وَهُوَ التَّحَرُّزُ مِنَ الْعَدِيلَةِ عِنْدَ الْمَوْتِ، بِمَعْنَى: الْعُدُولُ مِنَ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ.

وَأَنَّ الْوَصُولَ إِلَيْهَا يَحْتَاجُ إِلَى جَهْدٍ وَمُثَابَرَةٍ مَعَ التَّحَرُّزِ مِنَ الْوُقُوعِ فِي شِبَاكِ الشَّيْطَانِ، وَهُوَ النَّفْسِ، وَكَمَا اجْهَدْتَ السَّيِّدَةَ زَلِيخَا نَفْسَهَا حَتَّى خَتَمْتَ حَيَاتَهَا بِالْحُسْنِ فِي قَبُولِهَا عِنْدَ إِمَامِ زَمَانِهَا الَّذِي هُوَ امْتِدَادُ لِقَبُولِهَا مِنْ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ. فَعَلَيْنَا أَنْ نَحْرُصَ دَائِمًا عَلَى أَنْفُسِنَا وَالْمُتَابَعَةِ لَهَا؛ لِتَكُونَ خَاتِمَتِنَا حُسْنَ الْعَاقِبَةِ مَعَ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ).

(١) المصدر السابق: ج ٢، ص ٤١٩.

الملخص:

١- من خلال تتبّع الآيات الخاصّة بامرأة العزيز التي ابتدأت من همّها بارتكاب الذنب والإصرار عليه إلى التوبة ووصولها إلى ساحة قبول إمام زمانها، فوقفنا على مراحل قد سارت بها وهي بذلك لا تختلف عن الكثيرين الذين وصلوا وقد خلدتهم التاريخ وأصبحت قصصهم عبرةً.

٢- لم نسلط الضوء على معصية تلك السيدة امرأة العزيز وزوجة النبي ﷺ، التي لم تقع أساساً، كما فعله الآخرون، وكذلك دفع ما قد يُضاف على جزء من حياة النبي مع تلك السيدة، أو تصويره بصورة لا تليق به.

٣- ذكرُ قصص التوابين والواصلين أمثال السيدة زليخا قد يكون فرصة لاغتنامها من قبل أيّ إنسان طالما هو مُعرّض للوقوع في أسر الشهوات وقيود النفس الأمارة.

الأطروحة الثانية في سورة يوسف ﷺ

العقيدة في إمام الزمان ﷺ هي المحور الرئيسي في هذه الأطروحة ولأجل التوصل إليها لابد من أن ننظر في طريق الروايات الواردة في ذكر موارد التشابه بين قضية الإمام المهدي ﷺ والنبى يوسف ﷺ، ومن ثم التأمل في آيات السورة، للتزود بوقفة اعتقادية من جهة قرآنية.

الروايات الواردة في المقام

قال أبو عبد الله ﷺ: «إن في صاحب هذا الأمر سنن من الأنبياء سنة من موسى بن عمران، وسنة من عيسى، وسنة من يوسف، وسنة من محمد ﷺ، فأما سنة من موسى فخائف يترقب، وأما سنة من عيسى فيقال فيه ما قيل في عيسى، وأما سنة من يوسف، فالستر يجعل الله بينه وبين الخلق حجاباً يرونه ولا يعرفونه»^(١).

وعن الصادق ﷺ، قال: «في صاحب هذا الأمر أربع سنن من الأنبياء: سنة من موسى، وسنة من عيسى، وسنة من يوسف، وسنة من محمد ﷺ، فأما من موسى فخائف يترقب، وأما من يوسف فالسجن والغيبة...»^(٢).

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ج ٢، ص ٣٥٠.

(٢) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج ٥١، ص ٢١٧.

فالتشابه واضح من خلال هذه الروايات بين قصة النبي يوسف عليه السلام وإمام زماننا عليه السلام.

وتوجد موارد أخرى للتشابه ذكرت أيضاً في الروايات ويمكن للمتدبر الاستفادة منها بجهات أخرى، كرواية الإمام أبي جعفر الجواد عليه السلام، قال: «في صاحب هذا الأمر أربعة سنن من أربع أنبياء: سنة من موسى في غيبته، وسنة من عيسى في خوفه، ومراقبته اليهود، وقولهم مات ولم يمت وقتل ولم يقتل، وسنة من يوسف في جماله وسخائه، وسنة من محمد في السيف يظهر به»^(١). كذلك في موارد التشابه بين الإمام عليه السلام وبين بقية الأنبياء عليهم السلام.

أمّا ما نريد بيانه هنا فهو زاوية عقائدية تُسلط الضوء على أهمّ مسائلها كالغيبية والظهور، ونحوها من المسائل.

ونبدأ بالتدبر في أحسن القصص القرآنية ألا وهي سورة يوسف عليه السلام التي قال تعالى عنها وميّزها عن بقية القصص بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، ونرى هذا التشابه المذكور في الروايات السابقة، ولكن من جهة قرآنية، حيث دلّتنا الروايات في أنّ التشابه مع النبي يوسف عليه السلام، مُحدّد في هذه السورة، لأنّها السورة الوحيدة من القرآن الكريم التي تكلمت عن حياة أحد

(١) المسعودي، علي بن حسين، إثبات الوصية: ص ٢٦٧.

الأنبياء كاملة، بخلاف البقية منهم ﷺ، حيث نجد أن حياتهم ودورهم الرسالي كان موزعاً ومفرقاً في عدة سور من القرآن الكريم، وإن سُميت بعض السور بأسمائهم، كسورة نوح، وسورة إبراهيم، وسورة هود، ونحوها. وبهذين الأمرين - حياة النبيّ الوحيدة في سورة كاملة، والروايات الدالة على التشابه بين الإمام والنبيّ يوسف - نجد أن القرآن، كأنما ينطق ويقول: تأملوا وتدبروا في هذه السورة؛ لتعرفوا على إمام الزمان من غيبته إلى ظهوره ودوره المهمّ الذي سُمي به منقذ البشرية. وهذه أهمّ الأسباب التي دعتنا إلى طرح هذا المستوى، والدخول لهذه الزاوية الاعتقادية بربط قصة يوسف ﷺ بقضية مولانا الإمام ﷺ. ومن هذا المنطلق ينبغي علينا أن نعتبر ولا نعتبر غفلة من دون تدبر، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، وعلينا أن نقف على هذه السورة المباركة للتزود بوقفات اعتقادية كما نتزود من وقفات أخلاقية وغيرها، ولتدبرسويّاً في الآيات القرآنية المباركة.

البشارة والتمكين

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، بشارة إلهية وفتح ربانيّ ليوسف ﷺ بتمكينه في الأرض، وكما قال تعالى: ﴿وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، وقد ذكرت أوجه كثيرة في كتب التفسير في بيان معنى التمكين، وأفضل ما ذكر في

ذلك هو: «التمكين المطلق، أي: أنها شاملة لجميع وجوه التشبيه من التمكين بإخراجه من الجبّ وبيعه واستقراره في بيت العزيز، أو تمكينه بصرف كيد النسوة، أو خروجه من السجن، أو بتمكينه من تعبير الرؤيا، أو تمكينه بانتصابه على خزائن أرض مصر»^(١).

وبالطبع أنّ ما يحمله التمكين من معنى يستدعي الحسد، بل المكيدة أيضاً، كما قال تعالى: ﴿قَالَ يَبْنَئِي لَأَنْقَضَنَّ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، أي: أكنتم ذلك، وإلّا ستصيبك المكيدة من الأقرباء قبل الأعداء. وكذلك البشارة بالاجتباء بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْئِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦]، وحاصل هذا التمكين والاجتباء هو إتمام النعمة ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦]، والمراد من إتمام النعمة: تعقيب الولاية برفقة سائر نواقص الحياة السعيدة وضمّ الدنيا إلى الآخرة...؛ لأنّ النعمة وهي الولاية مختلفة الدرجات متفاوتة المراتب^(٢).

والحال نفسه من التمكين والاجتباء وإتمام النعمة مع الإمام المهدي عليه السلام، فجاءت روايات كثيرة تحكي لنا وتوضح تمكينه، بل وغلبته في الأرض «يملاً الأرض عدلاً وقسطاً...»^(٣)، فضلاً عن نصوص قرآنية أولها أئمة أهل البيت عليهم السلام بالبشارة وتمكين الإمام عليه السلام من قبيل قوله تعالى:

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١١، ص ١١٢-١١٣، بتصرف.

(٢) انظر: المصدر السابق: ص ٨٧.

(٣) الهلالي، سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس الهلالي: ج ٢، ص ٧٧٥.

﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَّرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ
 أَيْلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذْكُرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، و ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
 رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ
 الْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣] ^(١).

وهذه الآيات وآيات أخرى ^(٢) تشير إلى البشارة الإلهية العظيمة وهي
 تتناغم مع الآية القرآنية في قوله تعالى: ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ
 اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [القصص: ٥]،
 فهي ترنّ في أذن قارئ القرآن وبصوت عال بأنّ هناك بشارة وعد بها
 سيّد الأنبياء صلّى الله عليه وآله، ووعد بها المسلمون، وأنّ هناك ظهوراً للدين على يد
 رجل مصلح ومنقذ للبشرية جمعاء.

وخلاصة ما تقدم: أنّ يوسف عليه السلام قد بُشِّرَ بالاجتباء والتمكين، وكذلك
 الإمام المهدي عليه السلام بُشِّرَ بالاجتباء والتمكين أيضاً.

الغيبية:

الغيبية من المباحث المهمة التي تستدعي التدبّر وأن نقف عندها متأملين
 والنظر في الآيات القرآنية من هذه الزاوية.
 حيث دلّتنا عليه الروايات وأرشدتنا بالنظر إلى التشابه بين قضية الإمام

(١) انظر: البيهقي، الحائري، الشيخ علي، إلزام الناصب في إثبات الحجة الغائب: ج ١، ص ٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ص ٥٢، أخبار الله تعالى في كلامه المجيد بوجود القائم وغيبته، والآيات المؤولة به.

المهدي ﷺ وقصة النبي يوسف ﷺ، ومن جانب آخر: النظر في أهمية
وثمره الغيبة للمنتظر الموعود.

ومن المعلوم أن النبي يوسف ﷺ كانت له غيبة ابتدأت من الجب،
وهو من جرأ خصمه الذي يتربص به، كما هو واضح من حياة بقية
الأنبياء وما تعرضوا له من محاولات للاغتيال، وإيذائهم، وتهجيرهم،
ومنهم النبي يوسف ﷺ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ، وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾
[يوسف: ١٥].

وحيث أن قصة النبي يوسف ﷺ واضحة في كتب التفسير، فلا نريد هنا
أن ندخل في تفاصيلها، بقدر أننا نريد أن نستفيد من العلاقة والمناسبة
بين ما جرى للنبي يوسف ﷺ وما تُشير إليه قصته، لتعطينا نموذجاً
واضحاً من القرآن الكريم عن الغيبة. بمعنى: ما نوع هذه الغيبة، أو بمعنى
آخر: هل هي غيبة وجود، أم هي غيبة شعور؟ وكذلك ما هو دور الإمام
في رعاية شؤون العالم في زمن الغيبة، وهم يشاهدونه ولا يعرفونه؟،
فكل هذه الأمور المهمة قد أشار إليها القرآن الكريم، وهذه وظيفة
المتدبر كما أسلفنا من أن يربط بين الآيات القرآنية وواقعه الحالي.

ومن هنا نقول: أن يوسف ﷺ غاب عن أبيه وعن قومه، كما قال تعالى:
﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]، وهو تدخل إلهي وبلا شك
لحفظه من القتل ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: ١٠]، وبعد تأكيد
الخطر هذا لولي من أولياء الله تبارك وتعالى الذي وعد أن يكون مصلحاً
ومتمكناً في الأرض، فالغيبة حينئذ هي أمن وحراسة وضمأن له حتى من

أقرب الناس وهي خاصته وذويه فضلاً عن العامة، وهذا ما نراه قريباً ومتشابهاً مع غيبة الإمام المهدي عليه السلام التي بدأت من سرداب الغيبة، فكما كان الجبّ محطة لبدء غيبة يوسف عليه السلام عن أهله وشيعته، كذلك قد كان السرداب محطة لبدء الغيبة لإمام الزمان عليه السلام عن أهله وشيعته، ولكن ليس كما يقول البعض: أنه دخل في السرداب وغاب ولم يخرج منه لحدّ الآن، بل نحن نقول: بدأت الغيبة من السرداب، فهو «المكان الطبيعي للاختفاء من هجوم الجهاز الحاكم آنذاك، وقد أوضحت الأخبار في هذا الصدد أنه خرج منه، وجلاوزة السلطان يحاصرون ذلك السرداب ولم يلتفتوا إليه»^(١)، ومن حين خروجه بدأت الغيبة.

وحيث أنّ النبيّ يوسف عليه السلام كان يعيش بين الناس يأكل ويشرب ويعمل مثله كمثل باقي البشر، لكن بغير شخصيته الحقيقية، وكان ينتظر أمر الله تعالى، لإعلان ظهوره، ليُمارس دعوته بشكل مُعلن، وهذا هو التشابه مع حال الإمام عليه السلام بعدم الشعور بالغائب لا عدم وجود الغائب، أو بعبارة أخرى: هي ليست عدم المعرفة لولي الله مع كونه حاضراً: كما حكى الله جلّ جلاله عن إخوة يوسف عليه السلام بأنهم لم يعرفونه، بقوله تعالى: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]. لذلك ينبغي الالتفات إلى أنّ «هذه الغيبة ليست غيبة وجودٍ، أو حضورٍ، وإنّما غيبة شعورٍ، بمعنى: لا

(١) انظر: الصدر، محمد صادق، تاريخ الغيبة الصغرى: ج ١، ص ٥٢٠، بتصرف.

يشعر به الأطراف الآخرون، ويطلق عليها بغيب الهوية، أو خفاء العنوان. وبعبارة أخرى: إنه يعيش بشخصية ثانوية متكوّنة من اسم مستعار وعمل مُعيّن وأسلوب في الحياة غير ملفت للنظر»^(١).

وكذلك عندما أُذيع خبر مقتل النبي يوسف عليه السلام: ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءَ يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦]، هو الشيء نفسه عندما «أشيع الخبر في الدولة العباسية آنذاك بأنه لا خَلْفَ للإمام العسكري عليه السلام، أو أنّ السلطة العباسية قتلتها، حيث كان القبض على الإمام عليه السلام هو أحد الأهداف الكبرى للدولة العباسية وهي تعلم أنّ الإمام المهدي عليه السلام هو المذخور لرفع الظلم والجور عن بني البشر، فهو حينئذٍ يشكّل خطراً عليها، أو يهدّد كيانها ووجودها، فقد جرّدت السلطات ثلاث حملات للقبض عليه؛ أحدها: قام بها المعتمد في الفترة القليلة المتأخّرة عن وفاة الإمام العسكري عليه السلام، والأخريات قام بها المعتضد الذي تولّى الحكم بعده، ناهيك عن أخبار التجسس الناتج من تلك الدولة»^(٢)، ومن ثمّ نرى ما حصل بعدها للنبي يوسف عليه السلام: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ [يوسف: ١٩]، وتندبّر في تعاطي وتفاعّل الناس مع وليّ الله وهم لا يشعرون: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١].

(١) المصدر السابق: ص ٢٠٧، بتصرف.

(٢) المصدر السابق: ص ٥١١، بتصرف.

بمعنى: يفتح الله له السُّبُل في التدرُّج لنفوذ اليد، ويكون مبسوط القدرة، وهو الشيء نفسه الذي نعتقه بالإمام المهدي عليه السلام «حيث كان متدرِّجاً في الاحتجاب في أوّل الفترة، وكلّما مشى به الزمن زاد احتجابه»^(١)، حتى يقضي الله جلّ جلاله ويُدبّر أمره للمُصلح الموعود عليه السلام على الرغم من كيد الكائدين ومكر الماكرين.

وهناك التفاتة أخرى هي: أنّ الغيبة التي حصلت لنبيّ الله يوسف عليه السلام كانت في صغره، أي: في زمن الرؤيا في قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] والتي تدل على قربها لزمن ابتداء غيبته كما هو واضح من خلال تسلسل الأحداث، حيث جاء في تفسير الميزان عن الإمام الباقر عليه السلام «قال: فرأى يوسف هذه الرؤيا وله تسع سنين فقصّها على أبيه، فقال: لا تقصص...»^(٢) وهو ما حصل للإمام المهدي عليه السلام نفسه، حيث بدأت غيبته، أي: بدء عصر الغيبة الصغرى بوفاة الإمام العسكري عليه السلام عام ٢٦٠ هـ في شهر ربيع الأوّل، والمشهور أنّ ولادته في النصف من شعبان عام ٢٥٥ هـ، فيعني أنّ غيبته بدأت وله أربع سنوات وحوالي ستة أشهر^(٣).

(١) المصدر السابق: ص ٥٨٢، بتصرف.

(٢) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١١، ص ٨٨.

(٣) انظر: الصدر، محمد صادق، تاريخ الغيبة الصغرى: ج ١، ص ٣٢٩.

عدم معرفة الإمام في زمن الغيبة:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ۖ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۖ وَكَذَلِكَ نُجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢].

بعد الاستمرار في غيبته، وعدم معرفة شخصيته إلى أن: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، وهذا واضح وبلا شك من رواية مولانا الصادق (عليه السلام) التي ذكرناها في بداية الحديث: «... وأما من يوسف فالسجن والغيبة»^(١)، فبالأمل في محنة الإمام المهدي (عليه السلام) يتضح: أن الدنيا بسعتها والأرض برحبها صارت سجناً له - بأبي هو وأمي - حيث لا يأمن أن يظهر على الرغم من إعلان الشيعة لمحبتهم وانتسابهم إليه حتى ضاقت عليه الدنيا، فهو سجين منذ ولادته و إلى الآن، وكما ورد: «الدنيا سجن المؤمن»^(٢)، فإذا كانت الدنيا سجن للفرد العادي بسبب إيمانه فكيف لا تكون سجناً لمن كان مصداقاً كاملاً وحقيقياً للمؤمن.

دور الإمام وتأثيره في زمن الغيبة

ويستمر مسلسل الأحداث بتدبير من الله عز وجل: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَعَةَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَعٌّ عِجَافٌ وَسَعٌ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ

(١) ابن بابويه، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة: ج ١، ص ٣٢٩.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج ٢، ص ٢٥.

يَأْسَدَتْ بِهَا أَلْمَلَأَ أَفْوَانِي فِي رُؤْيَىٰ إِن كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ [يوسف: ٤٣]،
 فهي أزمة اقتصادية ستحلُّ بأهل مصر يُراد لها تدبير حكيم من شخص
 مكين، ويراد لها نظام اقتصادي حصين، لما سيواجهونه من قحط في
 المعيشة وأزمة اقتصادية حادة وظروف صعبة، فمن هو الذي سينقذهم
 من هذه الأزمة؟

والجواب: هو النبي يوسف عليه السلام لا غير؛ لأنهم ليسوا بالمستوى المطلوب
 أمام تأويل رؤيا، فضلاً عن هذه الأزمة التي تواجههم. وهذا ما نعتقده
 بالإمام المهدي عليه السلام نفسه، فهو الذي سينقذ البشرية من زمان تملؤه
 الأزمات الحادة التي تحتاج إلى سياسة صحيحة، وبرمجة وتدبير
 لإنقاذهم، ولا تتحقق إلّا في الإمام المهدي عليه السلام وما يمتلكه من علوم من
 قبل الله تعالى، فهي علوم لدنيّة لا تُخطئ الواقع أبداً، كما كان ذلك في
 يوسف عليه السلام: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُنَّ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا
 تَحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]، وقصته من تدبير شؤون الناس والخروج من
 الأزمة الاقتصادية التي أشارت إليها الآية الكريمة واضحة للقارئ في
 كتب التفسير، فكذلك الحال هنا أنّ البشرية تتطلّع إلى نظام اقتصادي
 إلهي يتكفل حمايتهم لما تتعرض له من أزمات، أو منعطفات حادة جداً
 في إدارة السياسة المالية على صعيد العالم، وتحقيق ذلك لا يكون إلّا في
 دولة العدل الإلهي، وما دلت عليه الروايات كثيرة من تحقيق العدل
 والرفاه والسعادة وبجميع الأصعدة. وخير ما ننصح به قراءة كتاب تاريخ
 ما بعد الظهور - منجزات الإمام المهدي على الصعيدين الاجتماعي

والاقتصادي- للشهيد محمد صادق الصدر رحمته الله^(١)، من حيث نقله للروايات المتضمنة لأهمّ منجزات الإمام المهدي وبيان سياسته الزراعية والعمرانية وظهور المعادن والكنوز على سطح الأرض وكذلك بيان السياسة الماليّة لدولة العدل الإلهي من خلال بيانه لتلك الروايات وشرحها بأسلوب علمي واضح وشيق يغني القارئ بتحصيل رؤية واضحة وكافية بهذا الخصوص إن شاء الله تعالى.

أمّا نحن هنا، فلا نريد تكرار ما كتبه علماؤنا والمختصّون والمهتمّون بالشأن المهدي، وإنّما وظيفتنا هي إلفات نظر القارئ والمتدبّر لوجه العلاقة، أو التشابه بين قضية الإمام المهدي رحمته الله وقصة النبي يوسف عليه السلام وليس من شأننا سرد الوقائع والأخبار من جهة تاريخية، إلّا بقدر الاستشهاد وتوضيح الربط فيما بينها.

لذا نكتفي بالاستدلال على تحقيق العدل المطلق بجميع نواحي الحياة بالتأمّل بكلمات الرواية «يملأ الأرض عدلاً وقسطاً...»^(٢)، وهذا لا يتم إلّا بتدبير الله تعالى، وكما حصل ذلك في قصة يوسف عليه السلام حينما قال:

﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴾ [يوسف: ٥٥].

وبعبارة أخرى: أنّ القيام بالدور الحساس والمصيريّ من قبل خليفة الله تعالى في تدبير الأمور، لا يستلزم شعور الآخرين بهويته أثناء غيبته لحين

(١) الصدر، محمد صادق، تاريخ ما بعد الظهور: ص ٥٦٦.

(٢) الهلالي، سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس الهلالي: ج ٢، ص ٧٧٥.

الظهور، وكما حَصَلَ ذلك مع نبيِّ الله يوسف عليه السلام؛ إذ أَنَّهُم كانوا يرونه ولا يعرفونه، ويُدبِّر لهم، ويتعاطى معهم، ويؤثِّر في مصير الناس، ويحفظها من المنزقات وبدون أن يشعرون بأنَّه نبيٌّ وأنَّه مُسَدِّدٌ من الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ [يوسف: ٥٨].

الملخص:

- ١- كما توقَّفنا على آيات القرآن الكريم وتزوَّدنا بوقفات أخلاقية ومعرفية، كذلك نقف على هذه السورة المباركة، لتزوَّد بوقفات اعتقادية، والعقيدة في إمام الزمان عليه السلام هي خير ما نقف عليه.
- ٢- ذكرنا الروايات التي وردت في بيان التشابه بين قصَّة النبيِّ يوسف عليه السلام وإمام الزمان عليه السلام، وكذلك بيان جهات الاشتراك في مناسباتها.
- ٣- بينا أهمَّ المطالب التي قد تردَّ عليها شبهات، كالغيبية وما هو وجه انتفاع الناس في تلك الغيبية؟ وكذلك سبب عدم معرفة شخصية الإمام في زمن الغيبية؟
- ٤- بيان الدور المصيري الذي يقوم به خليفة الله في أرضه، كتدبير أمور الناس، أو حفظها من المنزقات، أو ما يواجهونه من أزمات، أو بسط العدل (يملأ الأرض قسطاً وعدلاً).



المحور الثالث

فوائد تدبّرية عامّة في سورة يوسف عليه السلام

فوائد تدبرية عامة في سورة يوسف ﷺ (١)

- ١- أن قصة النبي يوسف ﷺ هي أطول قصة في سورة واحدة من القرآن الكريم؛ لأن قصص الأنبياء جاءت مجزئة في عدة سور، فقد عرضت هذه السورة الأفكار على شكل حوادث، وعلى شكل تحليل، وعلى شكل بداية ونهاية، والعبرة لمن يضع يده على مغزى من مغازي القصة.
- ٢- إخوة يوسف ﷺ أقوياء وقد مكروا به، ووضعوه في غياهب الجب؛ ليتخلصوا منه، لكن الله (غالب على أمره) فصار عزيز مصر.
- ٣- من مقاصد هذه السورة، فوز وربح المُطيع لله، وخسارة وخيبة من عصاه.

٤- كان النبي يوسف ﷺ غريباً وفي ريعان الشباب أعزب، وفي الوقت نفسه عبداً، وقد دعت سيده إلى ارتكاب الفاحشة؛ لكنه لم يقترف

(١) هذه الفوائد مقتبسة ومستفادة من عدة مصادر، مع التصرف بانتقاء البعض منها، وإضافة ما وفّقنا إليه من تأملات، والمصادر هي: ١- دروس الشيخ ناصر العمر، موقع ملتقى أهل الحديث، مقالة تفسير سورة يوسف، ٢- الشيخ محمد صالح، من موقع أهل التفسير، مقالة تفسير سورة يوسف، ٣- عبد الرحمن القماش، موقع نداء الإيمان من كتاب الحاوي في تفسير القرآن، سورة يوسف، ٤- العلامة الطباطبائي، تفسير الميزان، سورة يوسف، ٥- ناصر مكارم الشيرازي، تفسير الأمثل، سورة يوسف، ٦- محمد جواد مُغنية، تفسير الكاشف، سورة يوسف.

المعصية، وجعله الله عزيزاً لمصر، كما قال تعالى لنبينا الأكرم: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

٥- شباك الشهوة يصعب النجاة منها، إلّا إذا جعلت بينك وبينها حجاب أمان، فغضّ البصر حجاب أمان، وعدم الخلوة بامرأة أجنبية حجاب أمان، وعدم مطالعة القصص المبتذلة والمثيرة حجاب أمان، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فبمجرد أن تتخطى حجاب الأمان ستجرّك الشهوة إلى شباكها دون أن تشعر.

٦- ﴿مَنْ نَفَسْ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، قائلها عظيم، فوائدها مكتنزة، موضعها شريف، فلا تشغل نفسك بقصص وروايات مزيفة، فشتان ما بين الإثنين.

٧- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ [يوسف: ٤]، لا تبخل على نفسك باستشارة أبيك؛ فإنه قد يفتح لك آفاقاً مغلقة.

٨- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ * قَالَ يَبْنَىٰ لَا نَقْضُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٤ - ٥]، لا تخبر أحداً عن رؤياك إلا للعالم، أو من تثق به، فهي قد تكون خيراً وتحسد عليه من عدوك.

٩- ﴿قَالَ يَبْنَىٰ لَا نَقْضُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، أخف أسرارك ومميّزاتك عن الآخرين، لأنه هناك نفوسٌ ضعيفة تحسد حتى الرؤيا، وأعلم أنّ طاقة الحسد تستيقظ لدى الأقربين ومن تربطك

بهم علاقة أكثر من غيرهم.

١٠- لا بأس أن يحذر الأخ من إخوته والقريب من قريبه إن علمت يقيناً أن فيه شراً.

١١- ﴿لَا تَقْضُصْ﴾ [يوسف: ٥]، لم يقل لا (تقصص)، ففك الإدغام، كأنه يرجع إلى التفاصيل. فلا توضح ولا تفصل أمورك.

١٢- ﴿قَالَ يَبْنَئِي لَا تَقْضُصْ﴾ [يوسف: ٥]، إذا كان ذلك من الأب الواحد على الإخوة فكيف بغيرهم؟.

١٣- ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦]، الاصطفاء والتعليم من الله تعالى، فاذا ذكر نعم ربك عليك، واذكر فضله حتى لا تغتر بنفسك.

١٤- ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦]، إعلم أنه لا اجتناء بلا ابتلاء.

١٥- ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦]، شكر النعم يجر إلى نعم أخرى، كما قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [ابراهيم: ٧] ، فكن خير شاكر لأعظم منعم.

١٦- ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّالِفِينَ﴾ [يوسف: ٧]، على الرغم من كل مكائد إخوة يوسف معه، لكن القرآن الكريم سمّاهم (إخوة)، فلا تجعل بعض المواقف مهما كانت مؤذية أن تنزع منك لباس الأخوة.

١٧- ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨]، صحيح أن قيمة المرء تظهر بأفعاله وخصاله فقد يفوق بها الجماعة، لكن

على الوالد أن يراعي ميله لمن كان أصلح أبنائه وأبرهم، كي لا يتوهم الباقون أنه يكرههم ولا يحبهم، كما حصل ذلك مع إخوة يوسف عليه السلام.

١٨- ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: ٨]، خطأوا والدهم، بحجة أنهم كثرة، فليس من الضرورة أن الحق مع الكثرة والغلبة، وكما قال تعالى: ﴿كَمْ مِّن فِئْتَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئْتَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩].

١٩- ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩]، و﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ١٠]، الخصومة وستائر الظلام تقع عادة عند أهل الظلم عندما يخططوا لجريمة وقد تكون هذه الخصومة فاضحة لهم أحياناً.

٢٠- ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَحُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيِّكُمْ﴾ [يوسف: ٩]، لم يعلموا أن الحب لا يُغادر مع الأجساد، فكم من حبّ تخلد وارتسم في القلب، على الرغم من مفارقة الأجساد.

٢١- ﴿يَحُلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيِّكُمْ﴾ [يوسف: ٩]، لأجل الانفراد أرادوا قتل أخيهم، فكم من مُحبّ قتل لأجل الانفراد وخصوصاً في زماننا هذا، وما نراه ونسمعه من قصص حب تنتهي بالجريمة.

٢٢- ﴿وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]، الفساد الحالي لا يكون صلاحاً مستقبلياً، كما هو أسلوب الشيطان عندما يوسوس ويقول: اعمل المعصية، ثم تب.

٢٣- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١]، مهما أخفى الابن وساوسه، فهي مفضوحة لدى والديه، فإن نظراته غالباً ما تكون عندهم مكشوفة.

٢٤- ﴿مَالِكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ [يوسف: ١١]، استخدموا لفظة الأمن في الوقت الذي قرروا فيه زعزعته، فدقق بعبارات الآخرين؛ فإنها قد تحوي شيئاً من أفكارهم، أو قد يُظهر الله تعالى خيط الخديعة على لسان المخادع نفسه.

٢٥- ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَنْصِحُونَ﴾ [يوسف: ١١]، وصفوا أنفسهم بالنصح، لكنه ليس كل ناصح ناصحاً، فقد عبّر الشيطان عن نفسه بالناصح عندما وسوس لأبينا آدم ﷺ وحواء: ﴿إِنِّي لَكُمَا لِمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الاعراف: ٢١].

٢٦- ﴿أَرْسَلَهُ مَعَاغِدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ﴾ [يوسف: ١٢]، لا تحرم طفلك من اللعب، فلست أكرم من النبي يعقوب ﷺ عندما وافق أن يرتع ويلعب، وابنك ليس بأكرم من يوسف ﷺ حتى لا يلعب، كباقي أقرانه.

٢٧- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٣]، كم يحزن والدك عندما تفارقه، ويخاف عليك عندما تغيب عنه، فافرق بقلب أبيك، فإنّ المحب لا يرضى بفراق حبيبه.

٢٨- ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدِّبُّ﴾ [يوسف: ١٣]، لا تهمل توقعك الأول فقد يكون فيه شيء من الإلهام.

٢٩- ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الدِّبُّ﴾ [يوسف: ١٣]، لا تعط للآخرين السيف الذي يغتالونك به، فقد تساعدهم أنت على مخططاتهم من حيث لا تشعر.

٣٠- ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، ﴿إِنَّا إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٢-١٤]، ليست كل الوعود يمكن تصديقها، فبعضها قد تكون خديعة.

٣١- ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥]، الاتفاق والإجماع والمؤامرة على أهل الحقّ دأب وعمل أهل الباطل والشر، فإنّ رفقاء السوء لا يفكّرون إلّا في مصالحهم عند اجتماعهم على الضلالة.

٣٢- ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦]، أصحاب الدموع الكاذبة، والمشاعر الزائفة يتربّصون الظلام؛ ليتستروا به من الأضواء الفاضحة، فليست كل الدموع صادقة.

٣٣- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا﴾ [يوسف: ١٧]، في الأمس أرادوه أن يرتع ويلعب، واليوم جعلوه حارساً لمتاعهم، وأصبحوا هم اللاعبين الراتعين.

٣٤- ﴿وَجَاءَ وَعَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، لعلّ تزوير الحقائق عادة اكتسبها الإنسان منذ القدم.

٣٥- ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ [يوسف: ١٩]، لاتستهن بالأشخاص الذين تصادفهم في طريقك، فقد يكونوا أئمن مما تظنّ.

٣٦- ﴿وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، كانوا زاهدين فيه راغبين بالتخلّص منه بثمان قليل من الدراهم؛ لأنّهم لا يعلمون منزلته عند الله، فكثيرة هي المواقف في الحياة، ونحن نسمع ونرى تخلّي البعض عن البعض الآخر لأسباب تافهة، حتى وصلت في بعض الأحيان داخل العائلة الواحدة.

٣٧- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ [يوسف: ٢٢]، إذا كان الأشدُّ هو الثلاثون عاماً، أو الأربعون كما جاء في بعض كتب التفسير^(١)، فكيف تصبر زليخا إلى أن يبلغ الأربعين وقد أشرف على الشيوخوخة! فالأقرب من الأقوال ببلوغ الأشدِّ هو أن الإنسان يقف جسمه عن النمو، وقد يتحقق ذلك في السابعة عشر من عمره، أو لعله في العشرين، والله أعلم.

٣٨- ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، عندما تراودك نفسك الأمارة بالسوء وتغلق الأبواب على قلبك عليك بذكر الله، وأعلم أن الله لا يظلم، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]. واذكر نعمه عليك: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

٣٩- ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ [يوسف: ٢٣]، فيه قولان^(٢): الأول: يعود الضمير (إنه) على الله جلَّ جلاله، فهو الذي آواه وأحسن مثواه. والثاني: قد يعود الضمير على عزيز مصر الذي قد قال عندما اشتراه لامرأته: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١].

وهنا قال يوسف: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، والأول أصح؛ لأن

(١) انظر: الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١١، ص ١٢٠-١٢١.

(٢) انظر: المصدر نفسه: ص ١٢٦.

يوسف موحد ولا يرى شرك الوثنيّة، فليس ممن يتخذ أرباباً من دون الله، كما أنه ليس ممن يوحد الله قولاً ويشرك به فعلاً بإعطاء استقلال لهذه الأسباب الظاهرة تؤثر من دون إذن الله تعالى، فيكون المعنى: أن ربّه الذي يتولّى تدبير أمره.

٤٠- ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهٖ﴾ [يوسف: ٢٤]، عندما تهّمّ النفس بالمعصية قد يهّمّ القلب بها كذلك، لكن الله تعالى يصرف السوء عنك إن كان قلبك مخلصاً له: ﴿إِنَّهُ مِنَّ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

٤١- ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكٰذِبِينَ * وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦-٢٧]، ذُكِرَ القميص في أوّل القصة: ﴿وَجَاءُو عَلَىٰ قَمِيصِهٖ يَدْمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، وفي وسط القصة: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٨]، وفي آخر القصة: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذَا فَالْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيْرًا﴾ [يوسف: ٩٣]، فالقميص الأوّل مُزَقّ افتراءً، والقميص الثاني مُزَقّ افتراءً أيضاً، ولكن القميص الثالث كان آية من آيات الله!!!

٤٢- ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِيْنَةِ﴾ [يوسف: ٣٠]، الفعل (قال) مذكر مع أن الفاعل (نسوة) مؤنث، فعمله تكون إشارة إلى أن القول في حينها كان يشمل الذكور والإناث، لكن النساء كنّ أكثر اهتماماً بهذا الموضوع، بدليل اجتماعهنّ وإصرارهنّ على رؤيته ومن ثمّ قطعنّ أيديهنّ، والله

أعلم.

٤٣- ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأِيَهُنَّ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴿يوسف: ٣١﴾،
المستفاد من الآية أننا نلاحظ ذكاء امرأة العزيز باختيارها دليلاً مادياً لا
يمكن إنكاره وهو أن تعطي سكيناً لكل واحدة منهن، فيسيل الدم،
ليكون عذراً لها وإسكاتهنَّ.

٤٤- ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَوْدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴿يوسف: ٣٢﴾. يتبين من هذه القصة كم كان ذلك الوسط منفلتاً، فهنَّ
غير قادرات على أن يمنعن أنفسهنَّ مما وقعن فيه، وكان الأجدر بهنَّ أن
يحتشمن؛ لأنهنَّ من أشرف الناس، أو لأنهنَّ في بيت العزيز وما يتمتع
به من سمعة وشرف أوصلته إلى أن يكون عزيزاً للملك، وقد يكون هذا
الانفلات في الطبقة العالية فقط؛ لأنه بطبيعة الحال لا تدعو السيدة امرأة
العزيز، إلّا أقرانها من نساء الأكابر، وقد لا يكون بحسب عرفهم انفلاتاً
أصلاً، والله أعلم.

٤٥- ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴿يوسف: ٣٣﴾، إشارة إلى
دعوة النساء الأخريات له أيضاً، على الرغم من أن امرأة العزيز كانت هي
الطالبة والأمرة، لكن يوسف عليه السلام استعاذ بالله وحبَّب لنفسه السجن وطلبه
هنا ﴿السِّجْنُ﴾ أفضل من فعل الفاحشة.

٤٦- ﴿وَالَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿يوسف: ٣٣﴾،
بمعنى: أن الله سبحانه قد سمع قول يوسف عليه السلام وكشف عنه كيدهنَّ،

إذن: أن الله يسمع كل من يدعوه ويلتجئ إليه.

٤٧- ﴿ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ﴾ [يوسف: ٣٥]، لم يكن القرار من زليخا وحدها بأن يسجن، بل كان بلسان الجميع (بدا لهم)، ومن جهة أخرى جاء الضمير بالتذكير، ولم يقل: (لهن)، أو (لها) دلالة على أن الكيد كيد النساء، والحكم والقرار جاء من الرجال، وما أكثر هذه الحالة في مجتمعاتنا اليوم.

٤٨- ﴿لَيْسَ جُنَّتُهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]، السجن تارة لأمر حقير، وتارة أخرى لأمر شريف، فإن كان الثاني، فهو رفعة وعلاوة وينقلب مُنحة ومكانة، كما يُقبع الأولياء، كأمثال العلماء والمجاهدين في سجون الظلمة المعتدين.

٤٩- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧]، قد يكون الطعام الذي أشار إليه النبي يوسف ﷺ هو ما رآه السجينان في منامهما (العنب والخبز)، أي: أنبأكما قبل أن يتحوّل الرمز إلى حقيقة و واقعة.

٥٠- ﴿إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧]، هنا أرجع يوسف ﷺ علمه إلى ربه سبحانه وهو ما عَلَّمَنَا بِهِ النَّبِيُّ ﷺ وَأَثْمَنَّا الْأَطْهَارَ ﷺ بِيكَالٍ وَإِرْجَاعِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فليستفد معبرو الرؤيا من هذا الدرس.

٥١- ﴿يَصْصِحِّي السِّجْنَ﴾ [يوسف: ٣٩]، خطاب رقيق بوصف النبي يوسف ﷺ لهما بالصاحبين على الرغم من أنه قيّد صحبتهما بالسجن

(ياصاحبي السجن)، فهي صحبة مكانية لا عقائدية.

٥٢- ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [يوسف: ٤٠]، استعمل النبي يوسف (عليه السلام) ضمير الجمع على الرغم من أن خطابه كان موجهاً للسجينين، وبذلك يشمل الكلام صاحبي الرؤيا على الخصوص والسجناء على العموم؛ لأنّ الجميع كانوا على غير الجادة والصواب.

٥٣- ﴿ يَصْحَبِي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١]، مرة أخرى يخصّ السجينين بخطابه، فهذا فنّ الخطاب، وعلى الخطيب الاستفادة من هذا الدرس.

٥٤- ﴿ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ﴾ [يوسف: ٤٢]، يعود الضمير (ك) في (ربك) و (هـ) في (فأنساه) و(ربّه) على السجين؛ والدليل: أنّ الساقى هو الذي نسي ما ذكر به في قوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتَبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف: ٤٥]، أي: تذكر بعد حين من الدهر، لا كما يثيرها البعض من شبهة بأنّ النبي (عليه السلام) تعلق بالأسباب وترك توكله والرضا بقضاء الله تعالى.

٥٥- ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ [يوسف: ٤٣]، هذا فضل من الله تعالى على الرائي وهو الملك لما فيه مصلحة تخصّ الناس وإلّا لو كان شخصاً عادياً لما أُعير لها أيّ اهتمام.

٥٦- ﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾ [يوسف: ٤٤]، وهذه مشكلة الملوك والرؤساء، فإنّ الملاء والحواشي إذا اقتربوا منهم وكانوا من أهل السوء فسيضلّونهم ويعتموا عليهم الحقائق، كما ضلّلوا الملك على الرغم أنّ الرّوياً أصبحت سبباً في نجاة البلد بأجمعه.

٥٧- ﴿قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]، استغلّ يوسف ﷺ الفرصة؛ ليثبت براءته، ولم يستعجل في الخروج من السجن، فلو أسرع في ذلك لما نال المنزلة: ﴿أَتُوْنِي بِهِمْ أَتَّخِذُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤]، وهذه إشارة لنا؛ لكي لا نستعجل ولا نفوّت الفرصة المتاحة لنا.

٥٨- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]، الصديق مبالغة في كثرة الصدق، لما رآه الساقى من يوسف ﷺ في السجن وتأويل رؤياه والطعام، وفي صدق دعوته، لذا على الداعي، والخطيب أن يحذر الكذب أشد الحذر، أو كثرة التورية، لأنّه إن لم يكن صديقاً في عيون من يدعوهم، فلا يؤثر كلامه فيهم شيئاً.

٥٩- ﴿مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، من كمال خلق يوسف ﷺ أنّه لم يقل: التي راودتني ويخصّص بذلك امرأة العزيز.

٦٠- ﴿الَّذِينَ حَصَّصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]، هذا قول امرأة العزيز وهو اعتراف بالحقيقة الذي هو أصعب الأشياء عند المتكبرين، لكن يبدو أنّ السيدة زليخا آمنت بربّ يوسف لما رآته من خلق يوسف ﷺ.

٦١- ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]

٥٢]، السائل كان الملك: ﴿مَا حَطْبُكُمْ إِذْ رَاودْتَنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِهِ﴾

[يوسف: ٥١]. فأجابت النسوة: ﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١]، فقالت امرأة العزيز: ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]، والإشارة هنا إلى أن يوسف عليه السلام قد علم أن النسوة سيعترفن بما حصل وإلا فمن المحتمل أن تبقى النسوة وامرأة العزيز على رأيهن الأول وإنكارهن، لذلك وردت أقوال عند المفسرين^(١) عن هذه الآية: ﴿أَنِّي لَمْ أَخْنَهُ بِالْغَيْبِ﴾، هل هي من كلام امرأة العزيز أم من يوسف عليه السلام؟ ولكن الأقرب أنها من امرأة العزيز بقرينة أنها اعترفت: ﴿الْفَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾، وكذلك لتعلم الملك والحاضرين أنها لم ترتكب الخيانة: ﴿أَنِّي لَمْ أَخْنَهُ﴾، بل دفعتها نفسها لارتكابها، ولم يقع شيء، ثم قالت: ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَمْتَنِي﴾ [يوسف: ٥٣]، فلا توجد مناسبة؛ ليكون القائل يوسف عليه السلام وقد بينت في لحظتها براءته، فلا داعي أن يقال غير ذلك.

٦٢- ﴿إِلَّا مَا رَجَمْتَنِي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣] هذا دليل على أنها أصبحت مؤمنة واعتبرت تصحيحها للواقعة سبباً للغفران والرحمة وكما ورد: «المعترف بالذنب كمن لا ذنب عليه»^(٢). وتصحيح الخطأ هو أول خطوة في التوبة.

(١) الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ج ١١، ص ١٩٩.

(٢) ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢، ص ٧٤.

٦٣ - ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤]، إنَّ من أهمِّ المؤهلات التي أهلت يوسف عليه السلام لهذه المنزلة هي: التقوى، الصبر، الإحسان، الخلق، الصدق، الدعوة، وغيرها.

٦٤ - ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]، يتّضح: أنَّ الملك كان من أصحاب العقل؛ لأنَّ الإنسان يُحكَّم عليه من الكلام، والملك هنا لم يصدر الحكم حتّى أن كلمه، لكن الكثير من المواقف في وقتنا الحاضر نرى إطلاق الحكم وترتيب الأثر من سماع كلام طرف واحد دون الاستماع إلى الآخر.

٦٥ - ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، لما عزم الملك أن يجعله من المقرّبين كان طلب يوسف عليه السلام تقديم المصلحة العامّة، وخدمة الناس ولم يختر التسلط والمكانة التي أراها الملك له باستخلافه لنفسه. ومن هذا فليتنفع المؤمنون بتقديم المصلحة العامّة على المصلحة الشخصية.

٦٦ - ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، ارتفاع شأن العبد هو من رحمة الله تعالى عليه بعد انتهاء بلاء الضراء (السجن) ودخوله في ابتلاء السراء، وهنا قليل من يثبت؛ لأنَّ الكثير من الناس قد لا يرى حال السراء بلاءً.

٦٧ - ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أٰبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَنَا الْكَيْدَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا نَكَتَلْ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]، أنَّ الارتباط المعنوي لا ينقطع وإن انقطع الارتباط المادي، فمهما كان الحبيب بعيداً عن حبيبه يبقى الشعور

والأحاسيس رابطاً بينهما وكأنهما متقاربان، فيعقوب عليه السلام في بداية الأمر رفض اصطحاب أخيه بنيامين معهم؛ لكنه وافق بعدها وكأنه شعر بأن عزيز مصر هو يوسف عليه السلام جرّاء ما شاع عن عزيز مصر من تأويل رؤيا الملك، وتنصيبه لهذا المنصب، والله أعلم.

٦٨- ﴿ثُمَّ أَذَنَّ مَوْذَنٌ أَيَّتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَّرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]، السقاية فقدت وهم من وضعوها فكيف نادى المَوْذَنُ (إنكم لسارقون)؟ فقد يكون المَوْذَنُ اجتهد من نفسه وعَبَّرَ عن الفقد بالسرقة وهي دلالة على تضخيم الأمور، أو أنه لم يكن يعلم بوضعها، أو قد يكون تكلم معهم بحقيقتهم الماضية عندما سرقوا يوسف عليه السلام من أبيه لا على حالتهم الراهنة بفقد السقاية.

٦٩- ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا * قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧١]-
٧٢]، لم يقل إخوة يوسف عليه السلام: ماذا سرقنا! بل قالوا: ماذا نفقدون؟ فجاء الجواب متناسباً: نفقد صواع الملك.

٧٠- ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعْنَا عِنْدَهُ﴾ [يوسف: ٧٩]، هنا الكلام من يوسف عليه السلام لأنه لم يقل: من سرق، بل قال: من وجدنا، أو لعلّ الكلام من أحد جنود يوسف؛ لكنه يتكلم باسم يوسف عليه السلام.

٧١- ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]، هذا دليل على أن يوسف عليه السلام كان حاضراً؛ لأن القرآن عَبَّرَ (فبدأ)، وكذلك (قال معاذ الله) و (أنا به زعيم)، المقصود منها يوسف عليه السلام لا على أحد جنود يوسف عليه السلام، وكذلك أن الخاطرة التي

حضرت ليوسف عليه السلام عبّر عنها القرآن الكريم ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَٰ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]، وهي: أن السارق في شريعة الإخوة يتحوّل إلى دين الملك، وكذلك حضور يوسف عليه السلام ضروري؛ ليتيقن بنفسه من تفتيش رحلهم؛ لأنّ الإنكار والكذب وارد من الإخوة، كما قالوا في سياق الآية عن أخيهم: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧] حيث ردّ عليهم يوسف عليه السلام ﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

٧٢- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ [يوسف: ٨٣]، التسويل بمعنى: الوسوسة، أي: وسوست لكم أنفسكم أمراً، وهنا قد أثار البعض شبهة: أنّه كيف يكون النبيّ معصوماً ويتهّم أبناءه بالكيد قبل أن تثبت عنده الحقيقة، فعمل مراد يعقوب النبيّ عليه السلام: أن أنفسكم صوّرت لكم أن بنيامين سارق وما هو بسارق بدليل أنّه لم يعاقبهم، أو يأخذهم بظنه؛ لأنّ الظنّ لا يغني عن الحقّ شيئاً.

٧٣- ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣]، سأصبر على ما أصابني فإنّ الصبر جميلٌ، وهذا شعار الصالحين، نعم؛ إنهم يحزنون؛ لكنهم على الله يتوكلون.

٧٤- ﴿يَبْنِيْ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَٰ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧]، لعلّ النبيّ يعقوب عليه السلام كان مُرَجِحاً أنّ عزيز مصر هو ابنه يوسف عليه السلام؛ لأنّه كان عارفاً بالطريقة التي أخذ فيها أخوه بنيامين، فهي لا بدّ من تدبير من

كان عارفاً على شريعة يعقوب عليه السلام، وهنا يعطينا باعث أمل، فكلمة (تحسسوا) يُستفاد منها العمل بكلّ الحواس، فاقتران الأمل بالعمل عكس اقتران اليأس بالكسل.

٧٥- ﴿ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنِّي بَابٍ وَاحِدٍ وَأَدْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴾ [يوسف: ٦٧]، درس نتعلّمه من النبيّ يعقوب عليه السلام عندما خاف على أولاده من أن يراهم الناس فتصيبهم عين فتنالهم التفرقة بدل جمعهم، لذلك علينا أن نراعي ذلك عندما نخرج مع جميع أبنائنا، أو أخوتنا قاصدين مكاناً ما.

٧٦- ﴿ وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [يوسف: ٦٧]، ليس من شأن يعقوب عليه السلام ولا شأن أحدٍ أن يكون له الأمر ولا دافع لقضاء الله تعالى غير الله تعالى.

٧٧- ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ [يوسف: ٨٨]، انكسار واسترحام مع الشكوى واضح من إخوة يوسف عليه السلام كذلك مع طلب التصدّق، وما أجمل هذه الكلمات أن نقولها عند دعائنا لله عزّ وجلّ ونقول له: قد جئناك ببضاعة مزجاة، أي: لا تليق، لكن الشدّة بلغت غايتها، فتصدّق علينا وأنت خير المتصدّقين.

٧٨- ﴿ قَالُوا أَيْنَ نَكَ لَأَنَّتَ يُوسُفُ ﴾ [يوسف: ٩٠]، قالوا هذا وانتظروا الجواب إلى أن قال يوسف عليه السلام: ﴿ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي ﴾ [يوسف: ٩٠]، بمعنى: إذا اجتمعت عندك شواهد وقرائن على شيء فلا تقطع به، فهي تُقَرِّبُ القطع ولم تصل له.

٧٩- ﴿ قَالَ لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ﴾ [يوسف: ٩٢]، التثريب هو اللوم،

لاحظوا كلمات الأدب بعد أن أقرَّ الإخوة بخطأهم، وتبيّنت لهم إرادة الله سبحانه هي الغالبة، فعفى عنهم يوسف (عليه السلام) ولم يؤاخذهم حتى بالشراب الذي هو أدنى درجة قد تصدر في مثل هذه المواقف.

٨٠- ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣]، القميص الأول: ﴿وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]، جلب إلى يعقوب البلاء.

وأما القميص الثاني، ففيه شفاء، والفرق بموقف الإخوة أنهم جاءوا بالقميص الأول معزيين وبالثاني مهثنين.

٨١- ﴿فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣]، معجزة القميص الخارقة لا تختلف عن نار إبراهيم (عليه السلام)، ولا عن عصى موسى (عليه السلام)، ولا كلام عيسى (عليه السلام) في المهد، فهؤلاء أنبياء (عليهم السلام) ويوسف (عليه السلام) وأبوه كذلك من الأنبياء، فلا عجب ولا استغراب أن تكون معجزته قميصاً، وكان فيه الشفاء.

٨٢- ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٧ - ٩٨]، لم يستغفر لهم مباشرة، فلعله أجل ذلك إلى السحر، كما يقول المفسرون، أو أنه قد أجله لكي يصفح عنهم يوسف (عليه السلام)؛ لأن كليهما (يعقوب ويوسف) (عليهما السلام) كانا أصحاب حق فيما فعله الأبناء.

٨٣- ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ﴾ [يوسف: ٩٩]، إذا كنت في سفر، أو لأمر، وطال غيابك عن أهلك مما أدّى إلى امتداد حزنهم

عليك، ثم من الله باللقاء وكان من بين الملاقين أبواك، فعليك أن تبدأ الترحيب بهم أولاً، وضمهم إليك كما فعل يوسف عليه السلام وهذا هو أدب الأنبياء عليهم السلام.

٨٤- ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]، قد يُبتلى الإنسان بالضراء فعليه أن يصبر، وإن ابتلاه بالسراء فعليه أن يشكر، فهذا يوسف عليه السلام بدأ بذكر إحسان ربه في إخراجه من السجن، ثم ذكّر نعمة لقائه بأهله ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

٨٥- ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف: ١٠٠]، بعد الصلح والمؤاخاة لا تذكر سلبيات من أساء إليك، فهذا يوسف عليه السلام لم ينسب الفعل لإخوته.

٨٦- ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، اللطيف من أسماء الله تعالى، ومعناه الرفق بكل ما يُحيط الإنسان من بلايا فيجعل عوامل الشدة رخاء وراحة.

٨٧- ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١]، درس نتعلم منه أدب الخطاب والإلقاء، فبعد أن تحدث يوسف عليه السلام بنعم الله عليه توجه إليه شاكراً منقطعاً مخاطباً ربه بعد أن ترك مخاطبة أبيه.

٨٨- ﴿أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠١]، أنا تحت ولايتك يا ربي ولا أملك لنفسي شيئاً.

٨٩- ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، نهاية الخطاب

يختم بالدعاء فبعد أن شكرَ وحمدَ، ثم شهدَ بولاية الله تعالى ختم كلامه بالسؤال والطلب وهو سؤال الإسلام في الدنيا، والدخول في زمرة الصالحين في الآخرة.

٩٠- ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، قصة يوسف عليه السلام بهذا التفصيل هو وحي من الله تعالى لنبِيِّه الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، لتدل على صدق نبوته؛ لأنه لم يكن حاضراً عند إخوة يوسف عليه السلام وشاهدهم وهم يمكرون، ولم يسمعها من أحدٍ.

٩١- ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، بيان واضح من الله عزَّ اسمه أنَّ الأكثر من الناس منجذبون للدنيا وزينتها على الرغم من حرص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ على أن يكونوا مؤمنين.

٩٢- ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]، هناك آيات كثيرة سماوية، وأرضية تدل على نظام الخالق البديع الذي يستدعي توحيدَه بالتوحيد الخالص والذي دعا إليه نبينا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ والحال أنَّ أكثرهم معرضون.

٩٣- ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، أي: أنَّ أكثر الناس يقرّون بوجود الخالق ولكنهم يجعلون له شريكاً، والمراد هنا بالشرك: هو الشرك الخفي، كالتعلّق بالأسباب، ونحوها.

٩٤- ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦-١٠٧]، تهديد في حال تعلّق القلوب بالله وبغيره، كمن يطلب العزة من

الله وبنفس الوقت يطلبها من غيره رغم أنه يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، وتراه مضطرباً، كالذي يطرق كل باب طالباً للرزق وقد ضمنه له الله تعالى.

٩٥- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ١٠٨]، السبيل بمعنى: الطريق وكلاهما يُذكر ويُؤنث، فنقول: هذا سبيلي، أو هذه سبيلي.

٩٦- ﴿أَنَا وَمَنْ آتَبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]، أتباع الأنبياء كالأنبياء في الدعوة، يدعون إلى الإيمان بالله واليوم الآخر وإقامة الحق والعدل وذلك بالحكمة والموعظة الحسنة.

٩٧- ﴿حَقِّقْ إِذَا أَسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ﴾ [يوسف: ١١٠]، الاستيئاس بمعنى: الاقتراب من اليأس، فيُعدّ يأساً عرفاً وليس باليأس حقيقة.

٩٨- ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]، الضمير في قصصهم يعود للأنبياء، ومنهم يوسف عليه السلام صاحب القصة في السورة، وفيها عبرة لأصحاب العقول، والعبرة بمعنى العبور فالاعتبار يوصلك إلى برّ الأمان.

٩٩- ﴿تَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [يوسف: ١١١]، إن كل ما جاء في القرآن ومنه قصة يوسف عليه السلام هو حقّ وصدق، فهي هدى لمن يطلب الهداية والرحمة لمن يعمل بها.

١٠٠- ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ١١١]، التفصيل والبيان في كل شيء، فمن أراد معرفة كل شيء عليه أن يذهب ويرجع إلى القرآن الكريم.

خاتمة الكتاب

أنّ من يواظب على قراءة القرآن بتدبّر، كما بيّنا، ستؤدّي به إلى حياة ملؤها النور والهداية، وتمنحه قوّة في إرادته، وصحّة في نفسه، وعلوّاً في همّته، وهذه هي مرتكزات النجاح الحقيقي.

ومن يُعرض عن تدبّر القرآن، واقتصرت همّته على معرفة ألفاظه وتراكيبه اللغوية، فلن يصل إلى كنوزه الخفيّة، وحقائقه السنيّة، بل يبقى عند الخطوة الأولى من مراحل عدم هجران القرآن، فلا تؤدّي به إلى التوجّه نحو فهم قرآني متين بتطبيق آياته على واقعه المعاش والتحصّن بها والامتثال لها.

فنسأل الله تعالى أن يتقبّل هذا الجهد بقبول حسن، ويجعله لنا مُنجياً يوم الحساب، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلب سليم، ويجعله ذخراً يوم نلقاه، وأن يوفّقنا لتقديم الأجزاء اللاحقة ضمن مشروع (معاً لتدبّر القرآن) ويكتبنا من خدّمة كتابه الكريم، إنّه سميعٌ مُجيب. آمين رب العالمين.

أركان الخزعلي

﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلِكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ
وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

[التوبة: ١١٥]

المصباح والمرآة

١. القرآن الكريم
٢. ابن أبي جمهور، محمد بن زين الدين، عوالي اللثالي العزيزية في الأحاديث الدينية، الناشر: دار سيد الشهداء ، ط١، قم - إيران، ١٤٠٥ ق.
٣. ابن بابويه، محمد بن علي، عيون أخبار الرضا عليه السلام، الناشر: نشر جهان، ط١، طهران - إيران، ١٣٧٨ ق.
٤. ابن بابويه، محمد بن علي، كمال الدين وتمام النعمة، الناشر: إسلاميه، ط٢، طهران - إيران، ١٣٩٥ ق.
٥. ابن شعبه الحراني، الحسن بن علي، تحف العقول، الناشر: جامعه مدرسين، ط٢، قم - إيران، ١٤٠٤ ق، ١٣٦٣ ش.
٦. ابن طاووس، علي بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات، الناشر: دار الذخائر، ط١، قم - إيران، ١٤١١ ق.
٧. ابن فهد الحلبي، أحمد بن محمد، عدة الداعي ونجاح الساعي، الناشر: دار الكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٧ ق.
٨. ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - دار صادر، ط٣، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ.
٩. الأمدي، عبد الواحد بن محمد، غرر الحكم، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، قم - إيران، ١٤١٠ ق.
١٠. البحراني، هاشم بن سليمان، البرهان في تفسير القرآن، الناشر: مؤسسه بعثت، ط١، قم - إيران، ١٣٧٤ ش.

١١. البحراني، سيد هاشم، البرهان في تفسير القرآن، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، ١٤٢٧هـ.
١٢. البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، المحاسن، الناشر: دار الكتب الإسلامية، قم - إيران، ١٣٧١ ق.
١٣. الحرّ العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، الناشر: مؤسسة آل البيت (عليه السلام)، قم - إيران، ١٤٠٩ ق.
١٤. الحسن، طلال، من الخلق إلى الحق، أبحاث السيد كمال الحيدري، دار فراقده، قم - إيران، ١، ١٤٢٦هـ.
١٥. الحيدري، كمال، منطق فهم القرآن، الناشر: دار فراقده، ط ١، قم - إيران، ١٤٣٣ ق - ٢٠١٢ م.
١٦. النخسبي، حسين بن حمدان، الهداية الكبرى، الناشر: البلاغ، بيروت - لبنان، ١٤١٩ ق.
١٧. الخميني، روح الله، مصباح الهداية والولاية، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ١، بيروت - لبنان، ١٤٢٧هـ.
١٨. زيبيدي، محبّ الدين، محمد مرتضى حسين، تاج العروس من جواهر القاموس، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ١٤١٤هـ.
١٩. الزركشي، بدر الدين محمد، البرهان في علوم القرآن، الناشر: دار التراث، ط ٣، ١٤٠٤هـ.
٢٠. الشهيد الثاني، زين الدين بن علي، منية المرید، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي، ط ١، قم - إيران، ١٤٠٩ ق.
٢١. الشيرازي، محمد، الحكمة المتعالية، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت، ط ٤.
٢٢. الشيرازي، مكارم، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الناشر: مدرسة الإمام علي بن ابي طالب (عليه السلام)، ط ١، قم - إيران، ١٤٢٦ ق ، ١٣٨٤ ش.
٢٣. صدر الدين الشيرازي، محمد بن إبراهيم، شرح أصول الكافي، الناشر: مؤسسه

- مطالعات وتحقيقات فرهنگي، ط ١، طهران - ايران، ١٣٨٣ ش.
٢٤. الصدر، محمد صادق، فقه الأخلاق، الناشر: دار ومكتبة البصائر، بيروت - لبنان، ١٤٣٣ ق، ٢٠١٢ م.
٢٥. الصدر، محمد صادق، مئة المئان في تفسير القرآن، الناشر: دار الاضواء، ط ١، بيروت - لبنان، ١٤٣٣ ق - ٢٠٠٢ م.
٢٦. الصدر، محمد صادق، موسوعة الإمام المهدي عليه السلام تاريخ الغيبة الصغرى، الناشر: دار مكتبة البصائر، بيروت - لبنان، ١٤٣٢ هـ.
٢٧. الصدوق، محمد بن علي، معاني الأخبار، الناشر: دفتر الانتشارات الإسلامية التابعة لجامعة المدرسين للحوزة العلمية، قم - ايران، ١٤٠٣ ق.
٢٨. الصفار، محمد بن حسن، بصائر الدرجات في فضائل آل محمد صلى الله عليهم، الناشر: مكتبة آية الله المرعشي النجفي، ط ٢، قم - ايران، ١٤٠٤ ق.
٢٩. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الناشر: مؤسسة دار المجتبي، قم - ايران ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.
٣٠. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الناشر: مؤسسة الأعلمي، ط ١.
٣١. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، الناشر: دفتر الانتشارات الإسلامية التابعة لجامعة المدرسين للحوزة العلمية، قم، ط ٥، قم - ايران، ١٤١٧ ق.
٣٢. الطبرسي، علي بن حسن، مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، الناشر: المكتبة الحيدرية، ط ٢، النجف - العراق، ١٣٨٥ ق، ١٩٦٥ م، ١٣٤٤ ش.
٣٣. الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، الناشر: دار المرتضى، ط ١، بيروت - لبنان، ١٤٢٧ ق، ٢٠٠٦ م.
٣٤. الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، الناشر: ناصر خسرو، ط ٣، طهران - ايران، ١٣٧٢ ش.
٣٥. الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجد وسلاح المتعبّد، الناشر: مؤسسة فقه الشيعة، ط ١، بيروت - لبنان، ١٤١١ ق.

٣٦. العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، الناشر: المطبعة العلمية، ط ١، طهران - إيران، ١٣٨٠ق.
٣٧. الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، الناشر: دار المعرفة، بيروت - لبنان.
٣٨. القتال النيشابوري، محمد بن أحمد، روضة الواعظين وبصيرة المتعظين، الناشر: انتشارات رضی، ط ١ قم - إيران، ١٣٧٥ ش.
٣٩. الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الطبعة الأميرية، ط ٣.
٤٠. الفيض الكاشاني، محمد محسن، تفسير الصافي، الناشر: مكتبه الصدر، طهران - إيران، ١٤١٥ ق
٤١. الكاشاني، عبد الرزاق بن جلال الدين، اصطلاحات الصوفية، الناشر: مؤسسة انتشارات حكمت، ط ١، طهران - إيران، ١٤٢٣هـ
٤٢. الكفعمي، إبراهيم بن علي، المصباح للكفعمي (جنة الأمان الواقية)، الناشر: دار الرضي (زاهدي)، ١٤٠٥ ق.
٤٣. الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي، الناشر: دار الكتب الإسلامية، ط ٤، طهران - إيران، ١٤٠٧ق.
٤٤. المازندراني، محمد صالح بن أحمد، الكافي - الأصول والروضة، الناشر: المكتبة الإسلامية، ط ١، طهران - إيران، ١٣٨٢ ق.
٤٥. المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي، مرآة العقول في شرح أخبار الرسول، الناشر: دار الكتب الإسلامية، ط ٢، ١٤٠٤ هـ
٤٦. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٣ ق
٤٧. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، مؤسسة النشر والطبع، ط ١، بيروت - لبنان، ١٤١٠هـ
٤٨. مجموعة مؤلفين، معجم الوسيط، الناشر: مجمع اللغة العربية.
٤٩. المسعودي، علي بن حسين، إثبات الوصية، الناشر: انصاريان، ط ٣، قم - إيران،

١٣٨٤ ش، ١٤٢٦ ق.

٥٠. المعرفة، محمد هادي، التأويل في مختلف المذاهب والآراء، ط١، الناشر: المجمع العلمي للتقريب بين المذاهب، مكتبة نكار، إيران - طهران، ١٤٢٧ هـ، ٢٠٠٦ م.

٥١. المعرفة، محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن، الناشر: ذوي القربى، ط٣، قم - إيران، ١٤٣٢ هـ

٥٢. مغنيّة محمد جواد، تفسير الكاشف، الناشر: دار الكتب الإسلامية، ط١، طهران - إيران، ١٤٢٤ هـ

٥٣. المفيد، محمد بن محمد، كتاب المزار - مناسك المزار (للمفيد)، الناشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ مفيد رحمته الله، ط١، قم - إيران، ١٤١٣ ق.

٥٤. منسوب إلى الإمام جعفر بن محمد عليهما السلام، مصباح الشريعة، الناشر: الأعلمي، ط١، بيروت - لبنان، ١٤٠٠ ق.

٥٥. النزاقى، محمد مهدي، جامع السعادات، الناشر: دار المرتضى، ط١، بيروت - لبنان، ١٤٢٧ هـ

٥٦. النوري، حسين بن محمد تقي، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الناشر: مؤسسة آل البيت عليهم السلام، ط١، قم - إيران، ١٤٠٨ ق.

٥٧. النيشابوري، أبو القاسم عبد الكريم، لطائف الإشارات في تفسير القرآن، الناشر: مركز نشر التراث المخطوط، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي.

٥٨. الهاللي، سليم بن قيس، كتاب سليم بن قيس الهاللي، الناشر: الهادي، ط١، قم - إيران، ١٤٠٥ ق.

٥٩. اليزدي، الحائري، الشيخ علي، إلزام الناصب في إثبات الحجّة الغائب، الناشر: الأعلمي للمطبوعات، ط١، بيروت - لبنان، ١٤٢٢ هـ

٦٠. فراهيدي، خليل بن أحمد، كتاب العين، الناشر: الهجرة، إيران - قم، ط٢، ١٤٠٩ هـ

٦١. جوهرى، إسماعيل بن حمّاد، الصحاح، الناشر: دار العلم، لبنان - بيروت، ط١، ١٣٧٦ هـ

٦٢. الراغب الإصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، الناشر: دار العلم، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٢هـ.
٦٣. الخميني، روح الله، الآداب المعنوية للصلاة، الناشر: مؤسسة الأعلمي، ط٢، بيروت- لبنان، ١٤٠٦هـ.
٦٤. د. خالد عبد الكريم، مفاتيح تدبر القرآن والنجاح في الحياة، الناشر: مكتبة الملك فهد، ط٢، الرياض- السعودية، ١٤٢٨هـ.
٦٥. العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي، الناشر: المطبعة العلمية، ايران- طهران، ط١، ١٣٨٠هـ.
٦٦. الشعيري، محمد بن محمد، جامع الأخبار، الناشر: المطبعة الحيدرية، العراق- نجف، ط١.
٦٧. الخوئي، أبو القاسم، البيان في تفسير القرآن، الناشر: أنوار الهدى، ط٨، ١٤٠١هـ.
٦٨. المعرفة، محمد هادي، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، الناشر: الجامعة الرضوية، ط٢، ١٣٨٣ش.
٦٩. الرضائي الإصفهاني، محمد علي، دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، الناشر: مركز المصطفى، ط٢، ايران- قم، ١٣٨٩ش.
٧٠. العك، خالد عبد الرحمن، أصول التفسير وقواعده، الناشر: دار النفائس، ط٢، بيروت- لبنان، ١٤٠٦هـ.
٧١. الهاشمي، ميرزا حبيب الله، منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الناشر: المكتبة الإسلامية، ط٤، ايران- طهران، ١٤٠٠هـ.
٧٢. النوري، حسين، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الناشر: مؤسسة آل البيت، ايران- قم، ط١، ١٤٠٨هـ.
٧٣. علم الهدى، علي بن حسين، أمالي المرتضى، الناشر: دار الفكر، مصر- القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.
٧٤. الطبري، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، الناشر: ناصر خسرو، ايران-

- طهران، ط ١، ١٣٦٤ش.
٧٥. العمر، ناصر بن سليمان، تدبّر سورة الكهف، الناشر: مؤسسة ديوان المسلم، ط ٢، الرياض، ١٤٣٥هـ.
٧٦. ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، الناشر: الإعلام الإسلامي، ط ١، قم - إيران، ١٤٠٤ق.
٧٧. صاحب بن عباد، المحيط في اللغة، الناشر: عالم الكتاب، ط ١، بيروت - لبنان، ١٤١٤ق.
٧٨. الزمخشري، محمود بن عمر، أساس البلاغة، الناشر: دار صادر، ط ١، بيروت - لبنان، ١٩٧٩م.
٧٩. القزويني، للملا خليل، الشافي في شرح الكافي، الناشر: دار الحديث، ط ١، إيران، قم ١٤٢٩ق.
٨٠. الفيض الكاشاني، محمد محسن، الوافي، الناشر: مكتبة أمير المؤمنين، إيران - اصفهان، ط ١، ١٤٠٦هـ.
٨١. هويدي، محمد، التفسير المعين، الناشر: ذوي القربى، ط ٦، قم - إيران، ١٤٣٢ ق، ١٣٩٠ش.
٨٢. القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي، الناشر: دار الكتاب، ط ٣، قم - إيران، ١٤٠٤ ق.
٨٣. دستغيب، عبد الحسين، الذنوب الكبيرة، الناشر: الدار الإسلامية، ط ٤، بيروت - لبنان، ١٤٢٧ ق، ٢٠٠٦م.
٨٤. الشيرازي، محمد رضا، التدبّر في القرآن، الناشر: دار العلوم، ط ٣، ١٤٣١هـ.
٨٥. الصدوق، محمد بن علي، التوحيد، الناشر: جامعة المدرسين، ط ١، قم - إيران، ١٣٩٨ق.
٨٦. القمي، عباس، مفاتيح الجنان، الناشر: العتبة الكاظمية المقدسة، ط ١، ١٤٣٤ق.
٨٧. موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية، تفسير سورة الكهف،

http://www.nabulsi.com/blue/ar/sss_cat.php?id=9v&sid=101&ssid=2v7v&sssid=2v78

٨٨. منتدى الدرر السنية، مقالة عروس القرآن، سورة الكهف
<https://akhawat.islamway.net/forum/index.php?showtopic=329913>

٨٩. موقع إسلاميات، مقالة الدكتور عويض العطوي، سورة الكهف،
<http://islamiyyat.rabber.com/post/185595>

٩٠. موقع طريق الإسلام، مقالة منقولة من كتاب ناصر بن سليمان، تدبر سورة الكهف،
<https://ar.islamway.net/article/61444>

٩١. موقع إسلاميات، مقالة الدكتور زيد عمر العيص، فوائد من آيات سورة الكهف،
<http://islamiyyat.rabber.com/post/217769>

٩٢. مدونة الصفطاوي، مقالة منقولة عن محمد السريع، فوائد تدبرية في سورة الكهف،
<http://alsaftawy.blogspot.co.uk/2013/01/99>

٩٣. موقع ملتقى أهل الحديث، دروس الشيخ ناصر العمر، تفسير سورة يوسف،
<http://www.ahlalhdeth.com/vb/archive/index.php/t->

٩٤. موقع أهل التفسير، مقالة الشيخ محمد صالح، ١٠٠ فائدة من سورة يوسف،
<s1/#.WUrmXGjyu3٢٤.https://vb.tafsir.net/tafsir>

٩٥. موقع نداء الإيمان، من كتاب الحاوي في تفسير القرآن، عبد الرحمن القماش،
<s1/#.WUrmXGjyu3٢٤.https://vb.tafsir.net/tafsir>

أَمَلِحْتَوِيَا رَبِّ

المحتويات

٧	كلمة الناشر
٩	الإهداء
١٠	الشكر والتقدير
١١	كلمة الشيخ الدكتور طلال الحسن (دام توفيقه)
١٣	تقريض الشيخ ضياء بلاسم المنصوري (دام توفيقه)
١٥	المقدمة
٢١	التمهيد
٢٣	تقسيمات البحث
٢٩	بيان مفهوم التدبّر
٣٦	موضوع التدبّر
٣٨	هل يشمل التدبّر الآيات الكونية؟
٤٠	هل يشمل التدبّر الأحاديث و الروايات؟
٤١	الخلاصة
٤٢	الثمرة من التدبّر
٤٣	الفصل الأول: الجانب النظري في التدبّر
٤٥	المبحث الأول: الجانب النظري في التدبّر
٤٧	المسألة الأولى: ضوابط التدبّر
٥١	المسألة الثانية: الفرق بين التدبّر و التفسير و التأويل و الاستنباط
٥١	أولاً: الفرق بين التدبّر و التفسير
٥٢	ثانياً: الفرق بين التدبّر و التأويل
٥٥	ثالثاً: الفرق بين التدبّر و الاستنباط
٥٦	المسألة الثالثة: آداب المتدبّر
٥٨	المسألة الرابعة: علامات المتدبّر
٦٠	المسألة الخامسة: مراتب التدبّر

٦١	المسألة السادسة: الإشكالات المتوقعة على مفهوم التدبر
٧٩	المبحث الثاني: نماذج من التدبر
٨١	نماذج من التدبر الظاهري
٨٤	نماذج من التدبر الباطني
٨٧	المحصلة من النموذجين في التدبر الباطني:
٨٩	المبحث الثالث: منهجنا في التطبيق
٩٤	سبب بدايتنا في التدبر من سورتي الكهف ويوسف <small>عليهما السلام</small> :
٩٦	كلمة أخيرة:
٩٧	الفصل الثاني الجانب التطبيقي في التدبر
٩٩	المبحث الأول: التدبر التطبيقي في سورة الكهف
١٠١	المحور الأول سورة الكهف ومعاني مفرداتها
١٠٣	فواتح السورة المباركة:
١٠٤	قصة أصحاب الكهف
١٠٧	الآيات التي أعقبت القصة
١٠٨	قصة صاحب الجنتين
١٠٩	الآيات التي أعقبت القصة
١١١	قصة موسى والخضر <small>عليهما السلام</small>
١١٤	قصة ذي القرنين
١١٦	خاتمة السورة
١١٧	المحور الثاني: الأطروحات في سورة الكهف
١١٩	الأطروحة الأولى في سورة الكهف
١٢١	القصة الأولى: قصة أصحاب الكهف (فتنة الدين)
١٢٣	القصة الثانية: قصة صاحب الجنتين (فتنة المال والولد)
١٢٥	القصة الثالثة: قصة موسى مع الخضر <small>عليهما السلام</small> (فتنة العلم)
١٢٦	القصة الرابعة: قصة ذي القرنين (فتنة القوة، والسلطة)

١٢٩	الملخص:
١٣١	الأطروحة الثانية في سورة الكهف
١٣١	الطريق الأول: التغيير المكاني في القصة
١٣٢	الطريق الثاني: التغيير المعنوي في القصة
١٣٥	التغيير المعنوي المستفاد من التغيير المكاني
١٣٩	الملخص:
١٤١	الأطروحة الثالثة في سورة الكهف
١٤١	ترتيب وتسلسل القصص
١٤٥	الغرض من نزول السورة
١٤٧	المحصلة من الطريقتين:
١٤٧	السفر الأول: قصة أصحاب الكهف
١٤٨	السفر الثاني: قصة موسى والخضر <small>عليه السلام</small>
١٤٩	السفر الثالث: قصة ذي القرنين
١٥٠	الملخص:
١٥٣	المحور الثالث فوائد تدبيرية عامة في سورة الكهف
١٥٥	الجهة الأولى: فوائد عامة
١٥٧	الجهة الثانية: فوائد في فواتح السورة وعلاقتها بما قبلها وبعدها
١٦٠	الجهة الثالثة: فوائد في قصة أصحاب الكهف
١٧١	الجهة الرابعة: فوائد في قصة صاحب الجنتين
١٧٢	للشرك مراتب كما للتوحيد مراتب:
١٧٧	الجهة الخامسة: فوائد في قصة موسى والخضر <small>عليه السلام</small>
١٨٤	الجهة السادسة: فوائد في قصة ذي القرنين
١٩٣	المبحث الثاني التدبير التطبيقي في سورة يوسف
١٩٥	المحور الأول سورة يوسف ومعاني مفرداتها
٢١٣	المحور الثاني الأطروحات في سورة يوسف

٢١٥	الأطروحة الأولى في سورة يوسف <small>عليه السلام</small>
٢١٥	سبب اختيارنا لقصة السيدة زليخا
٢١٧	الآيات الخاصة بالسيدة زليخا:
٢١٧	الشهوة وأسرها:
٢١٨	التكبر منبع الخطيئة:
٢٢٠	الإصرار على الذنب:
٢٢١	المكر والكيد والخداع:
٢٢٣	الهَمَّ بالمعصية:
٢٢٦	الاعتراف بالذنب:
٢٢٨	الخطوة الأولى نحو التوبة:
٢٣٠	ما بين التوبة وحسن الخاتمة:
٢٣٤	حسن الخاتمة
٢٣٥	أهمّ الأمور التي تساعد على ثبات المؤمن:
٢٣٧	الملخص:
٢٣٩	الأطروحة الثانية في سورة يوسف <small>عليه السلام</small>
٢٣٩	الروايات الواردة في المقام
٢٤١	البشارة والتمكين
٢٤٣	الغيبية:
٢٤٨	عدم معرفة الإمام في زمن الغيبة:
٢٤٨	دور الإمام وتأثيره في زمن الغيبة
٢٥١	الملخص:
٢٥٣	المحور الثالث فوائد تدبرية عامة في سورة يوسف <small>عليه السلام</small>
٢٧٦	خاتمة الكتاب
٢٧٩	المصادر والمراجع
٢٨٩	المحتويات